كلية الدراسات العليا

الآيات المعترضة في السور المدنية
دراسة تحليلية تطبيقية

إعداد

عبد الستار يوسف أحمد ريان

إشراف

أ. د. محسن الخالدي

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في أصول الدين، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس –فلسطين.

2025

الآيات المعترضة في السور المدنية
دراسة تحليلية تطبيقية

إعداد

عبد الستار يوسف أحمد ريان

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2025/07/29م، وأجيزت:

أ. د. محسن الخالدي	
المشرف الرئيسي	التوقيع
أ. د. سهيل الأحمد	
الممتحن الخارجي	التوقيع
أ. د. عودة عبد الله	
الممتحن الداخلي	التوقيع
د. أيمن الدباغ	
الممتحن الداخلي	التوقيع

جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

الآيات المعترضة في السور المدنية

دراسة تحليلية تطبيقية

إعداد

عبد الستار يوسف أحمد ريان

إشراف

أ. د. محسن الخالدي

بناء على تعليمات منح درجة الدكتوراه الصادرة عن مجلس عمداء جامعة النجاح فقد تم نشر البحث التالي المستل من الأطروحة

ريان، عبد الستار يوسف، والخالدي، محسن. (2025)، الآيات المعترضة في سورة البقرة دراسة نظرية تطبيقية

الإهداء

أُهدي هذا العمل المتواضع:

- إلى روح والدي الطاهرة –بإذن الله– الذي أحبَّ العلم ورغَّبني فيه، ثم إلى أمي العزيزة الغالية، التي سهرت عليَّ صغيرًا، ورعتني بدعائها كبيرًا، فلا حرمني الله منها، ومن بركة دعائها.
- إلى زوجتي الغالية، وأبنائي الذين كانوا عوناً لي وخير أنيس.
- إلى أخوتي وأخواتي، سندي ومصدر بهجتي في حياتي.
- إلى العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، والمجاهدين والأسرى، الحاملين همّ الإسلام على عاتقهم في زمن زهد النَّاس فيه عن الثبات والتضحية.
- إلى الأكرم منا جميعا قوافل الشهداء الذي قضوا دفاعا عن الأمة بأسرها.
- إلى كل الأهل والأخوة والأصدقاء.

الباحث

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمدﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى كل من اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فإنّي أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ الدكتور الفاضل **محسن الخالدي** على تكرمه قبول الإشراف على رسالتي، وما أبداه لي من نصح وتصويب وإرشاد.

كما أتقدم بالشكر للأفاضل أعضاء لجنة المناقشة:

- الأستاذ الدكتور: عودة عبد عودة عبد الله.
- الأستاذ الدكتور: أَيمَن مصطفى الـدَّبـَّـاغ.
- الأستاذ الدكتور: سهيل محمد الأحمد.

ولا يفوتني أن أقدّم وافر الشكر لكل من علّمني حرفًا من مشايخي الفضلاء، والدكاترة الأعزاء، وأخص منهم شيخنا الحبيب الشيخ خباب الحمد فرجَّ الله عنه، سائلاً المولى أن يجزيهم جزيل الأجر والمثوبة.

والشكر كذلك موصول لكل من ساعدني بعلم أو فائدة أو نصح أو توجيه أو دعاء في سبيل إتمام هذا العمل، فجزاهم الله خيرا.

الباحث

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الأطروحة التي تحمل عنوان:

الآيات المعترضة في السور المدنية
دراسة تحليلية تطبيقية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الأطروحة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الأطروحة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: **عبد الستار يوسف أحمد ريان**

التوقيع: عبد الستار ريان

التاريخ: **2025/07/29**

فهرس المحتويات

الإهداء .....أ
الشكر والتقدير .....هـ
الإقرار .....و
فهرس المحتويات.....ز
فهرس الملاحق.....ط
ملخص .....ي
مقدمة.....1
الفصل الأول: منشأ القول بالاعتراض في القرآن الكريم، ومفهومه، وبيان أنواعه وفوائده وتميزه، وعلاقته بالنَّظم والسِّياق 7
المبحث الأول: منشأ القول بالاعتراض في القرآن الكريم، ومفهومه، وبيان أنواعه وفوائده.....7
المطلب الأول: منشأ القول بالاعتراض وتطور المصطلح في كتب أهل اللغة والتفسير.....7
المطلب الثاني: تعريف الاعتراض في القرآن الكريم.....13
المطلب الثالث: أنواع الاعتراض.....16
المطلب الرابع: فوائد الاعتراض في القرآن الكريم.....25
المبحث الثاني: التفريق بين الاعتراض وما قد يلتبس به من أساليب بيانية.....30
المطلب الأول: التفريق بين الاعتراض والمناسبة.....30
المطلب الثاني: التفريق بين الاعتراض والالتفات.....35
المطلب الثالث: التفريق بين الاعتراض والاستئناف 37
المطلب الرابع: الفرق بين الاعتراض والتذييل.....41
المطلب الخامس: الفرق بين الاعتراض والإقحام.....44
المبحث الثالث: السياق القرآني ونظمه وعلاقة الاعتراض بهما.....48
المطلب الأول: السياق القرآني وعلاقة الاعتراض به 48
المطلب الثاني: النَّظم القرآني وعلاقة الاعتراض به 53
الفصل الثاني: دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في السور المدنية.....60
المبحث الأول: دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في السور السبع الطوال.....62
المطلب الأول: الآيات المعترضة في سورة البقرة.....62
المطلب الثاني: الآيات المعترضة في سورة آل عمران..... 123
المطلب الثالث: الآيات المعترضة في سورة النِّساء..... 138
المطلب الرابع: الآيات المعترضة في سورة المائدة 151

المطلب الخامس: الآيات المعترضة في سورة الأنفال..... 182
المطلب السادس: الآيات المعترضة في سورة التوبة..... 186
المبحث الثاني: دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في بقية السور المدنية..... 195
المطلب الأول: الآيات المعترضة في سورة الحج..... 195
المطلب الثاني: الآيات المعترضة في سورة النُّور 201
المطلب الثالث: الآيات المعترضة في الأحزاب 206
المطلب الرابع: الآيات المعترضة في سورة محمد 211
المطلب الخامس: الآيات المعترضة في سورة المجادلة 222
النتائج والتوصيات..... 229
الخاتمة 234
قائمة المصادر والمراجع 235
قائمة الملاحق..... 258
Abstract.....B

فهرس الملاحق

ملحق (أ): شهادة قبول نشر البحث المستل من الأطروحة..... 258

الآيات المعترضة في السور المدنية
دراسة تحليلية تطبيقية

إعداد
عبد الستار يوسف أحمد ريان
إشراف
أ. د. محسن الخالدي

ملخص

تُعنى هذه الدراسة بتحليل أسلوب الاعتراض القرآني، وذلك من خلال فصلين:

الأول: خُصِّص لتعريف الاعتراض، وبيان وأنواعه، وفوائده، وتتبع نشأته في كتب التفسير، بدءاً بالطبري وانتهاء بابن عاشور، الذي أولى الاعتراض القرآني اهتماماً بالغاً لم يجاره فيه أحد من المفسرين. وقد تضمن هذا الفصل بيان الفرق بين الاعتراض وما قد يلتبس به من أساليب، مثل: المناسبة، والالتفات، والاستئناف، والتذييل، والإقحام، مع الكشف عن مدى ارتباطه بالسياق، ودوره في خدمة نظرية النظم بوصفه أحد أركانها.

والثاني: تناول تتبَّع الآيات المعترضة في السور المدنية، من حيث بيان معناها الإجمالي، ووجه اعتراضها على السياق الواردة فيه، وبيان قوة ارتباطها بسياقها، وانسجامها مع محور السورة الرئيس. ومن أبرز الأوجه التي تُظهر هذا الارتباط:

مقابلة البشارة بالنَّذارة، والثواب بالعقاب، وتثبيت النَّبيﷺ والمؤمنين وتأنيسهم، ولفت أنظارهم إلى بعض المعاني الخفية، مما يُظهر تماسك النَّص القرآني، ويؤكد إعجازه البياني.

وقد برزت أهمية الدراسة في كشف أوجه ارتباط الآيات المعترضة بالسياق الذي وردت فيه، وإزالة توهُّم من ظنَّها شاذة عن السياق القرآني، سواء أكان دافع التوهُّم ضعف تذوق لغة القرآن الكريم، أم عن قصد الإساءة إليه، كما يفعل بعض المعاندين والمستشرقين.

وأخيراً: خلصت الدراسة إلى توصيات تدعو إلى تعميق البحث في تتبع الآيات المعترضة في القرآن الكريم، والكشف عن أوجه مناسبتها لسياقاتها، خاصة في السور المكية، ودراسة تطور هذا الأسلوب في كتب التفسير، لما له من أثر بالغ في فهم النَّص القرآني، وإبراز ترابطه وانسجامه.

الكلمات المفتاحية: الآيات المعترضة، السور المدنية، التفسير، البلاغة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الله ﷻ خلق الخلق ولم يتركهم هملاً، وإنَّما أرسل لهم الأنبياء والمرسلين، مبشرين ومنذرين، يبشرون من أطاع واتقى بجنة الله ورضوانه، وينذرون من عصى وبغى من غضب الله ونيرانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 165]؛ فأنزل اللهﷻ الكتب على أنبيائه، رسائله إلى خلقه، وأمرَه فيهم ونهيه إليهم، وشريعته في أرضه، ودستوره على خلقه، وكان آخرُ هذه الكتب القرآن الكريم، الذي نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ، المحفوظ من أي نقص أو تحريف بحفظ اللهﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

فكان القرآن العظيم معجزةَ نبينا محمدﷺ الخالدة التي تحدى الإنس والجن بها؛ فعجزوا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88]، وقد عجز مشركو العرب أن يعارضوا القرآن بالحجة والبرهان، رغم أنَّهم أهلُ الفصاحة والبيان، بل عمدوا إلى تكذيبه واللغوِ فيه، ومحاربة النَّبيﷺ وصحابتهﷺ بالقوة لمَّا علموا ضعف حجتِهم أمام حجةِ القرآن الغالبة.

وقد تعددت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ولكن التحدي كان في نظمه وأسلوبه. ومما حواه أسلوبه المعجز أسلوب الاعتراض: ويشمل: اعتراض الجملة في الآية، واعتراض الآية والآيات في الموضوع الواحد، حتى يتوهم الناظر لها للوهلة الأولى أنَّها مستقلة عن السياق، وما هي إلا ربط في عقد، واتساق

مع كل. وقد اعتنى بهذا الأسلوب كثيرٌ من المفسرين، ولا سيَّما من كان له اهتمام باللغة العربية وأساليبها البيانية، مثل الزمخشري، وأبي حيان، والبقاعي، والآلوسي، والشوكاني، وسيد قطب. غير أن أكثر من اهتَّم بهذا الأسلوب وتتبع الآيات والجمل المعترضة؛ هو ابن عاشور رحمهم الله جميعاً.

وقد انبثقت فكرة البحث عند تأمُل قول اللهﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: 186]، وهذه آية تحضُّ على الدعاء وتأمر به؛ ولكنَّها وردت وسط آيات الصيام، وكأنَّها مستقله عنها، وعند تتبع سور القرآن الكريم، وجد الباحث أنَّ هنالك آيات كثيرة جاءت على هذه الصورة، ولم يُفرد لها بحث مستقل يحرر المصطلح، ويعين الآيات في سياقها، ويوجه سبب اعتراضها، فاستدعى ذلك –بعد التوكل على اللهﷻ– هذه الدراسة.

أهمية الدراسة

تظهر أهمية هذه الدراسة في إبراز أسلوب الاعتراض، ببيان ارتباط الآيات المعترضة بالسياق الواردة فيه، وإزالة توهُّم من ظنَّها شاذة عن السياق القرآني، سواء أكان دافع التوهُّم لضعف تذوق لغة القرآن الكريم أم عن قصد الإساءة له، كما يفعل بعض المعاندين والمستشرقين.

مشكلة الدراسة

أما مشكلة الدراسة فهي تتمثل في الإجابة عن السؤال الآتي: ما هو مفهوم الآيات المعترضة، وما مدى انسجامها مع السياق الناظم لها؟ ويتفرع عنه:

1- ما مدى اهتمام المفسرين بالآيات المعترضة؟

2- هل يخدم أسلوب الاعتراض نظرية النَّظم؟

3- ما هي الأساليب البيانية التي قد تتداخل مع الاعتراض، وكيف يمكن التفريق بينها وبينه؟

4- كيف يمكن فهم وتوجيه الآيات المعترضة بما يحقق انسجامها لسياقها؟

5- وما هي أبرز الفوائد التفسيرية والبلاغية والتربوية التي يحققها ورود الاعتراض في سياقه؟

أهداف الدراسة

وتهدف الدراسة إلى أمور يمكن إجمالها في الآتي:

1- التعريف بأسلوب الاعتراض، وبيان فوائده، ومدى اهتمام المفسرين بهذا الأسلوب في ثنايا تفاسيرهم.

2- إظهار علاقة أسلوب الاعتراض بنظرية النَّظم القرآني.

3- بيان الفرق بين الاعتراض وما قد يلتبس به من أساليب، مثل: المناسبة، والالتفات، والاستئناف، والتذييل، والإقحام.

4- تحديد الآيات المعترضة في السور المدنية، ومحاولة الكشف عن ارتباطها بالسياق الواردة فيه بما يخدم وحدة النَّص القرآني.

5- بيان أبرز الفوائد التفسيرية والبلاغية والتربوية التي يحققها ورود الاعتراض في سياق الآيات القرآنية في السور المدنية، والكشف عن أثره في توضيح المعاني وتأكيد المقاصد القرآنية.

الدراسات السابقة

من أهم الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع البحث:

1- مناسبة الآيات المعترضة للسياق في الموضوع القرآني الواحد، محمود فايز البطاينة، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، الأردن، سنة 2016/2015م.

وهذه الدراسة من شقين: جانب نظري مطول، وجانب تطبيقي مختصر لم يستوف الآيات المعترضة، درس فيه الباحث الآيات المعترضة في أربع موضوعات رئيسة وهي: الاعتقادية، وآيات الأحكام، والقصص القرآني، والتعليم وتوجيه الأمة، حيث بلغ عدد الآيات المعترضة في هذه الدراسة تسع عشرة آية، وهذا عدد قليل بالنسبة إلى عدد الآيات المعترضة في القرآن الكريم.

2- التناسب السياقي للآيات القرآنية المعترضة بين الموضوع الواحد، أ. محمد فايز بطاينة، ود. محمد رضا الحوري، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، الأردن، 2017م.

هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراة المذكورة أعلاه، وهو أيضا من شقين؛ جانب نظري مختصر، وجانب تطبيقي اقتصر على دراسة خمس آيات باعتبارها نماذج مختارة من سور مختلفة.

3- الاعتراض في القرآن الكريم مواقعه ودلالاته في التفسير، للباحث عبد الله بن عبده أحمد مباركي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، سنة (1428-1429).

4- دلالة الجملة الاعتراضية في القرآن، للباحث أحمد مرغم، رسالة دكتوراه، جامعة سطيف، 2013.

5- الاعتراض مفهومه ودلالاته البلاغية في القرآن، للباحث الدكتور خالد ميلاد محمد، جامعة الزيتونة، سنة (2013).

أما هذه الأبحاث الثلاثة والأخيرة، فقد اهتمت بالجملة المعترضة بمفهومها النحوي، مبرزة الجوانب النحوية والبلاغية لهذا الأسلوب دون التطرق للآيات المعترضة.

وقد تميزت دراستي عن الدراسات السابقة بما يأتي:

1- تتبعت الدراسة تطور أسلوب الاعتراض في كتب اللغة والتفسير، وهذا لم أطلع عليه في أيّ بحث سابق.

2- أنَّها جمعت بين الجانب التأصيلي النظري، والجانب التطبيقي بشكل متوازن دون تطويل في الجانب النظري، لإعطاء الجانب التطبيقي العملي مساحة أكبر؛ لأنَّه مقصد الدراسة.

3- اختصت الدراسة بتتبع الآيات المعترضة في السور المدنية.

4- بيَّنت علاقة الآيات المعترضة بنظرية النَّظم، والإعجاز القرآني.

5- وضَّحت الآثار التفسيرية التي أضافتها الآيات المعترضة إلى سياقها في السور المدنية، مع تجنّب الإطالة في سرد الأقوال التفسيرية المتشابهة، والاكتفاء بالنقل الذي يُبرز الغرض من الاعتراض، ويبيّن أثره في توضيح المعنى، وتعميق دلالة السياق.

6- تتبعت الدراسة المحور الرئيس للسورة المدنية الواردة في الدراسة، وربطت الآيات المعترضة بمحور السورة، مما ساهم في إبراز انسجامها مع السياق الكلي، وبيان دورها في تحقيق الترابط الموضوعي داخل السورة.

منهج الدراسة

اعتمدت في دراستي على المنهج الاستقرائي والوصفي، والتحليلي والاستنباطي، وذلك من خلال:

- استقراء السور المدنية في القرآن الكريم، والنَّظر في كتب التفسير لتحديد الآيات المعترضة.
- وصف وجه اعتراض الآية والآيات داخل النَّص ذي الموضوع الواحد.
- بيان وتحليل سبب الاعتراض في الآيات المعترضة، واستنباط الفوائد التفسيرية والبلاغية والتربوية المترتبة عليه، وبيان أثره في تعزيز المعنى، وتأكيد المقاصد القرآنية.

المنهج التفصيلي:

1- اعتمدتُ في دراستي على تحليل اعتراض الآية أو الآيتين على السياق، دون التطرق إلى الاعتراض الذي يمتد لثلاث آيات فأكثر، وذلك لضبط نطاق البحث، والتركيز على دراسة الآيات المعترضة التي لا تشكّل انتقالاً موضوعياً في النَّص القرآني.

2- اعتمدتُ دراسة الآيات المعترضة المرتبطة بسياق واحد، واستثنيتُ الآيات التي تفصل بين سياقين مختلفين، وذلك لضمان التركيز على الآيات المعترضة التي تندرج ضمن السياق ذاته، دون انتقال إلى موضوع جديد.

3- استثنيت دراسة الآيات المعترضة التي يظهر وجه ارتباطها بسياقها، كالآيات المعترضة التي وردت تعقيباً على القصص القرآني من أجل تثبيت النَّبيﷺ.

4- اقتصرَت الدراسة على السور المدنية وفق شرطين: أن تشتمل السورة على آيات معترضة، وأن يترجَّح القول بمدنيَّتها.

5- أما توثيق الأحاديث؛ فكانت المنهجية على النحو الآتي: إذا كان الحديث في الصحيحين عزوته إليهما، وإن كان في أحدهما عزوت الحديث إليه، وإن لم يكن فيهما، عزوته إلى السنن الأربع، فإن لم يكن فيها، عزوته لأحد الكتب التسعة حسب وروده، وإن لم يكن موجودًا فيها، رجعتُ إلى مصادر الحديث الأخرى من كتب السنة، ومسانيدها.

6- حاولت الالتزام بالأحاديث الصحيحة قدر الإمكان، وإذا كان الحديث في غير الصحيحين، اكتفيتُ بنقل أقوال أئمة الحديث في الحكم عليه، سواء من المتقدمين أم المعاصرين، وذلك بالاعتماد على الكتب التي اعتنت بالحكم على الروايات الحديثية.

7- تعمَّدت ذكر توجيهات المفسرين للآيات المعترضة بنصها غالباً، وذلك لإبراز اهتمام المفسرين على اختلاف الأزمنة بهذا الأسلوب وعنايتهم به.

8- اعتنيت بتوجيهات ابن عاشور؛ لأنَّه أكثر المفسرين اهتماماً بهذا العلم، حيث لا يكاد يترك جملة معترضة أو آية إلا ووقف عندها وقفات مبيناً فوائد هذا الاعتراض وما يضفيه إلى النَّص من معان.

9- اكتفيت بالتعريف بالعالم بترجمة كتابه التفصيلية عند أول ورود في الهامش، وترجمتُ لمن ذُكر في النَّص ولم يُشْتهر، ممن لم أقتبس من كتبهم.

10- قمتُ بتوضيح بعض معاني الكلمات، والتعريف بالبلدان غير المشهورة الواردة في الدراسة.

الفصل الأول

منشأ القول بالاعتراض في القرآن الكريم، ومفهومه، وبيان أنواعه وفوائده وتميزه، وعلاقته بالنَّظم والسِّياق

ربما يكون هذا المصطلح غريباً على القارئ لقلة استعماله، وغرابته على كثير من الباحثين، فكان لا بد من توضيحه، وبيان تميّزه عن المصطلحات المشابهة، وذلك من خلال ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: منشأ القول بالاعتراض في القرآن الكريم، ومفهومه، وبيان أنواعه وفوائده

المطلب الأول: منشأ القول بالاعتراض وتطور المصطلح في كتب أهل اللغة والتفسير

ظهر أسلوب الاعتراض في وقت مبكر عند علماء اللغة والتفسير، وكان ظهوره عند أهل اللغة أولاً، وفي هذا المطلب سوف أتتبع تطور المصطلح في كتب اللغة والتفسير -بإذن الله- على النحو الآتي:

أولا: علماء اللغة؛ من خلال تتبع كتب المتقدمين من أهل اللغة، يظهر اهتمامهم بهذا الأسلوب القرآني، على النحو الآتي:

1. الفراء: وهو أول من وجدته ذكر هذا الأسلوب بوضوح، حيث قال: "وقرأ ابن عَبَّاس بكسر الأول وفتح ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[1]، وهو وجه جيد جعل، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة معترضة- كأن الفاء تراد فيها- وأوقع الشهادة على﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ومثله فِي الكلام قولك للرجل: أشهد- إني أعلم النَّاس بهذا- أنك عالم، كأنك قلت: أشهد- إني أعلم بهذا من غيري- أنك عالم"[2].

[1] فيكون تقدير الكلام: شهد الله – فإنه لا إله إلا هو – والملائكة، أنّ الدين عند الله الإسلام، ..."، فـ"إن" الأولى مكسورة، لأنها معترضة، "والشهادة" واقعة على "أنّ" الثانية، انظر: الطبري: جامع البيان، 270/6.

[2] الفراء: معاني القرآن للفراء، 200/1.

2. أبو علي الفارسي؛ حيث قال: "فمن ذلك ما حكاه سيبويه من قولهم "إنه – المسكين – أحمق"، فـ"المسكين" خبر مبتدأ محذوف، وقد اعترض بهما بين اسم "إن" وخبرها"[1]، وهو بذلك يشير بوضوح أن سيبويه سبقه في توصيف الاعتراض. وقد رجعت إلى الجملة التي أشار إليها أبو علي الفارسي من كتاب سيبويه فكان قوله: "وزعم الخليل رحمه الله أنه يقول إنه المسكين أحمق، على الإضمار.. كأنَّه قال: إنَّه هو المسكين أحمق. وهو ضعيف. وجاز هذا أن يكون فصلا بين الاسم والخبر"[2]، وهو بذلك يشير بوضوح إلى أسلوب الاعتراض، ولكنَّه سمَّاه فصلاً.

3. أمَّا ابن فارس؛ فقد أشار بوضوح إلى هذا الأسلوب بقوله: "ومن سُنن العرب أن يعترِضَ بين الكلام وتمامه كلامٌ، ولا يكون هذا المعترضُ إلا مُفيداً. ومثال ذلك أن يقول القائِل: "اعمَل –واللهُ ناصري– ما شيئتَ، إنما أراد: اعمَل ما شيئتَ. واعتَرضَ بين الكلامين ما اعترضَ"[3].

4. ابن جني؛ وهو أكثر مَن وضَّح هذا المصطلح وعرَّفه، وضرب عليه أمثلة من القرآن الكريم، وأفرد له باباً في كتابه؛ (الاختصاص)، حيث بيّن أن هذا النوع من الأساليب شائعٌ في القرآن الكريم، وفي فصيح الشعر والنثر العربي، وأن العرب اعتادوه وعدّوه من ضروب التأكيد، لذلك لا يُعَدُّ عندهم خطأً ولا موضعَ إنكارٍ، وإن ورد في مواضع لا يُفصل فيها عادةً بين العامل ومعموله، كالفعل وفاعله أو المبتدأ وخبره، إلا نادرًا أو بتأويل، وضرب على ذلك مثالا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾[الواقعة: 75–76]، ثم قال: "فهذا فيه اعتراضان: أحدهما قوله:﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، لأنَّه اعترض به بين القسم الذي هو قوله:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾، وبين جوابه الذي هو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ

[1] أبو علي الفارسيّ: المسائل الحلبيات، ص:146.

[2] سيبويه: الكتاب، 76/2.

[3] ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص:190.

كَرِيمٌ﴾، وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو "قسم"، وبين صفته التي هي "عظيم" وهو قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾"[1].

وهذا يدلُّ على انتباه العلماء المتقدِّمين لهذا الأسلوب، ويُلاحظ أن عناية أهل اللغة بالجملة الاعتراضية كانت أوفر، غير أنّ اعتراض الجملة قد يتقاطع أحيانًا مع الآية في السور ذات الآيات القصيرة؛ مثل المثال السابق الذي أورده ابن جنّي في قوله تعالى:﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فهي آية كاملة، وقد بيَّن ابن جنّي أنها وقعت معترضة. وهذا يدلّ على تنبّه علماء اللغة منذ القديم لمسألة اعتراض الآية، وإن لم يكن ذلك ظاهرًا كما استقرَّ عليه الأمر فيما بعد.

ثانيا: علماء التفسير: أمَّا بالنَّظر في كتب التفسير؛ فقد تطور هذا الأسلوب فيها على النحو الآتي:

1. أول من أشار لهذا المصطلح بوضوح من المفسرين؛ الإمام الطبري في تفسيره الجامع، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: 18]، حيث جعل جملة: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بقراءة كسر الهمزة جملة معترضة، فيكون تقدير الكلام: شهد الله – فإنه لا إله إلا هو – والملائكة، أنّ الدين عند الله الإسلام، وجعل ذلك يشبه قول القائل: أشهد – فإني محقٌ – أنك مما تعاب به برئ[2].
2. أما أول من أظهر أسلوب الاعتراض بوضوح في تفسيره في عدة مواضع؛ فهو الإمام الواحدي في تفسيره (البسيط)، وقد أحصيت أكثر من عشرين موضعاً في تفسيره[3]، أثبت فيها الاعتراض في بعض الآيات والجمل القرآنية، منها، قوله: "وعلى هذا يكون قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ

[1] ابن جني: الخصائص، 336/1.

[2] انظر: الطبري: جامع البيان، 270/6.

[3] وقد اختلفت الصيغة، فأحيانا يقول جملة: (معترضة)، أو (الآية اعتراض)، أو (كلام معترض)، انظر: الواحدي: التفسير البسيط، 355/5، 489/9، 408/11.

بِـمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾، كلاماً معترضاً. وقد يفعل ذلك العرب، يدخلون بين كلام متصل فصلًا يقرب منه في المعنى، وليس هو إياه، وهو كثير في الشعر، من ذلك قول الشاعر:

وقـــــد أَدركتنـــــي والحـــــوادث جمَّـــــةٌ أَسْـــــنَّةُ قـــــوم لا ضـــــعافٍ ولا عُـــــزْلُ[1]

أراد: أدركتني أسنة قوم، فأدخل بينهما جملة معترضة"[2].

وقال في موضع آخر مثبتاً **اعتراض الآية القرآنية:** "والآية اعتراض بين المقسم والمقسم عليه؛ لأنَّ التقدير: فأُقسم بمواقع النجوم إنَّه لقرآن كريم، وقوله: ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾، **اعتراض** أيضًا بين الصفة والموصوف من الجملة التي هي **اعتراض**"[3].

3. شيوع المصطلح في كتب التفسير، بدءاً من الزمخشري في كتابه (الكشاف)، وقد وقفت على عشرات المواضع، أثبت فيها الزمخشري الاعتراض في بعض الكلمات والجمل والآية والآيات، وهذا يُظهر عناية الزمخشري بهذا الأسلوب، وقد عثرت خلال بحثي على رسالة ماجستير بعنوان، "أسلوب الاعتراض في القرآن الكريم من خلال الكشاف للزمخشري، دراسة نحوية"[4]، وهذا يُظهر مدى اهتمام الزمخشري بهذا الأسلوب، ثم شاع المصطلح في كتب التفسير، وظهرت عناية بعض المفسرين به على نحو قريب من اهتمام الزمخشري، مثل أبي حيان في كتابه (البحر المحيط)، والسمين الحلبي في كتابه (الدر المصون)، وابن عادل في كتابه (اللباب)، والألوسي في كتابه (روح المعاني).

وبالرغم من أنّ معظم الكتب المتقدِّمة ركَّزت على اعتراض الجملة، إلّا أنّ اعتراض الآية أو الآيات للسياق الواردة فيه قد ظهر عند عدد من المفسِّرين المتقدِّمين، ومن ذلك:

---

[1] القائل: حنظلة بن عمار، انظر: أبو عبيدة: شرح نقائض جرير والفرزدق، 481/2.

[2] الواحدي: التفسير البسيط، 553/6.

[3] المرجع السابق: 21/ 259.

[4] رسالة ماجستير للباحث رابح العربي، اشراف: د. محمد العيد رتيمة، جامعة الجزائر، كلية الآداب، 2002/2001م.

أ- أن الزمخشري صرح أن قول اللهﷻ: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ [البلد: 12]، أنها **آية معترضة** حيث قال: "وقوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾: اعتراض، ومعناه: أنك لم تدركنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله[1]، وهذه آية تامة وردت معترضة لسياقها، وهو قول اللهﷻ: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ وقد حكم أيضا على هذه الآية أنها معترضة كل من السخاوي[2] والألوسي[3].

ب-ونصَّ أيضاً الزمخشري على **اعتراض آية كاملة** من سورة المزمل، بقوله: "﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾، هذه الآية اعتراض، ويعنى بالقول الثقيل"[4]، وهذه العبارة -الآية اعتراض- تدل بوضوح أن اعتراض الآية كان معروفاً عند الزمخشري، وقد وردت عن جمع من المفسرين المتقدمين منهم الكرماني وقد وردت في تفسيره ثلاث مرات[5]، وابن عطية[6] والنسفي[7] وابن جزي[8] أبو حيان[9] وابي السعود[10] والألوسي[11]، وغيرهم[12].

ج- **أثبت القرطبي اعتراض الآيتين** في قول الله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِهِمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

---

[1] الزمخشري: الكشاف، 4/ 756.

[2] السخاوي: تفسير القرآن العظيم، 2/ 605.

[3] الألوسي: روح المعاني، 15/ 355.

[4] الزمخشري: الكشاف، 4/ 637:

[5] الكرماني: غرائب التفسير وعجائب التأويل، 2/ 843، 1067/2، 1267/2.

[6] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2/ 259.

[7] النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 3/ 592.

[8] ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 423.

[9] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 8/ 413.

[10] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 2/ 88، 5/7.

[11] الألوسي: روح المعاني، 2/ 280.

[12] كالسمين الحلبي وابن عادل والقاسمي.

شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان: 14-15]، وذلك بقوله: "هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان"[1].

كما اثبت اعتراض المقطع القرآني من سورة العنكبوت في أربع آيات متتالية، وهي قول اللهﷻ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[العنكبوت: 20-23]، حيث قال تعقيباً على هذا المقطع: "وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم"[2].

4. العناية الشديدة بهذا الأسلوب؛ وهذا يظهر في تفسير واحد؛ وهو تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير)، فلا يجاريه أحد من المفسرين ممن سبقه ولا ممن أتى بعده في عنايته بهذا الأسلوب، حيث لا يكاد يترك موضوعا فيه جملة أو آية معترضة وسط سياقها، إلا ونبَّه إلى هذا الأسلوب؛ وذلك في مئات المواضع من تفسيره. قال ابن عاشور في مقدمة تفسيره: "تكثر في القرآن الجمل المعترضة لأسباب اقتضت نزولها أو بدون ذلك، فَإِنَّ كل جملة تشتمل على حكمة وإرشاد أو تقويم مُعْوَجٍّ"[3].

[1] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 14/ 63.

[2] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 13/ 337-338.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 81/1.

ولشدة عناية الطاهر ابن عاشور بهذا الأسلوب، كتب مجموعة من الباحثين حول منهج ابن عاشور في الاعتراض من زوايا متعددة[1]، ومع ذلك فهذا التفسير غني جداً بتتبع أسلوب الاعتراض في الجمل والآيات القرآنية، ويَصلُح هذا الموضوع لبحث مطول يدرس أسلوب الاعتراض عند ابن عاشور في تفسيره؛ لأنَّ الأبحاث المذكورة ركزت على جوانب محددة، ولم تكن شاملة لتتبع هذا الأسلوب في تفسيره.

المطلب الثاني: تعريف الاعتراض في القرآن الكريم.

أولا: تعريف الاعتراض في اللغة: الاعتراض: من عَرَضَ، وجمعه أعاريض[2]، وله عدة معان منها:

1. المنع؛ وَالْأَصل فِيه أَن الطَّرِيق إِذا اعترض فيه بناء أَو غيره منع السابلة من سلوكه، واعترض الشيءُ دون الشيء: إذا حال دونه[3].
2. الظهور والبروز؛ "وأعْرض الشيء من بعيد، أي: ظهر وبرز، تقول: النهر معرض لك، أي: موجود ظاهر لا يُمنعُ منه.. قال عمرو بن كلثوم[4]:

وأعرضـــــــتِ اليمامـــــــةُ واشـــــــمخرّت[5] كأســـــــياف بأيـــــــدي مُصْـــــــلتينا"[6]

3. "العرض خلاف الطُّول؛ تَقول مِنهُ: عرُض الشَّيءُ يَعْرُضُ عرَضًا، فهُو عَرِيضٌ"[7].
4. المجاراة؛ "وعارضته بمثل ما صنع، إذا أتيت إليه بمثل ما أتي إليك، ومنه اشتُقَّتِ المعارضة"[8].
5. "مَعَارِيضُ الكلام؛ وَذلك أَنَّهُ يخرجُ في مِعرضٍ غَير لَفظهِ الظَّاهرِ[9].

---

[1] ومن تلك الأبحاث: 1-) الجُمْلَةُ الاعتراضيَّةُ ودَلالاتُهَا فِي سُورَةِ آل عمران عِنْدَ الطَّاهِرِ بنِ عَاشور، لعبد الحميد حمدي عبد الحميد المقدم، 2-) الأغراض الفقهية والشرعية للجملة الاعتراضية عند الطاهر بن عاشور، لإبراهيم محمود عبد المنعم، وأ.د. أحمد عبد الله حمود، 3-) صور من انفرادات ابن عاشور في القول باعتراضية الجمل في كتابه التحرير والتنوير، لإبراهيم محمود عبد المنعم، وأ.د. أحمد عبد الله حمود

[2] ابن منظور: لسان العرب، 184/7.

[3] انظر: الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، 4504/7، والفيروزآبادى: القاموس المحيط، ص: 646.

[4] ابن دريد: جمهرة أشعار العرب، ص:279.

[5] معناه ارتفعت وطالت، انظر: الانباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص:384.

[6] الفراهيدي: العين، 272/1.

[7] وقد جعل ابن فارس كل المعاني عائدة لهذا المعنى، واطال الكلام في بيان ذلك، انظر: ابن فارس: مقاييس اللغة، 269/4-281.

[8] الفراهيدي: العين، 272/1.

[9] ابن فارس: مقاييس اللغة، 274/4.

ولعل أقرب المعاني اللغوية إلى المعنى الاصطلاحي؛ المعنى الأول والثاني؛ فالاعتراض في القرآن الكريم فيه معنى المنع؛ لأنَّه اعتراض بين شيئين، وفيه كذلك إظهار وإبراز لبعض المعاني الخفيَّة.

ثانيا: تعريف الاعتراض في الاصطلاح: يمكن تقسيم التعريف الاصطلاحي إلى قسمين:

1- تعريف الجملة الاعتراضية: وقفتُ على عدّة تعريفات للجملة الاعتراضية، من أبرزها ما يأتي:

أ- تعريف الجرجاني: "هو أن يأتيَ في أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين، معنىً بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب، لنكتة سوى رفع الإبهام، ويسمى: الحشو أيضا[1]، كالتنزيه في قوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾[النحل:57]"[2].

ب-تعريف الزركشي بقوله: "هو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى، بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوت بفواته، فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين"[3]، وجعل من أهم أغراضها التأكيد[4].

ج- أمَّا ابن عاشور فقد عرف الجملة المعترضة بعبارة بليغة مختصرة، بقوله: "الجملة المعترضة: هي الواقعة بين جملتين شديدتي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام، والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له، ولكن للكلام والغرض به علاقة وتكميلاً"[5].

وبناء على ما تقدَّم من تعريفات لغوية واصطلاحية، يمكن تعريف الجملة المعترضة، بأنَّه إدخال جملة أو أكثر داخل السياق القرآني دون التأثير على البناء النحوي للجملة الأصلية، لتحقيق غايات بلاغية، مثل التأكيد، والتوضيح، والتنبيه، أو إبراز معنى معين يفيد السامع.

---

[1] لم يرض الحلي تسميته حشوا فقال: "وسماه قوم حشوا، وليس بصحيح، للفرق الواضح بينهما، وهو أن الاعتراض يفيد زيادة معنى في غرض الشاعر، والحشو لإقامة الوزن فقط" وقال أيضا: وأما الاعتراض ففيه من المحاسن المتممة للمعنى المقصود ما يكاد يمتاز على أكثر الأنواع، انظر: الحلي: شرح الكافية البديعية، ص: 320-321

[2] الشريف الجرجاني: التعريفات، 30-31.

[3] الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 56/3.

[4] انظر: السابق: 56/3.

[5] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 671/1.

2- **تعريف اعتراض الآيات القرآنية:** من الملاحظ أنّ التعريفات الواردة في كتب المتقدّمين للاعتراض القرآني تدور كلّها حول تعريف الجملة المعترضة، وقد تتقاطع الجملة المعترِضة مع الآية المعترِضة في السور ذات الآيات القصيرة، فتكون الآية جملةً معترضة، فمثلا قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، هي جملة معترضة، وهي أيضاً آية تامة، لذلك لمَّا وصف النسفي اعتراضها بقوله: "وهذه الآية اعتراض"[1].

ولذلك فإنّ تعريف الآية المعترِضة يتقاطع أيضًا مع تعريف الجملة المعترِضة، وقد عرّف البطاينة اعتراض الآية والآيات القرآنية لسياقها، بأنّها: "آية أو أكثر تتضمن موضوعاً مستقلاً تقطع سلسلة آيات تتمحور حول فكرة رئيسة واحدة أو تقطع سلسلة الموضوع الذي يتحدث عنه النص"[2].

وهذا التعريف، وإن وصف الآية والآيات المعترضة وصفًا حسنًا، إلا أنّه يؤخذ عليه ما يلي:

أ- أنَّه لا يُعدّ تعريفًا كافيًا شافيًا؛ لأنّه لم يُبيّن الغاية من اعتراض الآيات.

ب- أنَّه وصف الاعتراض بالاستقلال والقطع، وهذا قد يوهم أنّه غير مرتبط بالسياق من أي وجه من الوجوه، والحقيقة أنّه، رغم اختلاف موضوع الآية المعترِضة عن سياقها، إلا أنّه بعد التدبّر والتفحّص يظهر بوضوح قوةُ ارتباطها بسياقها وانسجامها مع النصّ الكُلّي.

بناء على ما تقدم يمكن القول: إنّ اعتراض الآية والآيات القرآنية يُعرَّف بأنَّه: أسلوب بياني قرآني يتمثّل في إدراج آيةٍ أو أكثر في أثناء سياقٍ ذي محورٍ واحدٍ، يظهر بينها وبين السياق انفصالٌ نسبيٌّ مع رجوعٍ بعده إلى المحور الأول، وذلك لتحقيق غرضٍ بلاغي أو معنوي يُقوّي النظم ويزيده اتساقًا، ويُضيف أبعادًا دلالية تُعين على الفهم والتدبّر.

[1] النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 3/ 592.

[2] البطاينة: مناسبة الآيات المعترضة للسياق الموضوعي القرآني الواحد، ص 39.

ثالثا: حد الاعتراض: من خلال التعريفات السابقة يظهر أن حد الاعتراض أن تأتي الجملة المعترضة منقطعة عما قبلها وبعدها في سياق واحد، فتكون دائما لا محل لها من الإعراب، وهذا الضابط مهم في تمييز الجملة المعترضة عن الجملة المستأنفة أو التذييل وغيرها من الجمل[1].

المطلب الثالث: أنواع الاعتراض

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، مشتملاً على الأساليب العربية في الكلام، ومن ضمن هذه الأساليب أسلوب الاعتراض، والاعتراض في اللغة قد يأتي بكلمة أو جملة أو عدة جمل، وبناء على ذلك يمكن تقسيم الاعتراض في القرآن الكريم إلى أربعة أنواع، أبينها من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: اعتراض الكلمة: أكثر أهل اللغة والتفسير منعوا الاعتراض بالمفرد؛ وذلك لأنَّ مقصد الاعتراض إضافة معنى جديد وسط الكلام، وهذا لا يمكن بأقل من جملة، ومع ذلك نجد بعض أهل اللغة أجاز الاعتراض بالمفرد نظرياً، قال ابن الأثير: "وحدُّه: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقي الأول على حاله"[2]، ومع أنَّ ابن الأثير بحث أسلوب الاعتراض في عدة صفحات وساق عليه عدداً من الأمثلة؛ إلا أنَّه لم يقدم مثالاً واحداً على اعتراض المفرد، بل كانت جميع الأمثلة التي أوردها تأتي في سياق اعتراض الجملة.

ومثل ذلك أيضاً عند المؤيد بالله الطالبي، فقد عرَّف الاعتراض بقوله: "وأما المعترض فيه فهو كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب بحيث لو أُسقط لبقى الكلام على حاله في الإفادة"[3]. ومع ذلك لم يورد أيَّ مثال على اعتراض الكلمة.

ومن الأمثلة التي يمكن أن ترد كمثال على اعتراض المفرد في القرآن الكريم[1]، قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الشعراء: 208-

[1] انظر: العصامي: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، 96/2، والشريف الجرجاني: مبادئ قواعد اللغة العربية، ص:40، السيوطي: همع الهوامع، 327/2.

[2] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 40/3.

[3] المؤيد: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 89/2.

209]، فكلمة "ذكرى" معترضة، وهي كلمة مفردة، ومع ذلك لا يُسلَّم أنَّه مثال على اعتراض المفرد، بل هو اعتراض جملة، فقد بيَّن الزمخشري أوجه إعراب كلمة "ذكرى" ثم قال: "مرفوعة على أنَّها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هذه ذكرى، والجملة اعتراضية"[2]، وقد عدها أيضاً الرازي[3]، والبيضاوي[4]، وأبو حيان[5]، جملة اعتراضية.

أمَّا في غير القرآن الكريم فقد أثبت بعض علماء اللغة، الاعتراض المفرد في حالات منها:

1. اعتراض كان، ومثاله، ما كان أحسنَ زيداً، قال سيبويه: "ما كان أحسنَ زيداً، فتُذْكر كان لتدلّ أنه فيما مضى"[6]، وقال ابن السراج بعد أن بيَّن أنَّ كان في هذه الجملة ملغاة: والمعنى المقصود، ما أحسنَ زيدًا، و"كانَ" إنما جِيءَ بها لتبين أنَّ ذلك كان في الزمن الماضي[7].
2. اعتراض ضمير الفصل، وهو اسم لا محل له من الإعراب، وبهذا يختلف عن سائر الضمائر، إذ إن ضمير الفصل لا يقع إلا بين المبتدأ والخبر، ولا يكون بين الموصوف والصفة، ولهذا السبب سمّاه البصريون "ضمير الفصل"، بينما أطلق عليه الكوفيون اسم "ضمير العماد[8]. والأمثلة عليه من القرآن الكريم كثيرة جدا[9]، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة: 5]، قال ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ: هُمُ الْمُفْلِحُونَ الضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ"[10]، ثم بيَّن أنَّ ضمير الفصل يفيد التأكيد، وفي هذه الآية أيضاً أفاد الاختصاص.

---

[1] ومنها أيضا القول بأن كان زائدة في قوله تعالى: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: 29]، وهذا لا يسلم به أيضا فقد بين ابن الجوزي أن كان يمكن أن تعرب تامة بمعنى وقع أو حدث، وبذلك لا تكون معترضة انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 129/3.

[2] الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 338/3.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 534/24.

[4] البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 151/4.

[5] ابو حيان: تفسير البحر المحيط، 195/8.

[6] سيبويه: الكتاب، 73/1.

[7] انظر: ابن السراج: الأصول في النحو، 258/2.

[8] انظر: الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص:571.

[9] الأمثلة على ذلك كثيرة جداً منها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 12]، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62].

[10] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 246/1.

ومع أنَّ البصريين سمَّوا هذا الضمير، ضمير فصل، ولم يجعلوا له محلاً من الإعراب إلَّا أنَّ الكوفيين لم يرتضوا ذلك، فسمَّوه عماداً، وجعلوا له محلاً من الإعراب؛ حيث اعتبروه مبتدأ في نفسه، وما بعده يبنى عليه، أو تأكيداً لما قبله[1].

وبناء على ذلك يتضح أن أهل اللغة أيضاً لم يتفقوا على اعتراض المفرد[2]؛ وهذا يرجح أن الاعتراض في القرآن الكريم لا يكون بأقل من جملة مكتملة الأركان، قال ابن عاشور: " وجمهور العرب يجعلون ضمير الفصل في الكلام غير واقع في موقع إعراب، فهو بمنزلة الحرف، وهو عند جمهور النحاة حرف لا محل له من الإعراب، ويسميه نحاة البصرة فصلاً، ويسميه نحاة الكوفة عماداً"[3].

ومن الدلائل الواضحة على نفي وقوع اعتراض المفرد في القرآن الكريم؛ أنَّ إقرار اعتراض المفرد يستلزم القول بالزيادة؛ فالمعترِضُ منقطع عن السياق، وانقطاعه لا يكون إلا مفرداً زائداً أو يقدَّر جملة، وتقدير الجملة ينفي اعتراض المفرد ولا بد، ودعوى الزيادة في القرآن الكريم نفاه جمع من أهل العلم[4]، قال القرطبي: " القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه، لا زيادة فيه ولا نقصان"[5].

الفرع الثاني: اعتراض الجملة: قسَّم علماء اللغة الكلام إلى: اسم، وفعل، وحرف، وعند اجتماع هذه العناصر؛ فإنَّها تشكل الجمل، وقد عرَّف الجرجاني الجملة بأنَّها: "عبارة عن مركب من كلمتين أُسندت إحداهما إلى الأخرى"[6]، سواء أكانت الجملة مفيدة، كقولك: زيد قائم، أم غير مفيدة، كقولك: إن يكرمني، فإنها تُعد جملة لا يكتمل معناها إلا بتمام جوابها، وبذلك تكون الجملة أعمَّ من الكلام على الإطلاق[7].

---

[1] انظر: ابن السراج: الأصول في النحو، 257/2، الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، ص: 172.

[2] والخلاف بين الكوفيين والبصريين كبير في ذلك، وقد قدم كل فريق حجج كثيرة تدل على مذهبه، انظر: الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، 579/2، والسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 486/1.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 259/25.

[4] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 516/29، والزركشي: البرهان في علوم القرآن، 70/3، وممن نفى الزيادة في القرآن الكريم من المعاصرين وأكثر التأكيد على ذلك في كتبه: الدكتور فضل عباس رحمه الله، وقد أفرد كتاباً خاصاً لمناقشة الزيادة في القرآن الكريم وهو كتاب: لطائف المنان في نفي الزيادة والحذف في القرآن.

[5] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 103/20..

[6] الشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 78.

[7] السابق: ص: 78.

وهذا هو التعريف الذي استقر عليه المتأخرون[1]، إذ قال السيوطي: "وَالْجُمْلَة قيل: ترادف الْكَلَام، وَالأَصَح أَعم، لعدم شَرط الإفادة" [2].

أما الاتجاه الآخر من المتقدمين فقد كانوا يرون الجملة تساوي الكلام[3]، يعني اشترطوا فيها الإفهام، قال أبو علي الفارسي: "باب ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة[4]، كان كلاماً مستقلاً، وهو الذي يسميه أهل العربية الجمل"[5]، وقال ابن جني: "الجملة فَهِي كل كلام مُفِيد مُستقل بنفسه"[6].

أما الجملة المعترضة فلا يمكن أن تأتي إلا إذا كانت مُفهمة، لذلك عرفها الجرجاني بأنَّها:" التي تتوسط بين أجزاء الجملة المستقلة لتقرير معنىً يتعلق بها، أو بأحد أجزائها، مثل: زيد –طال عمره– قائم"[7]، قال ابن فارس: "ومن سُنن العرب أن يعترِضَ بين الكلام وتمامِهِ كلامٌ، ولا يكون هذا المعترِضُ إلا مُفيداً"[8]، وذلك لأنَّ الجملة المعترضة توسطت السياق لتضيف معنى جديداً، وهذا لا يتأتى إلا بجملة أو عدة جمل؛ لذلك كانت الجملة المُفهمة الحد الأدنى للاعتراض في القرآن الكريم على الأرجح[9].

وعند تدبر كتاب اللهﷻ يظهر أن الجملة المعترضة في القرآن الكريم باعتبار موضعها تقسم إلى قسمين[10]:

الأول: الاعتراض بين أجزاء الكلام، وذلك بأن تأتي الجملة المعترضة بين أركان الجملة[11]، كأن تأتي بين:

---

[1] وهو رأي ابن هشام، انظر: ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص: 490 والكفوي: الكليات، ص: 341.

[2] السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، 55/1.

[3] انظر: الجرجان: المقصد في شرح الإيضاح، 70/1، والزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، ص: 23.

[4] الاسم والفعل والحرف.

[5] أبو علي: المسائل العسكريات في النحو العربي، ص:63.

[6] ابن جني: اللمع في العربية، ص: 26.

[7] الشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 78.

[8] ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص: 190.

[9] العربي: أسلوب الاعتراض في القرآن الكريم من خلال الكشاف، ص:54.

[10] انظر: العربي: أسلوب الاعتراض في القرآن الكريم من خلال الكشاف للزمخشري، ص:66–81.

[11] وقد تأتي أيضا بين الفعل والفاعل وبين الموصوف والصفة، والموصول وصلته، وبين الجار والمجرور، وبين الحال وصاحبها.

1. الخبر والمبتدأ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾[محمد: 2]، فكانت جملة: ﴿ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾: جملة معترضة بين المبتدأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وجملة، ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، "تفيد حصر الحقية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ﴾"[1].
2. بين الشرط وجوابه: نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ ﴾ [البقرة: 24]، فجملة ولن تفعلوا، اعتراض بين فعل الشرط وجوابه، لا محل لها من الإعراب، وهي تفيد التأكيد[2].
3. بين القسم وجوابه: نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[ص: 84-85]، ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾: اعْتِراضٌ بَيْنَ القَسَمِ وجَوابِهِ، قال ابن جزي: "والحق أقول جملة اعتراض بين القسم وجوابه على وجه التأكيد للقسم"[3].

الثاني: الاعتراض بين كلامين متصلين: نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾[آل عمران: 36]، قال أبو السعود: "﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا ﴾، تعظيمٌ من جهته تعالى لموضوعها وتفخيمٌ لشأنه.. والجملة اعتراضية"[4].

الفرع الثالث: اعتراض الآية: أما اعتراض الآية فهو اعتراض جملة أو أكثر، وذلك بأن تأتي آية واحدة فأكثر وسط سياق معين، بحيث يظن القارئ لها أنَّها مستقلة عن السياق استقلالاً تاماً، وهي ما جاءت إلا

[1] الألوسي: روح المعاني، 195/13.
[2] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 174/1.
[3] ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، 214/2.
[4] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 28/2.

لإضافة معنى معين، كالآية المعترضة وسط آيات الصيام: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: 186]، وتختلف الآية المعترضة عن الجملة المعترضة في أمور منها:

1. أن الآيات المعترضة تمثل موضوعاً قرآنياً مستقلاً، بحيث لو تم نزعها من السياق لحافظت على المعنى الذي سيقت من أجله، خلافا للجملة المعترضة التي نزعها عن سياقها يفقدها مضمونها وغرضها الذي سيقت من أجله[1].
2. أنَّ لسابق الجملة الاعتراضية، ولاحقها ضرورة علاقة نحوية، وهذا غير لازم في الآيات المعترضة[2].
3. أن الجملة الاعتراضية لَا مَحل لَهَا من الْإِعْرَاب، ولا يمكن تقديرها بمفرد، وإنما جيء بها بحيث تفِيد التأكيد أو التنبيه[3]، أما الآية المعترضة فهي موضوع مستقل يحمل معنى تاماً.

ويمكن تقسيم الآيات المعترضة في القرآن الكريم، باعتبارين:

الأول: الآيات المعترضة من حيث عددها:

1- الاعتراض بآية: مثاله؛ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 277]، فهذه آية معترضة وسط آيات الربا.

2- الاعتراض بآيتين: مثاله؛ قول الله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا

[1] انظر: البطاينة: مناسبة الآيات المعترضة للسياق القرآني الواحد، 40-41.
[2] انظر: السابق: 40-41.
[3] انظر: السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، 327/2.

لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 238-239]، فهاتان آيتان معترضتان وسط سياق الحديث عن الطلاق والعدة.

3- الاعتراض بثلاث آيات، مثاله؛ قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: 53-55]، فهذه ثلاث آيات معترضة وسط سياق الحديث عن قصة نبي الله موسى عليه السلام.

4- الاعتراض بمقطع قرآني، مثاله؛ قول الله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة: 190-195]، فهذه خمس آيات تتحدث عن القتال وردت معترضة في سياق آيات الحج وأحكامه.

والثاني: طبيعة الاعتراض: إذ يمكن تقسيم الآيات المعترضة بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

1- أن تتوسط الآية المعترضة سياقين مختلفين، بحيث لا يكون لها ارتباط ظاهر بالسياق السابق أو بالسياق اللاحق، ومثاله؛ قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158]، فقد توسطت هذه الآية سياقين مختلفين، فالسياق السابق يتحدث عن الجهاد في سبيل الله عز وجل، والسياق اللاحق عن إثم كتمان آيات الله وما استحقوا بذلك من لعن وطرد من رحمة الله عز وجل،

واعترضت هذه الآية بموضوع مستقل بين الموضوعين؛ في بيان أحد واجبات الحج والعمرة، قال ابن عاشور: "هذا كلام وقع معترضاً بين محاجة أهل الكتاب والمشركين في أمر القبلة"[1].

2- أن تتوسط الآية المعترضة سياقا واحداً، ولكنَّها تتصل بهذا السياق بوجه من الوجوه، وأكثر هذه الآيات هي اعتراض من قول اللهﷻ، أثناء إيراده القصص القرآني، ومثاله قول اللهﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: 44]، فقد وردت هذه الآية في سياق ذكر الله ﷻ قصة مريم عليها السلام، وهذا الاعتراض فيه إظهار منَّة الله على سيدنا محمدﷺ بإخباره أخبار الأقوام السابقة، وهذا كثير جدا في القرآن الكريم[2]، وقد بين ابن عاشور أن هذه الآيات المعترضة في القصص القرآني وردت: للتنبيه على موضع الموعظة، وهو الهدف الأساس من تلك القصص، فيكون ذلك اعتراضًا لبيان المقصود من الكلام، وهذا الأسلوب كثير الورود في مواضع الاعتراض في الكلام[3].

3- أن تتوسط الآية المعترضة سياقاً واحداً، دون أن يظهر لها ارتباط ظاهر به، كما في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: 277]، حيث توسطت هذه الآية السياق القرآنيَّ الذي يتحدَّث عن الربا والتشنيع على فاعله، بموضوع مستقلٍّ، لا يظهر وجه ارتباطه بسياقه.

الفرع الرابع: اعتراض السور؛ وذلك بأن تتوسط سورة مجموعة من السور بحيث تختلف في خصائصها عن سابقتها ولاحقتها مع تشابهها مع السور غير المتجاورة. وقد أوضح الفراهي أن السورة تقوم على

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 2/ 58.

[2] على ذلك أمثلة كثيرة، أذكر منها:

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأعراف: 174].
- ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ ﴾ [هود: 49].
- ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ [هود: 100].

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 16/9.

موضوع واحد يجمع آياتها، ثم تكون بينها وبين السورة السابقة أو اللاحقة، أو كلتيهما، مناسبة تربط المعاني وتكمل المقاصد[1]، وبذلك يمكن أن تأتي بعض السور معترضة كما تعترض الجمل أو الآيات، وبهذا الأصل يُنظر إلى القرآن الكريم كله على أنه كلام واحد متناسق، مرتبط الأجزاء، متناسب المعاني، يجمعه نظام بديع وترتيب محكم[2]. وقد جعل الفراهي هذه الطريقة في الترتيب تشبه ترتيب الجيش المعقد الذي يظنه غير الخبير أنَّه ضرب من العشوائية؛ وهو في الحقيقة وفق نظام محدد ومدروس[3].

ومع ذلك، لم يضرب الفراهي أمثلة على السور المعترضة[4]. ومن ذلك اعتراض سورة الرعد بين السور التالية: (يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر)، إذ اختلفت سورة الرعد عن هذه السور في بعض الخصائص، رغم توسُّطها تماماً بين سورتي يوسف وإبراهيم. وعند تدبُّر هذه السورة، وجدت أنَّها قد انفردت عن السور المجاورة لها في أمور، منها[5]:

1- السور الخمسة سور مكية[6]، إلا سورة الرعد فهي سورة مدنية[7].

2- بدأت السور الخمسة، بالحروف المقطَّعة: " الر"، بخلاف سورة الرعد التي بدأت، بالحروف المقطَّعة بزيادة حرف الميم: "المر".

3- اشتملت السور المكية الخمسة على القصص القرآني، بخلاف سورة الرعد التي خلت من القصص القرآني، وركَّزت بشكل كبير على قضايا العقيدة المختلفة.

---

[1] انظر: الفراهي: دلائل النظام، ص:75.

[2] انظر: السابق: ص:75.

[3] انظر: الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص:41.

[4] ولكن أشار إلى إدخال بعض السور المدنية وسط سور مكية، أو إدخال بعض السور المكية وسط سور مدنية، مثل ادخال سورة الأحزاب المدنية وسط السور المكية، انظر: الفراهي: دلائل النظام، ص:93.

[5] لا أريد التفصيل كثيراً في اعتراض السور لأنَّه ليس مجال البحث، وقد لفتُ الانتباه عليه كنوع من أنواع الاعتراض في القرآن الكريم، ولم أجد من أشار إليه بوضوح غير الفراهي رحمه الله، ولكنه لم يضرب عليه أي مثال.

[6] وهذه السور الخمسة مكية بالاتفاق انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 44/1.

[7] هنالك خلاف بين أهل العلم في تحديد سورة الرعد مكية أو مدنية، وقد رجح جمع من أهل العلم أنَّها مكية منهم: الامام مقاتل في تفسيره، والطبري، والزجاج، وابن الجوزي وابن عاشور وغيرهم، انظر: مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، 357/2، والطبري: جامع البيان، 405/13، والزجاج: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، 135/3، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 479/2، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 81/1، قال السيوطي موضحاً هذا الخلاف ومرجحا أنَّها سورة مكية:

" هَذَا الَّذِي اتَّفَقَتْ فِيهِ الرُّوَاةُ لَهُ ***وَقَدْ تَعَارَضَتِ الْأَخْبَارُ فِي أُخَرِ

فَالرَّعْدُ مُخْتَلِفٌ فِيهَا مَتَى نَزَلَتْ ***وَأَكْثَرُ النَّاسِ قَالُوا الرَّعْدُ كَالْقَمَرِ، والقمر مكية بالاتفاق، انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 45/1.

وحسب نظرية الفراهي يمكن ربط سورة الرعد بما قبلها من غير مجاورة مع اتحاد في الصفات، وهذا ينطبق على سورتي الأنفال والتوبة، وما بعدهما من غير المجاورة مع سورة النحل، لخلو هذه السور من القصص القرآني، واتحادها مع سورة الرعد في بعض الموضوعات.

المطلب الرابع: فوائد الاعتراض في القرآن الكريم

عُرِف الاعتراض عند العرب في شعرهم ونثرهم بوصفه أحد أساليب اللغة العربية، حتى قال ابن جني: "الاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه"[1]، وقد أكد ابن الأثير هذا المعنى بقوله: "والاعتراض إذا كان هكذا كسا الحديث لطفًا إن كان غزلاً، وكساه أبَّهة وجلالاً إن كان مديحاً... وإن كان هجاء كساه تأكيداً وإثباتاً"[2].

ومن خلال ما قرره أهل البلاغة من أثر الاعتراض في تحسين المعنى وزيادة رونقه، يمكن أن نفهم سرّ عناية القرآن الكريم بهذا الأسلوب، إذ لا يَرِد فيه إلا لتحقيق مقصد عظيم وفائدة بليغة، وقد تنبّه العلماء إلى ذلك فعدّوه من وجوه الإعجاز وأسرار البيان، إذ لا يأتي إلا لفائدة تضيف للنَّص القرآني معنى جديداً، أو لتأكيد معنى سابق.

ولا تقتصر فائدة الاعتراض على الجملة المعترِضة، بل تتعدّاها إلى الآية والآيات، وهذه الفوائد تُسهم في تنبيه الأذهان، ودفع السآمة، وتجديد النشاط من خلال الانتقال من غرض إلى آخر، كما تُحدث تشويقًا في النفس لاستماع بقية الكلام ومتابعته باهتمام[3].

وقد أبدع علماء التفسير في الكشف عن هذه المعاني، وإظهارها للقارئ، من باب إظهار جمال نظم القرآن الكريم من جهة، ورداً على من توهم إقحام بعض الألفاظ والجمل في السياق القرآني من جهة أخرى، وفي هذا المطلب أبيّن –بإذن الله– أهم هذه الفوائد من خلال فرعين كما يأتي:

---

[1] ابن جني: الخصائص، 341/1.

[2] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 44/3.

[3] المراغي: تفسير المراغي، 12/ 32.

الفرع الأول: فوائد اعتراض الجملة القرآنية:

أولا: التأكيد، وهُوَ أن يكون اللفظ واردًا لتأكيد المعنى السابق عليه وتثبيته في النفس[1]. ومثاله قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ [محمد: 2]، قال ابن كثير: "وقوله: ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ جملة معترضة حسنة"[2]، ووقد بيَّن الشوكاني: أنها: "جملة معترضة، لتأكيد حقيقة هذا المنزل على النَّبي ﷺ وتقرير كماله وصدقه"[3]، فهذا المنزل وهو القرآن الكريم، من عند الله ﷻ وليس من عند أحد غيره.

فالآية الكريمة تتحدث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لتبين لهم جزاء أعمالهم؛ وهو تكفير السيئات واصلاح الحال، ولو قُرئت الآية دون الجملة المعترضة لتم المعنى الإجمالي لها: "والذين آمنو وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد.. كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم"، ولكن الآية مع الجملة المعترضة تقرر وتؤكد على حقيقة أخرى، وهي أنَّ القرآن من عند اللهﷻ، وهذه الحقيقة تتكرر في القرآن الكريم؛ ولعل السبب في ذلك عائد إلى أمرين، والله أعلم:

1- كثرة المكذبين والمعرضين عن كتاب اللهﷻ المشككين في نسبته له تكبراً وجهلاً.

2- إذا ثبت أنَّ القرآن من عند اللهﷻ؛ فإن النَّفس تطمئن لما جاء به من قواعد وأحكام.

وبذلك تكون الجملة المعترضة ردَّاً على الكافرين والمكذبين من جهة، وترغيباً للمؤمنين بالإيمان، والتصديق من جهة أخرى.

ثانيا: النَّفي وهو ضدُّ الإيجاب، وهو عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل، ومن أدواته التي تدل عليه لا، ما، ولن، وليس، وغيرها[4]. ومثاله، قول الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا

[1] انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص:19، الشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 50، الكفوي: الكليات ص: 267.

[2] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 306/7.

[3] انظر: الطنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 218/13.

[4] انظر: ابن سيده: المخصص، 166/4، الشريف الجرجاني: التعريفات، ص:245.

ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 24]؛ فَإن جملة ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ اعْتِرَاض حسن أَفَادَ معنى آخر؛ وَهُوَ النَّفْي بِأَنَّهُم لن يَفْعَلُوا ذَلِك[1]. قال الخطيب الشربيني: "وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ جملة معترضة أي: لا يقع منكم ذلك أبداً لإعجاز القرآن"[2].

وهذا الاعتراض فيه دليل على إعجاز القرآن من جهة، وعلى صدق النَّبيﷺ من جهة أخرى؛ وذلك لأنَّه لا يمكن لبشر أن يتنبأ هذا النفي بعدم قدرة النَّاس على الإتيان بمثله في الحال وفي المستقبل، فدلَّ ذلك أنَّه من كلام اللهﷻ، وأن الجملة المعترضة ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ من قبيل الإعجاز الغيبي؛ لأنَّ الآية تخبر عن العجز في المستقبل قبل حصوله[3].

ثالثاً: التنزيه: من "نَزُهَ نَزاهةً وتَنَزَّهَ تنَزُّهاً إِذَا بَعُدَ"[4]، والتنزيه في حق الله: عبارة عن تبعيده عن أوصاف البشر وعَن كل مَا لَا يَلِيق بالإلهية[5]. ومثاله: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ [النحل: 57]، فجملة ﴿سبحانه﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أسبح)، وهي معترضة بين قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ ﴾، وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾، وقعت جواباً عن مقالتهم السيئة التي تضمنتها حكاية، ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ ﴾، والغرض منه التَّنزيه والتَّعظيم للَّه تعالى، وفيه التشنيع على من جعل البنات للَّهﷻ، وذكر التسبيحُ هنا إظهاراً للتعجب من جرأتهم على اللهﷻ، وعظم الفرية التي نسبوها لله بنسب البنات له مع كرهها لأنفسهم، وهي مثل: ﴿حاش لله﴾ و﴿معاذ الله﴾، في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ

[1] انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 101/1. أبو البقاء الحنفي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، 145.

[2] الشربيني: السراج المنير، 35/1.

[3] انظر: رشيد رضا: تفسير المنار، 162/1، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 343/1.

[4] ابن منظور: لسان العرب، 548/13.

[5] انظر: الشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 67، الكفوي: الكليات، ص: 627.

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31] ، وقوله: ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ ﴾ [يوسف: 23][1].

رابعاً: التبرك من بَرَكَ، والتبريك الدعاء للإنسان أو لغيره بالبركة[2]. ومثاله قول اللَّه تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 70]، وقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾، حضٌّ لموسىعليه السلام على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، وتبرير لمسلكهم في كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه؛ فكأنَّهم متبركون بمشيئة الله في طلب الهداية لمعرفة البقرة التي توصلهم للقاتل، مظهرين حسن قصدهم، ومبيّنين أنّ كثرة السؤال ليست من قبيل العناد[3]. قال رسول الله ﷺ: "إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنَّهم لمَّا شدَّدوا على أنفسهم شدَّد الله عليهم؛ وأيم الله لو أنَّهم لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخر الأبد"[4].

خامسا التنبيه: وهو إعلام ما في ضمير المتكلم للمخاطب، للدلالة عما غفل عنه[5]. ومثاله قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 102]، ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾، جملة معترضة أثار اعتراضها ما أشعر به قوله: ﴿ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾ من معنى أنَّهم كذبوا على سليمان ونسبوه إلى الكفر، فجاءت للتنبيه وازالة هذا الاستشكال[6].

---

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 182/14.

[2] الرازي: مختار الصحاح، ص: 33، وابن منظور: لسان العرب، 395/1-405، الكفوي: الكليات، ص: 248.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير 554/1، والطنطاوي: التفسير الوسيط، 168/1.

[4] الطبري: جامع البيان، 205/2، لم أجده إلا في كتب التفسير، وهو حديث مرسل، قال أحمد شاكر، في هامش الصفحة المذكورة أعلاه: "وهو مرسل لا تقوم به حجة"، والشاهد من الإيراد اثبات الاستثناء والدلالة على أنَّه اعتراض.

[5] انظر: ابن منظور: لسان العرب 546/13، والشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 67.

[6] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 630/1.

هذه بعض الفوائد للجمل المعترضة في القرآن الكريم على اختلاف مسمياتها بين مفسر وآخر، فقد تأتي الجمل الاعتراضية أيضاً؛ على سبيل التحدي[1] والتسديد[2] والتخصيص[3] والتوبيخ[4] والتعظيم[5]، فالقرآن الكريم لا تنتهي فوائده ولا تنقضي عجائبه، وكلما قلَّب الناظر فيه بصره خرج بفوائد جديدة ومعان عديدة، فسبحان الله العلي الكبير الذي أعجز خلقه بكتابه فكان حجة عليهم.

الفرع الثاني: فوائد اعتراض الآيات القرآنية:

أما الآيات المعترضة؛ فقد تشترك في سبب اعتراضها مع الجمل المعترضة في بعض الفوائد التي سبق ذكرها، وقد يكون لاعتراضها سبب آخر وفائدة لا تظهر إلا بعد التدقيق والتمحيص؛ لذلك اهتم جمع من المفسرين بالآيات المعترضة، وبينوا سبب اعتراضها، متفقين في بعض الأحيان في تحديد ذلك السبب، ومختلفين أحياناً أخرى، فكل آية معترضة في الغالب تحمل معنىً يختص بموضعها، ومع ذلك يمكن إجمال بعض الفوائد التي تشترك فيها بعض الآيات المعترضة، كما يأتي:

1- المقابلة: مقابلة البشارة بالنذارة والثواب بالعقاب، والعمل الصالح بالعمل الفاسد، وهذا كثير في القرآن الكريم، وهذا من أبرز أسباب اعتراض كثير من الآيات للسياق الواردة فيه.

2- تثبيت النَّبيﷺ والمؤمنين، وتأنيسهم، وذلك باعتراض بعض الآيات التي فيها تسلية للنبيﷺ، في سياق القصص القرآني، لتلفت نظر النَّبيﷺ إلى سنة الله في عقاب الكافرين، وإنجاء المؤمنين من الأنبياء السابقين وأتباعهم.

3- لفت النَّظر إلى بعض المعاني الخفية، وذلك مثل دلالة اعتراض آية الدعاء، في سياق آيات الصيام، لتدل على أهمية الدعاء للصائمين، وأنَّه أحري بالإجابة.

---

[1] ومثاله قول اللهﷻ: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 24]، وهو مثال على النفي أيضا.

[2] ومثاله قول اللهﷻ: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: 101]

[3] ومثاله قول اللهﷻ: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: 14]

[4] ومثاله قول اللهﷻ: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة:83-85].

[5] وهذا مثال على القسم والتعظيم: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة: 75، 76]

4- التفنن بالخطاب، مثل اعتراض آية تحريم أكل مال اليتيم في سياق آيات الميراث في بداية سورة النساء، لتدل على عظم أكل مال اليتيم، وأن الوريث القاصر يتيم لا يجوز الاعتداء على ماله.

5- إلقاء الموعظة وسط آيات التشريع، وهذا يظهر من قوله تعال: ﴿حافظوا على الصلوات﴾، فهي آية تحض على الصلاة والمحافظة عليها، في سياق آيات التشريع التي تختص بالحياة الأسرية من زواج، وطلاق، وعدة، وغيرها

وهذا ما يظهر جلياً عند تتبع الآيات المعترضة في الفصل الثاني بإذن الله تعالى، محاولاً عرض أبرز أقوال المفسرين في توجيه سبب اعتراض هذه الآيات، ومرجحاً بينها ومضيفاً أسباباً أخرى تظهر بعد تقليب أقوال المفسرين، وتدبر تلك الآيات، ومن الله العون والتوفيق والسداد.

المبحث الثاني: التفريق بين الاعتراض وما قد يلتبس به من أساليب بيانية

تأخَّر ظهور أسل ما هي الأساليب البيانية التي قد تتداخل مع الاعتراض، وكيف يمكن التفريق بينها وبينه ما هي الأساليب البيانية التي قد تتداخل مع الاعتراض، وكيف يمكن التفريق بينها وبينه وبين الاعتراض في كتب التفسير بالمقارنة مع باقي الأساليب اللغوية التي عُني بها أهل التفسير واللغة، ولذلك قد يلتبس فهم هذا الأسلوب مع بعض أشباهه؛ فكان هذا المبحث من أجل رفع الالتباس، وإظهار الفرق بين أسلوب الاعتراض، وبعض أشباهه على النحو الآتي:

المطلب الأول: التفريق بين الاعتراض والمناسبة

سبق تعريف الاعتراض في المبحث الأول من هذا الفصل، ولا بد من تعريف علم المناسبات حتى يظهر الفرق بين المناسبة والاعتراض:

أولا: تعريف المناسبات في اللغة والاصطلاح:

1- تعريف المناسبة في اللغة: كلمة (نسب) مكوّنة من النون والسين والباء، وهي تدل في أصلها على معنى الاتصال والارتباط بين شيئين، ومن هذا المعنى سُمِّي النَّسَب بهذا الاسم، لأنه يدل على

اتصال الإنسان بآبائه واتصالهم به، فيُقال: نسبتُ فلانًا إلى أبيه أي ألحقتُه به، وهو نسيب فلان أي ذو قرابةٍ واتصالٍ به[1]، والنَّسَّابُ: الْعَالِمُ بالنَّسَب، والنَّسِيبُ رَقِيقُ الشِّعْر فِي النساءِ، والنسيب الطريق المستقيم، وقيل: النسيب طريق النمل[2].

وعند التدقيق في التعريفات اللغوية أعلاه؛ يظهر أنَّها تفيد المتابعة والاتصال، وهذا وجه ارتباط المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي كما سيظهر من التعريف الاصطلاحي أدناه.

2- أما تعريف المناسبة في الاصطلاح؛ فقد عرفها الجرجاني بقوله:" النسبة: إيقاع التعلق بين الشيئين"[3]، وعرَّف البقاعي: علم مناسبات القرآن أنَّه علم تُعرَف به علةُ ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة؛ لأنَّه يُوصِل إلى تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتقوم الإجادة فيه على فهم مقصود السورة والغرض الذي سيقت لأجله[4].

وعلم المناسبات علم جليل يُظهر فصاحة القرآن الكريم، وترابط كلماته وآياته، وقد بيَّن الزركشي أن هذا العلم قلَّ اعتناء المفسرين به لدقته ولِدِقَّةِ مباحثه، إذ لا يدرك لطائفه إلا من أوتي فهماً دقيقاً ونظراً عميقاً في نظم القرآن وترتيب آياته[5]، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وأكد ذلك بقوله: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[6]. فعلم المناسبات ينقسم إلى عدة أقسام، باعتبار الآيات والسور، وقد أبرز علماء التفسير -ممن تتبع علم المناسبات- هذه الوجوه[7]، وأظهروا صور التناسب بين الآيات والسور المتجاورة، وإذا تتبعنا هذه الأقسام نجد أنَّ هذه الأنواع الكثيرة تقسم إلى قسمين رئيسين من حيث الظهور والخفاء:

---

[1] انظر: ابن فارس: مقاييس اللغة، 423/5.

[2] انظر: ابن منظور: لسان العرب، 756/1.

[3] الشريف الجرجاني: التعريفات، ص: 241.

[4] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 142/1.

[5] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 36/1.

[6] ونص كلامه: "لما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"، انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 110/10.

[7] كالمناسبة بين الآية وما قبلها وما بعدها، ومناسبة المقطع القرآني لما قبله وبعده، والمناسبة بين ختام الآية وصدرها، والمناسبة بين الفواصل القرآنية، والمناسبة بين أوائل السور وأواخرها، والمناسبة بين مجموعة سور، ومناسبة آخر السورة لأول السورة التي بعدها، والمناسبة بين اسم السورة ومضمونها.

القسم الأول: ما ظهر منها بشكل جلي وواضح من خلال النَّظر إلى النَّص، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، فقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ويظهر بشكل جلي مناسبة هذه الخاتمة للآية، وقد ذكر الإمام الرازي: "أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فالمعنى: عزيز في انتقامه، حكيم في شرائعه وتكاليفه. قال الأصمعي "كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية فقلت: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال أعد، فأعدت: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ثم تنبهت فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع"[1].

وهذا يدل على أن الأعرابي علم بسليقته أن خَتم الآية بجملة ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يناسب سياق الآية.

ومنه أيضا مناسبة نهاية بعض السور لبداية ما بعدها كمناسبة نهاية سورة الطور، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: 49]، لبداية سورة النجم، ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: 1]، وكمناسبة آخر سورة الواقعة، ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: 96]، لبداية سورة الحديد﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: 1]، واجتماع سور الحواميم بشكل متتال، كل ذلك وجوه ظاهرة للتناسب بين الآيات والسور.

أما القسم الثاني: فهو ما احتاج إلى تدبر وطول تفكر حتى يظهر للقارئ وجه التناسب، ومن ذلك:

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 357/11.

1- طلب المناسبة بين أول السورة وآخرها، إذ لا غنى للمتأمّل عن ربط ختام الكلام ببدايته، وبدايته بنهايته؛ فبذلك يتحقق مقصود الشارع في فهم المكلّف للمعنى الكامل، أما إذا نُظر في أجزائها متفرقة دون ترابط، فلن يُدرك المقصود على وجهه الصحيح[1].

وقد ألّف السيوطي في ذلك كتاباً سمّاه: (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)[2]، بيّن فيه وجه تناسب أوائل السور مع أواخرها؛ ومن ذلك:

- "براءة: افتتحت بقوله: ﴿ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ ﴾، وختمت بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ ﴾ "[3].
- "النحل: افتتحت بالنّهي عن الاستعجال، وختمت بالأمر بالصبر"[4].
- "المؤمنون: أولها: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، وآخرها: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ "[5].

2- إظهار تناسب موضوعات السورة المختلفة لمحورها ومقصدها، قال البقاعي: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة"[6].

وقال الفراهي مبيناً صعوبة الوصول إلى عمود السورة: "اعلم أنَّ تعيين عمود السورة، هو إقليدٌ لمعرفة نظامها، ولكنَّه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمُّل والتمحيص.. حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فيضيء السورة كلها"[7].

3- اظهار تناسب الآية المعترضة للسياق الواردة فيه، إذ تبدو الآية المعترضة، وكأنَّها مستقلة عن السياق؛ وعندما يتم الكشف عن سبب اعتراضها ووجه ارتباطها بسياقها، تظهر مناسبة موقعها

---

[1] انظر: الشاطبي: الموافقات، 266/4.

[2] وهو كتاب صغير الحجم كبير الفائدة في ربط أوائل السور بآخرها، يشعر القارئ بمتعة كبيرة اثناء مطالعته.

[3] السيوطي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، ص: 52.

[4] المرجع السابق: ص: 53.

[5] المرجع السابق: ص: 56.

[6] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 18/1.

[7] الفراهي: دلائل النظام، ص:76.

وخدمته للسياق بوجوه متينة تدلُّ على أنَّ الكلام مرتب من عند عليم خبير لا يتقدم فيه متقدم ولا يتأخر متأخر إلا لفائدة، وعلى هذا الأساس يُنظر إلى القرآن الكريم كلِّه على أنه كلام واحد متكامل، تتّصل أجزاؤه ببعضها اتصالاً محكماً، وتنتظم معانيه في تناسبٍ وترتيبٍ دقيقٍ من أوله إلى آخره[1].

[1] انظر: السابق: ص:74.

وبناء على ما تقدم يمكن التفريق بين علم المناسبات واعتراض الآيات القرآنية، بما يأتي:

1- الآيات المعترِضة تخضع لأسلوب الاعتراض في اللغة العربية، وهو أحد أساليب البلاغة، بينما علم المناسبات يُعَدّ أحد العلوم الكلّية في القرآن الكريم، يُعنى ببحث ترابط الآيات والمقاطع والسور.

2- دراسة الآيات المعترِضة تركز على آية أو عدّة آيات محدودة في بعض السور القرآنية، أمّا علم المناسبات فيشمل دراسة جميع الآيات والسور.

3- من شرط الآيات المعترِضة وجود انفصالٍ نسبي عن السياق الذي وردت فيه، أمّا المناسبات فتقوم على اتصالٍ مستمر يُظهر قوة تماسك بنية النص القرآني.

4- الغاية من دراسة الآيات المعترِضة دفع توهّم الإقحام أو الانفصال التام، بينما غاية علم المناسبات بيان الوحدة الموضوعية للآيات القرآنية، وحسن ترتيب السور واتصالها بما قبلها وما بعدها.

وبذلك يتبيّن أنَّ الاعتراض وجهٌ خاصّ من وجوه علم المناسبات؛ إذ هو دراسةُ مناسبة الآية أو الآيات الواردة في سياقٍ مختلفٍ عنها، بحيث يتّصل ما قبلها بما بعدها. وهذا يقتضي إعمال الفكر وتقليب النَّظر حتى يظهر وجهُ التناسب بين الآية أو الآيات المعترِضة والسياق الذي وردت فيه، وقد ذكر الزركشي أن ترتيب الآيات قد يكون لظهور الارتباط بينهما، لتعلّق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى، وهذا واضح، كما يكون إذا جاءت الثانية تأكيدًا أو تفسيرًا أو اعتراضًا أو تشديدًا للأولى، وهذا النوع لا خلاف فيه[1].

المطلب الثاني: التفريق بين الاعتراض والالتفات

الالتفات في اللغة: من الفعل لَفَتَ، وأصل الكلمة يدل على الليّ والصرف، أي ليُّ الشيء عن جهته، كما يُقبض على عنق الإنسان فيُلفَت عنها[2]، ولَفَتُّ فلانًا عن رأيه أي صرفته عنه، ومن هذا الأصل جاءت كلمة الالتفات[3].

[1] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 1/ 40.

[2] انظر: الفراهيدي: العين، 121/8.

[3] انظر: الأزهري: تهذيب اللغة، 203/14.

أما في الاصطلاح، فهو: انصراف المتكلم من أسلوب المخاطبة إلى الإخبار، أو من الإخبار إلى المخاطبة، ونحو ذلك من التحويل في وجوه التعبير[1]، وقد عرفه الجرجاني: "الالتفات: هو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس"[2]. وبهذا المعنى يكون الالتفات على ست صور[3]: الانتقال من التكلم إلى الخطاب[4]، أو من التكلم إلى الغيبة[5]، ومن الخطاب إلى التكلم[6]، أو من الخطاب إلى الغيبة[7]، وكذلك من الغيبة إلى التكلم[8]، وأخيراً من الغيبة إلى الخطاب.[9]

وقد خلط بعض أهل اللغة بين الالتفات والاعتراض، وجعلوهما فنَّاً واحداً، فقد أورد الحاتمي في كتابه (حلية المحاضرة) باب الالتفات، وقال: "وقد سماه قوم الاعتراض"[10]، وقد نحا نحوه ابن رشيق، حيث قال: "باب الالتفات: وهو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك"[11]، وقال الباقلاني: " ومعنى الالتفاتات أنَّه اعترض في الكلام"[12]، ثم ساق عدة أمثلة من شعر العرب، فيها اعتراض واضح، منها قول النابغة:

ألا زعمـــــــت بنـــــــو ســــــعد بــــــأني ‏ – ألا كـــــذبوا – كبيــــر الســــن فــــإني[13]

فتقدير الكلام ألا زعمت بنو سعد بأني كبير السن فإني...، ثم اعترض بقوله: (ألا كذبوا) ليبين أنهم قد كذبوا في دعواهم، وهذا اعتراض واضح، إذا ليس فيه أي انتقال في الضمائر أو في أزمنة الفعل.

---

1 انظر: ابن المعتز: البديع في البديع، ص:152.

2 الشريف الجرجاني: التعريفات، ص:35، وقريب منه تعريف الكفوي، انظر: الكفوي: الكليات، ص:169.

3 بين الكفوي أربعة أمثلة منها ولم يمثل لكل من الْخطاب إِلَى التَّكَلُّم، والخطاب إلى الغيبة، انظر: الكفوي: الكليات، ص:169.

4 نحو قولهﷻ: قَوْله: {وأمرنا لنسلم لرب الْعَالمين وَأَن أقِيمُوا الصَّلَاة} [الأنعام: 71-72].

5 نَحْو قولهﷻ: {إِنَّا فتحنا لَك فتحا مُبينًا ليغفر لَك الله} [الفتح:1].

6 نحو قوله ﷻ: ﴿قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21]، فالضمير في (قل) للمخاطب، وفي (رسلنا) للمتكلم.

7 نَحْو قولهﷻ: {ادخُلُوا الْجنَّة أَنْتُم وأزواجكم تحبرون يُطَاف عَلَيْهِم} [الزخرف: 70].

8 نَحْو قولهﷻ: {وَأوحى فِي كل سَمَاء أمرهَا وزينا} [فصلت: 12].

9 نحو قولهﷻ: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء﴾ [الإنسان: 21-22]، ولم يقل: كان لهم.

10 الحاتمي: حلية المحاضرة، ص:157.

11 ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 45/2.

12 الباقلاني: إعجاز القرآن للباقلاني، ص:99.

13 المرجع السابق: ص:99

ومع أن ابن المعتز من المتقدمين إلا أنَّه فرق بين الالتفات والاعتراض في كتابه، وجعل لكل منهما باباً مستقلاً ولم يخلط بينهما[1]، وتوسع في ذلك ابن الأثير في كتابه المثل السائر؛ وبين أن الالتفات يأتي على عدة أقسام:

1- الانتقال في أسلوب الكلام من الغَيبة إلى الخطاب، أو من الخطاب إلى الغَيبة[2].

2- الانتقال في أزمنة الفعل بين المستقبل الماضي[3].

وبذلك يتبين أن الالتفات باب مستقل عن الاعتراض، يقتضي تنقل المتكلم في كلامه بين الخطاب والغيبة والتكلم، أو التنقل بين أزمنة الفعل، عن الشيء المألوف في الكلام لفائدة يقصدها المتكلم دون خروج عن السياق أو قطع فيه، بخلاف أسلوب الاعتراض الذي يقتضي قطع السياق في الجملة المعترضة ثم العودة إليه مرة أخرى.

المطلب الثالث: التفريق بين الاعتراض والاستئناف

الاستئناف في اللغة من استأنف: واستأنف الشيءَ وائتَنَفَه أي ابتدأه من أوله، فالاستئناف هو الابتداء، وكذلك الائتِناف بمعناه[4]، وله معنى معاصر، وهو: طريق الطعن في الحكم برفعه إلى المحكمة الأعلى من التي أصدرته، بقصد إلغائه أو تعديله[5].

أما في الاصطلاح: "فالاستئناف: هُوَ أَن يكون الْكَلَام الْمُتَقَدّم بِحَسب الفحوى مورداً للسؤال فَيجْعَل ذَلِك الْمُقدر كالمحقق، وَيُجاب بالكلَام الثَّانِي"[6]، فالكلام مرتبط بما قبله من جهة المعنى، وإن كان منقطعًا في اللفظ، مثل قول القائل: جاءني القوم، فكأن سامعًا قال: ما فعلت بهم؟، فيجيب المتكلم: أما زيد فأكرمته، وأما بشر فأهنته، وأما بكر فأعرضت عنه[7].

---

[1] انظر: ابن المعتز: البديع في البديع، ص: 154/152.

[2] انظر: ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 135/2.

[3] انظر: ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 144/2.

[4] انظر: ابن منظور: لسان العرب،14/9.

[5] انظر: نخبة من اللغويين؛ المعجم الوسيط، 30/1، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط2.

[6] الشريف الجرجاني: التعريفات، ص:18.

[7] انظر: الشريف الجرجاني: التعريفات، ص:18.

والجملة المستأنفة: "هي التي تقع في أثناء الكلام، منقطعة عما قبلها لاستئناف كلام جديد، كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، فجملة ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ استئنافية"[1].

ومن أوضح أمثلته في القرآن الكريم:

- ﴿ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾[يس: 76].

- ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: 159]

والجملة الاستئنافية تأتي على قسمين:

الأول: الاستئناف النحوي، وهو كل كلام يُبدأ به ويكون منفصلًا عمّا سبقه في السياق، وعلى هذا فإن الجملة الاستئنافية عند النحاة تُعدّ قريبة في معناها ووظيفتها من الجملة الابتدائية[2]، وتأتي مقترنة غالباً بحروف الاستئناف[3]، وهذه الجمل في الغالب لا تلتبس بالجملة المعترضة.

الثاني: الاستئناف البياني: هو الاستئناف المشعر بالتعليل[4]، بحيث إذا كان الكلام اللاحق أولى من سابقه بالاهتمام، وأجدر بلفت الأسماع إليه، قُطع عمّا قبله بما يثير الانتباه ويشدّ النظر إليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [هود: 93] فقد حُذفت الفاء التي يقتضيها السياق، قصدًا إلى لفت انتباه السامع وإثارته إلى ما سيأتي من كلام[5]. ويظهر هذا المعنى بجلاء في تفسير الزمخشري لهذه الآية، إذ بيَّن أن إدخال الفاء يُعد وصلاً ظاهرًا بحرف موضوع للربط، أما حذفها فهو وصل خفيٌّ تقديري بالاستئناف، كأنه جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقيل: سوف تعلمون. فجمع بين الوصل بالفاء تارة، وبالاستئناف تارة

[1] انظر: حاشية كتاب: سيد مير: مبادئ قواعد اللغة العربية، ص:40.

[2] انظر: ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص: 500.

[3] انظر: ابن عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ص: 289.

[4] انظر: المناوي: فيض القدير، 523/4.

[5] انظر: محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه، 421/4.

أخرى، للتفنن في البلاغة، وأقواهما وأبلغهما هو الاستئناف، وهو من أبواب علم البيان التي تتعدد فيها وجوه الجمال البلاغي[1].

والاستئناف البياني هو الذي قد يلتبس، بالجملة المعترضة؛ لأنَّه يشترك معها في بعض الخصائص؛ لذلك خلط بعض النحاة بين الجملة المعترضة والاستئنافية، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة: 133]، جوَّز الزمخشري أن تكون جملة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ اعتراضية مؤكِّدة، أي: ومن حالنا أننا له مسلمون، مخلصون في توحيدنا، أو منقادون خاضعون لأمره[2]، والصواب أنَّها جملة استئنافية[3]؛ لأنَّها لم تنقطع عما قبلها من حيث المعنى، ويمكن تقدير السؤال التالي: لماذا نعبد إلها واحدا؟ فتكون إجابته ونحن له مسلمون، بمعنى لأننا مسلمون، فلا يكون المرء مسلماً إلا إذا أقر بالتوحيد.

ومع أنَّ الجملة المعترضة تشترك مع الجملة المستأنفة في كونها لا محل لها من الإعراب[4] إلا أنها تختلف عنها في بعض الأمور منها:

1- أنَّ الجملة الاعتراضية تنقطع عن السياق من حيث المعنى المباشر[5]، أما الجملة الاستئنافية فتنقطع عما قبلها من حيث الإعراب، وتتصل بها من حيث المعنى، وتكون عبارة عن إجابة سؤال مقدَّر[6].

2- يمكن أن تأتي الجملة الاعتراضية بين أجزاء الكلام، فقد تأتي بين المبتدأ والخبر والفعل ومعموله، أما الجملة الاستئنافية فلا تأتي إلا بعد كلام تام منقطعة عما قبلها من حيث الصناعة والإعراب[7].

---

[1] انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 424/2.

[2] انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 194/1.

[3] انظر: حسن: الجملة المعترضة في القرآن مفهومها وأغراضها البلاغية، ص:191.

[4] قال ابن فرحون: "والجُمَلُ التي لا مَحَلَّ لها من الإعْرَاب: المستأنَفَة، والمعْترضَة، كهَذه، والمفَسِّرة، وجُمْلَة القَسَم، والصِّلة" انظر: ابن فرحون: العدة في إعراب العمدة، 33/1.

[5] سواء كانت جملة اعتراضية أو آية معترضة، فتكون معنى مستقلاً بذاته ويعود بالفائدة على الجملة الأصلية بوجه من الوجوه.

[6] انظر: الهوَّاري: النحو الوافي، 390/4.

[7] انظر: حسن: الجملة البلاغية في القرآن الكريم واعربها، ص:192.

3- قد تشترك الجملة المعترضة مع الاستئنافية في بعض الفوائد التي تضيفها للنَّص، لكنَّ:

- الفائدة الأولى للجملة الاعتراضية التأكيد، قال ابن جني -موضحا فائدة الاعتراض-: "وهو جار عند العرب مجرى التأكيد"[1].
- أما الفائدة الأولى للجملة الاستئنافية التعليل، قال سيد الأفغاني: "وكثيراً ما تكون الاستئنافية مفيدة التعليل"[2].

وهذا مثال لآية اجتمع فيها اعتراض واستئناف، ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[البقرة: 19-20] فقد بيَّن ابن عاشور أن جملة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جملة معترضة، وما بعدها جمل استئنافية، وردت تنبيهًا على وجه الشبه، وتأكيدًا لقوة المشابهة بين الزواجر وآيات الهدى والإيمان، وبين الرعد والبرق في تحصيل أثرَي النفع والضر[3].

ومن الأمثلة على الاستئنافي البياني بآية كاملة، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: 12]، قال ابن عاشور: "اسْتِئْنافٌ بَيانِيٌّ جَوابُ سُؤالٍ يخْطُرُ بِبالِ سامِعِ قَوْلِهِ: ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد: 11]، عَنْ حالِ المُؤْمِنِينَ في الآخِرَةِ وعَن رِزقِ الكافِرِينَ في الدُّنيا، فَبَيَّن اللَّهُ أنَّ مِن وِلايتِهِ المُؤْمنينَ أن يُعْطيهم النَّعِيم الخالِد بَعد النَّصرِ في الدُّنيا، وأنَّ ما

[1] ابن جني: الخصائص، 336/1.

[2] انظر: الأفغاني: الموجز في قواعد اللغة العربية: ص:399.

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 320/1.

أعطاه الكافِرِين في الدُّنيا لا عِبرةَ به؛ لِأنَّهم مَسلوبون مِن فهم الإيمان"[1]. فالاستئناف في هذه الآية يشبه الاعتراض إلى حد كبير؛ لذلك قال ابن عاشور: "وهَذا الِاسْتِئْنافُ وقَعَ اعْتِراضًا بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [محمد: 10] وجُمْلَةُ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ [محمد: 13] الآيَةَ"[2].

ولكن الاستئناف البياني ينشأ عن سؤال مقدر في ذهن السامع، بخلاف الاعتراض، فهو إدخال آية في سياق موضع أجنبي عنها لفوائد مخصوصة تظهر بالتفكر والتدبر.

المطلب الرابع: الفرق بين الاعتراض والتذييل

التذييل لغة: من الذيل: وهو "آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ"[3].

أما اصطلاحا فالتذييل: هو تكرار الألفاظ المترادفة للدلالة على المعنى نفسه، ليظهر لمن لم يدركه أولًا، ويزداد تأكيدًا عند من فهمه، وهو عكس الإشارة والتعريض[4]، وعرفه السيوطي بقوله: "وهو أن يُؤْتَى بجملة عقب جملة، والثَّانية تشتمل على المعنى الأول، لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، وَيَتَقَرَّرَ عند من فهمه"[5].

والتذييل يأتي على ضربين:

الأول: ما يأتي في صورة المثل السائر، إذ يكون مستقلًّا في أداء المعنى المقصود، ويمكن استعماله منفردًا لتمام دلالته، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]، فالجملة دلت بمنطوقها على زهوق الباطل، وهي جملة مستقلة تصلح بأن تكون مثلاً سائراً[6].

---

[1] المرجع السابق: 89/26.

[2] المرجع السابق: 89/26.

[3] ابن منظور: لسان العرب، 260/11.

[4] انظر: العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر، ص:373.

[5] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 250/3.

[6] انظر: ابن معصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع، 39/3، وعتيق: علم المعاني، ص:197.

الثاني: لا يُعد من قبيل المثل؛ لأنه لا يستقل بإفادة المعنى، بل يتوقف في دلالته على ما قبله، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سبأ: 17]؛ ومعناه: وهل يُجازى بمثل هذا الجزاء إلا الكفور؟ فيرتبط بذلك بما قبله اتصالَ معنى وتتميم[1].

يشترك التذييل مع الاعتراض في إفادة التأكيد وبعض الفوائد الأخرى، غير أنّ كُلًّا من الاعتراض والتذييل يُعَدّ أسلوبًا مستقلًّا عن الآخر، قال أبو هلال العسكري –بعد تعريفه للتذييل–: "وهو ضدّ الإشارة والتعريض"[2]، وبيَّن أنه يُستعمل في المواطن الجامعة والمواقف العظيمة؛ لأنها تضم مختلف العقول من بطيء الفهم وبعيد الذهن وثاقب القريحة، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد، تأكد المعنى عند الذكي، وتبيّن للكليل والبليد[3].

ويمكن تلخيص أهم الفوارق بين الأسلوبين على النحو الآتي:

1- أن التذييل يأتي في آخر الكلام، أما الاعتراض فيأتي بين كلامين متصلين لفظاً ومعنى[4].

2- أن التذييل يأتي بجملة واحدة، أما الاعتراض فقد يأتي جملة أو عدة جمل[5].

3- أن التذييل يأتي بعد كلام مقتضب من أجل التوضيح والتعليل والتأكيد، أمَّا الاعتراض فيأتي لأغراض مختلفة، وأحيانا لا يظهر وجه ارتباطه بالسياق بوجه جلي[6].

ومع أن الأصل الافتراق بين أسلوبي الاعتراض والتذييل، إلا أنَّه يمكن التداخل بينهما؛ وذلك في حالة خاصة من حالات الاعتراض؛ وهي أن يأتي الاعتراض في آخر الجملة مشتملاً على معنى الجملة التي قبله من أجل التأكيد.

---

[1] انظر: ابن معصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع، 40/3، وعتيق؛ عبد العزيز: علم المعاني، ص:199.

[2] العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر، ص:373.

[3] انظر: العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر، ص:373.

[4] انظر: حسن: الجملة المعترضة في القرآن مفهومها وأغراضها البلاغية، ص:196.

[5] انظر: الغريب: من أسرار التذييل في آيٍ من التنزيل، ص:18.

[6] انظر: حسن: الجملة المعترضة في القرآن مفهومها وأغراضها البلاغية، ص:196.

ويمكن التمثيل على هذا التداخل، بالجملة المعترضة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ [البقرة: 144-145]، قال ابن عاشور -واصفا الاعتراض-: "تذييل إجْمالِيٌّ ليأخذ كل حظه منه، وهو اعتراض بين جملة:﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ﴾، وجملة: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ "[1].

فالاعتراض والتذييل بينهما عموم وخصوص، أي يجتمعان في بعض الصور، وينفرد التذييل فيما لا يكون بين كلامَين متصلين[2].

ويمكن التمثيل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف 147]، فقد وردت هذه الآية معترِضةً في قصة سيّدنا موسى عليه السلام من سورة الأعراف، غير أنّها في الوقت نفسه جاءت على سبيل التذييل تأكيدًا لبعض المعاني الواردة في السياق السابق. وقد قال ابن عاشور عقب هذه الآية: "ويجوز أن تكون تذييلا معترضا بين القصتين وتكون الواو اعتراضية"[3].

أمّا انفراد التذييل فهو واضحٌ بيّنٌ في خواتيم بعض الآيات التي يختتمها الله تعالى بتذييلٍ يؤكّد فيه معنًى ورد قبلها، وليس أوضح في الدلالة على ذلك من خاتمة عدد كبير من الآيات القرآنية بذكر صفات الله وأسمائه الحسنى، تأكيدًا على سعة علمه وإحاطته بخلقه ظاهرهم وباطنهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، و﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وغيرها من التذييلات التي يختِم الله بها بعض الآيات بما يناسب مضمونها، في أسلوبٍ بديعٍ معجز.

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 35/2.

[2] انظر: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، هامش 3، 216/3.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 9/ 107.

المطلب الخامس: الفرق بين الاعتراض والإقحام

الاقحام لغة من: قَحَمَ في الأمْرِ، قُحوماً: رَمَى بنفسِه فيه فَجْأَةً بِلا رَوِيَّةٍ، والقُحمة: الاقتحام في الشيء[1]، "(وقَحَّمَه تَقْحِيمًا): أَدْخَلَه فِي الأمرِ من غَيْرِ رَوِيَّةٍ"[2].

أما في الاصطلاح: فالإقحام: "عبارة عن إدخال شيء بين شيئين، دون أن يكون ذلك الموضوع محلّا لذلك الشيء"[3]، وقيل: هو "الزّيادة"[4]، وقد ورد تعريف الإقحام في مجلة لغة العرب العراقية؛ بأنَّه: "إدخال كلمة أو أكثر منها بين كلمتين متصلتين بحذف غير الملائم"[5]، كإدخال المعطوف على المضاف إليه، أي وقوعه بين المضاف والمضاف إليه بعد حذف الضمير العائد إلى المضاف إليه، مثل قولك: كتاب وقلم العالم، والأصل: كتاب العالم وقلمه.

وبالنظر إلى تعريف الإقحام أعلاه يظهر أن للإقحام عند أهل اللغة معنيين:

الأول: وهو ما زيد في الكلام لفائدة: بحيث لا يمكن للقارئ أن يصل إليها دون النَّص المقحم، وعلى هذا المعنى يساوي الاعتراض، لذلك فرّق الحموي بين الاعتراض والحشو، فبيّن أن الاعتراض يضيف فائدة إلى غرض المتكلم أو الناظم، أما الحشو فيُؤتى به لمجرد استقامة الوزن، لا غير، وفي الاعتراض من المحاسن المتمّمة للمعاني ما يجعله أرفع من كثير من الأساليب الأخرى[6].

والثاني: وهو الدخول على الجملة دون فائدة؛ وبهذا المعنى يكون الإقحام مشيناً؛ لأنه حشو دون فائدة[7].

وبهذا المعنى الثاني فهم بعض المستشرقين أنَّ الآيات الواقعة في غير سياقها، ظاهرةٌ مقحمة في النَّص القرآني لجهلهم أو تجاهلهم لأسلوب القرآن وإعجازه في نظمه، فقد زعم المستشرق بودلي أن زيدًا، حين

---

[1] انظر: والفيروزآبادى: القاموس المحيط، ص:1146.

[2] الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 228/33.

[3] ناظر الجيش: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، 3653/7.

[4] ابن الصانع: اللمحة في شرح الملحة، 643/2.

[5] الأب أنستاس: مجلة لغة العرب العراقية، 665/6.

[6] انظر: ابن حجة: خزانة الأدب وغاية الأرب، 280/2.

[7] الكرماني: تحقيق الفوائد الغياثية، 806/2.

جمع ما كتب النبي ﷺ أو أملاه أو حفظه أصحابه، نشره بلا ترتيب أو نظام، فكان يخرج الرقاع من الصندوق عشوائيًا ويكتب الوحي دون مراعاة للتسلسل الزمني، فلم يلتفت إلى ترابط الموضوعات ولا إلى تطوّر الأسلوب الذي ارتقى كلما نضج النبي ﷺ، فنتج عن ذلك – في زعمه – عملٌ متفكك غير منسجم[1].

ومن ذلك أيضاً أنَّ المستشرق الدكتور بيل[2] حكم على جزء من الآية الخامسة والثمانين من سورة البقرة: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: 85] بأنَّه جزء مقحم في هذه الآية، وأنَّها ربما كانت جزءاً من الميثاق المذكور، وذكر أنَّه لو أزيلت هذه الجملة لأصبح السياق: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن... وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فحذف جملة: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾، وظن أنَّها ربما أضيفت تفسيراً بعد إقحام الجملة المتعلقة بالأسرى[3].

والصحيح أن جملة الأسرى ضرورية لكمال المعنى، فهي تظهر التناقض الذي كان يعيشه اليهود بقتال بعضهم ومخالفة التوراة، ويظهر ذلك من موقف اليهود في الحرب بين الأوس والخزرج، إذ خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، ووقفت النضير وقريظة مع الأوس، فصار كل فريق يناصر حلفاءه على إخوانه في الدين، حتى سفكوا دماء بعضهم بعضًا، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوْا أسراهم تصديقًا لما في التوراة: وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، مع علمهم أن ذلك واجب عليهم في دينهم[4]، وأن إخراج إخوانهم محرَّم عليهم في كتابهم[5].

---

[1] انظر: بودلي: حياة محمد، ص:230.

[2] كاتب أمريكي معروف من خلال اسمه المستعار بيل وارنر، هو ناقد للإسلام، وهو كاتب ومؤسس "مركز دراسة الإسلام السياسي"، وهو أستاذ فيزياء سابق في جامعة ولاية تينيسي، انظر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية؛ https://www.iicss.iq/?id=14&sid=2140 .

[3] انظر: محمد؛ عبد الرحيم علي، الدراسات الإستشراقية حول القرآن (نموذج موير، واط، وبيل)، نشر في السودان الإسلامي يوم 30 – 05 – 2007م، https://www.sudaress.com/sudansite/543.

[4] أي واجب عليكم فداء الأسراء، واصل الأثر في تفسير ابن ابي حاتم عن ابن عباس ولكنه ليس بهذا التمام، ونصه، "قَوْلُهُ: تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ: بِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ قَالَ: فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَرْبٌ خَرَجَتْ بَنُو قَيْنُقَاعٍ مَعَ الْخَزْرَجِ، وَخَرَجَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ مَعَ الأَوْسِ، يُظَاهِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حُلَفَاءَهُ عَلَى إِخْوَانِهِ حَتَّى يَتَسَافَكُوا دِمَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ"، انظر: ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، 164/1.

[5] انظر: الشوكاني: فتح القدير، 129/1.

فكان ذلك هو التناقض الذي أظهرته الآية، وكانت الجملة الاعتراضية ضرورية حتى يكتمل المعنى، ويُظهر شناعة فعلهم، بذكر صورة من صور الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه الآخر.

ومثل هذا زعمه أن العبارة "وما أدراك"، في قوله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾[القارعة: 9-11]، ربما كانت تفسيرات أُلحقت لتوضيح بعض الكلمات أو العبارات الغامضة، وأن هذه التفسيرات جاءت في زمن متأخر، فزعم أن كلمة النار ليست تفسيرًا لكلمة هاوية. وهذا القول خطأ، لأن عبارة ما أدراك ليست لطلب التفسير، بل هي للتهويل والتفخيم، كما أن "الأم" في السورة ليست الأم الحقيقية التي ولدته، ولم يقل بذلك أحد من أهل العربية، بل الأقرب إلى الصواب أنها جاءت على سبيل المثل السائر، هوت أمه[1]، إذ وقع في أمر شديد[2].

هذه الشبهة التي ذكرها الدكتور بيل ليست وليدة العصر بل هي قديمة، فالخطابي حينما عدد الشبه القائمة في عصره حول إعجاز القرآن الكريم قال: "وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما[3]، كقوله سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: 16-19]، عقيب قوله: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[القيامة: 14-15]، بين يدي قوله: ﴿ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾[القيامة: 20]، وليس ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان، والأحسن أن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أبوابه، وأن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لا يدخل في قبيل غيره"[4].

---

[1] انظر: النحاس: إعراب القرآن للنحاس، 176/5.

[2] انظر، محمد: الدراسات الإستشراقية حول القرآن (نموذج موير، واط، وبيل)، نشر في السودان الإسلامي يوم 30 - 05 - 2007م، https://www.sudaress.com/sudansite/543

[3] وهذا هو الاعتراض في القرآن الكريم.

[4] الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص:40.

ورد الخطابي على هذه الشبهة بأن ذلك من قبيل الاعتراض الذي اقتضته الحاجة، فلا يجوز تركه ولا تأخيره عن موضعه، كأن تحدّث رجلًا فيعرض عنك فتقول له: أقبل عليّ واسمع ما أقول، وافهم عني، فهذه الألفاظ ليست خارجة عن أصل الكلام. وكذلك كان رسول الله ﷺ أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان إذا نزل الوحي وسمع القرآن حرّك لسانه يستذكره، فقيل له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾[1].

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس –رضي الله عَنْهُمَا– قَالَ: "كَانَ النَّبي ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ حَرَّكَ بِهِ لِسَانَهُ.. يُرِيدُ أَنْ يَحْفَظَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة: 16]"[2].

وقد بيَّن ابن جني أصالة هذا الأسلوب عند العرب، إذ أوضح أن هذا النوع من التعبير كثير الورود في القرآن الكريم، وفصيح الشعر، ومنثور الكلام، وهو جارٍ عند العرب مجرى التأكيد في البلاغة[3]. وفي كلام ابن جني ردٌّ صريح على من توهَّم شذوذ بعض الجمل الاعتراضية عن أساليب العرب، مبيناً أنَّه أسلوب معروف عند أهل اللغة من الشعراء والأدباء؛ ولذلك فإنَّ أسلوب الاعتراض يخدم السياق الوارد فيه، ويتسق مع نظمه. فدعوى الإقحام التي ظنها أو اعتقدها بعض المستشرقين دعوى باطلة لا تقوم على أساس سليم في فهم اللغة العربية ومعرفه فنونها.

فكيف يفهم هذا المعنى الدقيق من لا يحسن العربية أصلاً؟ وكيف يُؤتمن على هذا الفهم من قصد في دراسته، نقض القرآن الكريم وتوهين أمره في قلوب النَّاس؟

---

[1] انظر: الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص:51.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17]، رقم 4927، 163/6.

[3] ابن جني: الخصائص، 336/1.

المبحث الثالث: السياق القرآني ونظمه وعلاقة الاعتراض بهما

المطلب الأول: السياق القرآني وعلاقة الاعتراض به

الفرع الأول: تعريف السياق، في اللغة والاصطلاح:

أولا: تعريف السياق في اللغة: السياق: أصله سِواق، فقُلِبت الواو ياءً لكسر السين[1]، وهو بمعنى حدو الشيء وسَوقه، فيُقال: ساقه يسوقه سوقًا[2]، وانساوقت وتساقَت الإبل تساوقًا إذا تتابعت في السير[3].

ثانيا: تعريف السياق في الاصطلاح: أشار علماء التفسير منذ وقت مبكر إلى أهمية السياق في فهم وتفسير القرآن الكريم[4]، قال الإمام الطبري: " فتوجيهُ الكلام إلى ما كان نظيرًا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان مُنعدِلا عنه"[5]، وبيَّن أيضًا أنه لا يجوز صرف الكلام عن سياقه إلى غيره إلا بحجةٍ واضحة يُسلَّم بها، تكون من دلالة ظاهر التنزيل أو من خبرٍ صحيح عن الرسول ﷺ تقوم به الحجة، أمّا الدعاوى المجردة، فلا يعجز أحد عن ادعائها[6].

ومع أن النَّصوص كثيرة عن أئمة التفسير في اعتبار السياق وأهميته في التفسير، إلا أنني لم أجد تعريفاً واضحاً جامعاً ومانعاً للسياق القرآني عند المتقدمين، وغاية كلامهم عن السياق في بيان أهميته واعتباره في فهم النَّص القرآني وتفسيره، ومن ذلك ما قاله:

1- الزركشي: "ويجب اعتبار ما دلَّ عليه السِّياق والقرائن؛ لأَنَّ بذلك يتبيَّنُ مقصود الكلامِ"[7].

---

[1] انظر: ابن منظور: لسان العرب، 167/10

[2] انظر: ابن فارس: مقاييس اللغة، 117/3.

[3] انظر: ابن منظور: لسان العرب، 166/10.

[4] ومن أمثلة ذلك ما ورد عن:

- قال الطبري: "وإنما اخترنا ما قلنا من القول في ذلك؛ لأنه في سياق الآية"، انظر: الطبري: جامع البيان، 581/8.
- قال السمرقندي: "وفي سياق الآية دليل عليه"، انظر: السمرقندي؛ أبو الليث نصر بن محمد (المتوفى: 373هـ): بحر العلوم، 411/1.
- قال ابن عطية: "هذا هو مقتضى سياق الكلام"، انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 360/1.

[5] الطبري: جامع البيان، 91/6.

[6] انظر: المرجع السابق: 389/9.

[7] الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، 4/.

2- ابن دقيق العيد: "لأنَّ السياقَ مبيّنٌ للمجمَلات، مرجِّح لبعض المحتمَلات، مؤكِّد للواضحات"[1].

3- البناني: "ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه"[2].

أما التعريفات المعاصرة للسياق القرآني فكثيرة[3]، ورأيت أن من أجمعها وأخصرها تعريف الدكتور نوح الشهري، حيث عرَّفه بأنَّه: "مجموعة من القرائن اللفظية والحالية الدالة على قصد المتكلم من خلال تتابع الكلام، وانتظام سابقه ولاحقه به"[4]. وبذلك يتبين أن السياق ينقسم إلى قسمين رئيسين:

1- السياق اللغوي المقالي هو النص الذي تَرِد فيه الكلمة، حيث يُنظر إلى معناها منفردة ثم إلى معناها ضمن التركيب، حتى يُفهم النص فهمًا تامًّا يحقق المراد منه على وجهه الصحيح[5].

2- السياق المقامي: وهو عبارة عن الروابط بين الجمل القرآنية، سواء كانت هذه الروابط بين الجمل في الآية الواحدة أم في الآيات المتجاورة أم في الآيات المتباعدة، وهو أعم من السياق اللغوي، فإذا كان السياق اللغوي يتصل بالإطار الداخلي للنص، فإنّ السياق المقامي يرتبط بالإطار الخارجي له[6].

فالسياق يهدي إلى بيان المجمل، وتحديد المحتمل، والجزم بعدم احتمال غير المراد، كما يخصّص العام ويقيّد المطلق، وهو من أقوى القرائن الدالة على مقصود المتكلم؛ فمن أغفله أخطأ في فهمه وأخلّ في مناظرته[7]. وبذلك يُعلم أهمية هذه الروابط؛ والقول بأنَّها محكمة ومعجزة في اتساقها، يقتضي بحث مسألة ترتيب الآيات في السور، هل هو توقيفي أم اجتهادي؟

---

[1] ابن دقيق العيد: شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، 126/1.

[2] البناني: حاشية البناني على متن جمع الجوامع، 21/1.

[3] أورد الدكتور نوح الشهري عدداً من التعريفات المعاصرة قبل إيراد تعريفه، انظر: الشهري: أثر السياق في النظام النحوي، ص106-108.

[4] الشهري: أثر السياق في النظام النحوي، ص109.

[5] انظر: عبد المنعم: أثر السياق في تغيير دلالات الألفاظ الشرعية، ص:28.

[6] انظر: المرجع السابق: ص:28.

[7] انظر: ابن القيم: بدائع الفوائد، 9/4.

الفرع الثاني: ترتيب الآيات في السور[1]:

دلَّ الإجماع والمنقول والمعقول؛ أنَّ ترتيب الآيات داخل السور ترتيب توقيفي، ولم يكن باجتهاد الصحابةﷺ ولا باختيارهم؛ وإنَّما هو وحي أوحاه الله لنبيهﷺ، والنَّبي علمه صحابته الكرامﷺ، وبيان ذلك:

أولا: الإجماع: فقد نقله السيوطي بقوله: " الإجماع والنصوص المترادفة على أنَّ ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة في ذلك، أمَّا الإجماع، فنقله غير واحد منهم: الزركشى فى البرهان[2]، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته[3]؛ وَعِبارتهُ: تَرتِيبُ الْآيات فِي سُورها واقع بِتَوقِيفِهِﷺ وَأَمرِه مِن غيرِ خلافٍ فِي هذا بين المسلمينَ"[4].

وقال ابن تيمية: "وأما ترتيب آيات السور فهو مُنَزَّلٌ منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يُقَدِّمُوا آية على آية في الرسم كما قدَّموا سورة على سورة[5]؛ لأنَّ ترتيب الآيات مأمور به نصًّا"[6].

لذلك أجمع الصحابة على مصحف عثمان ﷺ ولم يُعرف له مخالف في نصِّه ولا في ترتيبه، ولو كان ترتيب القرآن اجتهادياً لخالف بعض الصحابة في ترتيب بعض الآيات، فالعقول تتباين في الفهم والحفظ، وقد اختلف الصحابة في كثير من المسائل الفقهية وتفسير بعض الآيات، غير أن اتفاقهم وإجماعهم على مصحف عثمان رضي الله عنه دليل قاطع على أنهم تلقّوا ترتيب الآيات من النبي ﷺ قبل وفاته. فالقرآن جُمع بحضور الصحابة رضي الله عنهم، وأجمعوا عليه دون أن يعترض أحد أو يطعن فيه، ولو كان قد غُيِّر أو بُدِّل لَنُقل عن أحدهم إنكاره، إذ مثل هذا الأمر لا يجوز أن ينكتم في مستقر العادة[7].

---

[1] أوردت هذا الفرع لاتصاله المباشر بمبحث الاعتراض؛ إذ لو كان الترتيب اجتهادياً لما كان لهذا الرسالة أي داع.

[2] لم أجد في البرهان قولا للزركشي يحكي الإجماع في هذه المسألة؛ وقدا أثبت أن ترتيب الآيات توقيفي بلا مخالف، ونص كلامه: "وكتبوه كما سمعوه من النبيﷺ من غير أن قدموا شيئا أو أخروا، وهذا الترتيب كان منهﷺ بتوقيف لهم على ذلك؛ وأن هذه الآية عقب تلك الآية، فثبت أن سعي الصحابة في جمعه في موضع واحد لا في ترتيب؛ فإنَّ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي هو في مصاحفنا الآن، أنزله الله جملة"، وقال في موضع آخر: "أما ما يتعلق بترتيبه فأما الآيات في كل سورة وضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه"، انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 256/236/1.

[3] أبو جعفر المدني: البرهان في تناسب سور القرآن، ص:182.

[4] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 211/1-212.

[5] وهذا بحلاف ترتيب السور في القرآن الكريم فهي مسألة خلافية بين أهل العلم فمنهم من رأى أن ترتيب السور توقيفي مثل ترتيب الآيات والسور، ومنهم من رأي ان ترتيب السور من اجتهاد الصحابة ﷺ، قال ان حجر: "فَظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤَلِّفُونَ آيَاتِ السُّوَرِ بِاجْتِهَادِهِمْ وَسَائِرُ الْأَخْبَارِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَوْقِيفِ نَعَمْ تَرْتِيبُ السُّوَرِ بَعْضُهَا إِثْرَ بَعْضٍ كَانَ يَقَعُ بَعْضُهُ مِنْهُمْ بِالِاجْتِهَادِ "، انظر: ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، 15/9.

[6] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 396/13.

[7] انظر: القاضي أبو يعلى: المعتمد في أصول الدين، ص:258.

ثانيا المنقول؛ فقد ثبت هذا المعنى بأحاديث كثيرة، أذكر منها:

1- حديث عمر بن الخطاب﵁: " مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: "يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ"[1].

2- قَالَ رسول الله ﷺ: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ"[2].

ووجه الدلالة في الروايتين ظاهر؛ وهو معرفة السورة في زمن النَّبيﷺ بتمامها، وترتيبها بشكل واضح، جعل النَّبيﷺ يرغِّب بقراءة آيات محددة من أول سورة الكهف، وآخر آيتين سورة البقرة[3] دون الحاجة إلى توضيح؛ لأنَّ السور بترتيبها المعهود معلومة لدى الصحابة ﵃.

3- قال عُثْمَانُ﵁: كَانَ رَسُولُ اللَّهِﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ: "ضَعُوا هَؤُلَاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةَ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا"[4].

4- قال رسول اللهﷺ: "أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ..﴾ [النحل: 90]"[5].

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفرائض، بَابُ مِيرَاثِ الْكَلَالَةِ، برقم 1617، 1236/3.

[2] مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، برقم، 257، 555/1.

[3] قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: "الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ"، انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب، برقم، 4008، 84/5.

[4] الترمذي: سنن الترمذي، أبواب التفسير، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، برقم3086، 272/5، وقال حديث حسن. واخرجه كذلك الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان والتبريزي، وقال ضياء الدين المقدسي: اسناده جيد، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين للحاكم، 241/2، وابن حبان: صحيح ابن حبان، 231/1، والتبريزي: مشكاة المصابيح، 683/1، ومع ذلك ضعفه الألباني، وهذا لا يضير الاحتجاج به؛ لأنَّه يوافق الأحاديث الصحيحة ولتصحيح مجموعة من أهل العلم له، انظر: الألباني: ضعيف سنن الترمذي، ص: 381.

[5] أحمد: المسند، مسند الشامين، حَدِيثُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، 17918، 441/29.

وهذا الحديث وان كان صريح الدلالة إلا انه مختلف في صحته فقد ذكره ابن كثير في تفسيره وقال: "وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا بَأْسَ بِهِ" انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 513/4، وصححه الهيثمي بقوله: " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ"، انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 49/7. وضعفه شعيب الأرنؤوط وآخرون في تحقيقهم لمسند أحمد، والألباني، انظر: أحمد: المسند، حاشية رقم 1، 89/5، والألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، 238/4.

وأخيراً المعقول:

1- الآيات المعترضة وما أفادته من فوائد ظاهرة وأخرى خفية يعسر فهمها، دليل واضح أنَّ ترتيب الآيات توقيفي. إذ لو ثبت العكس لما كان هنالك أي معنى لدراسة علماء اللغة والتفسير الآيات المعترضة ومحاولتهم بيان سبب اعتراضها، ولو كان الأمر راجعاً إلى اجتهاد الصحابة في ترتيب الآيات، لما أدخلوا هذه الآيات وسط سياقات لا تنتمي إليها.

2- وجود أدوات الربط بين الآيات، فترتيبها متتالياً بتوقيف من النبي ﷺ، وما تضمّنته من حروف العطف وأدوات الاستثناء الدالة على الاتصال، دليلٌ على أن هذا الارتباط لا يعني بالضرورة أن ما بعدها نزل متصلاً بما قبلها في الزمن[1].

أي إن هذه الروابط لم توجد حتى تربط بين الآيات المتتابعة في النزول، لذلك لا بد أن يكون لها داع آخر، ألا وهو الربط بين الآيات المتتابعة في السور، وهذا يقتضي أن يكون ترتيب الآيات توقيفياً.

3- القول بأن ترتيب القرآن الكريم اجتهادي يهدّم نظرية النَّظم، ويُبطل وجوهًا كثيرة من إعجازه، إذ إن ترتيب آياته من بدائع أسلوبه، وهو داخل في إعجازه البياني، ولذا كان ترتيب آيات السورة كما بلغنا ثابتًا لا يجوز تغييره، لأن تبديله يُنقص من درجة الإعجاز التي تميّز بها القرآن الكريم[2].

4- العدول عن ترتيب الآيات حسب النزول؛ إذ لو كان ترتيب الآيات في السور اجتهادياً، لتم ترتيبها حسب زمن نزولها، والعدول عن هذا الأمر لا يمكن أن يكون باجتهاد البشر.

5- إطلاق أسماء السور كان في عهد النَّبيﷺ وبيان فضل قراءة بعضها[3]، واسم السورة يستدعي أن تكون الآيات فيها مرتبة، وهذا أدنى شرط في أي عمل أدبي بشري، فكيف بكتاب اللهﷻ؟ والعكس يكون فيه فوضى عارمة، فلو ألَّف مؤلف كتاباً، وطبع منه عدة نسخ، بحيث لا توجد نسخة مثل

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 79/1-80.

[2] انظر: السابق: 79/1.

[3] كسورتي البقرة وآل عمران، انظر: مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ القرآن، برقم 804، 197/2.

النسخة الأخرى في ترتيب الموضوعات بين التقديم والتأخير، فهل يصح أن يسمى ذلك كتابا؟ وهل يصح أن يترك هذا المؤلف ترتيب موضوعاته لغيره من النَّاس؟

ويدلُّ ذلك كله على أنَّ ترتيب الآيات داخل السور ترتيب توقيفيٌّ، ولم يكن باجتهاد الصحابةﷺ، وتقرير هذا الأمر يُفيد في دراسة الاعتراض؛ إذ لو كان الترتيب اجتهادياً لما كان لهذه الدراسة أيُّ داع.

الفرع الثالث: علاقة الاعتراض بالسياق القرآني:

الاعتراض القرآني مكون أساسي للسياق القرآني، إذ لا يمكن فهم بعض السياقات دون فهم وجه الاعتراض فيه، إذ إنَّ عدم فهم سبب الاعتراض، يؤدي إلى القول بأنَّ الآيات مقحمة كما زعم ذلك بعض المستشرقين. وقد بينت في المبحث الأول أنَّ للجملة المعترضة عدة فوائد من أهمها التأكيد، أما اعتراض الآية وعدد من الآيات في السياق الواحد، فغالبا ما تُدرس كل آية معترضة على حدة لتظهر فائدة اعتراضها في سياقها، سواء اتفق المفسرون في تحديد سبب اعتراضها أم اختلفوا في ذلك، كل ذلك لا ينفي اتصالها بالسياق بوجه من الوجوه، قال الزمخشري: "الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه"[1].

وهذا ما سيظهر بشكل جلي في الفصل الثاني عند تتبع الآيات المعترضة في السور المدنية بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني: النَّظم القرآني وعلاقة الاعتراض به

الفرع الأول: تعريف النَّظم في اللغة والاصطلاح:

أولا: تعريف النَّظم في اللغة مأخوذ من الفعل الثلاثي نَظَمَ، ومعناه التأليف وضمُّ شيء إلى آخر، فيقال: نظَّمه أي ألَّفه وجمعه في سلك فانتظم[2]، ومنه قولهم: نظمت الشعر ونظَّمته، ونظم الأمر على المثل، وكل ما قرنت بعضه ببعض أو ضممت أجزاءه بعضها إلى بعض فقد نظمته[3].

[1] الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 448/3.

[2] الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص:1162.

[3] ابن منظور: لسان العرب، 578/12.

ثانيا: تعريف النَّظم في الاصطلاح: هو "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"[1]. وقد وضح عبد القاهر الجرجاني مفهوم النَّظم بقوله: "إعلم أنْ ليسَ "النَّظم" إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ "علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها"[2].

وقد كان عبد القاهر الجرجاني من أوائل[3] من اعتنوا بقضية النَّظم في كتابه دلائل الإعجاز، ويتضح اهتمامه به من بيانه أن العلماء قد أجمعوا على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره، وأنه لا فضل لكلام يختل نظمه، ولا قيمة له إذا لم يستقم في تأليفه وترتيبه، وساق لذلك عدة قرآنية وبيَّن اتساقها وتناسقها وجميل نظمها[4].

وقد أجاب الباقلاني عن سؤال: كيف يكون القرآن معجزًا وهو مؤلَّف من حروف المعجم التي يتكلم بها الناس؟ بأن إعجازه إنما يكمن في نظام حروفه، ودقة نسجها، وحسن تأليفها، وكونها جاءت على النمط الذي أتى به النبي ﷺ، فليس إعجازه في مجرد ترتيب الحروف وتقديمها أو تأخيرها، بل في نظمه الفريد الذي لا نظير له[5].

أما الفراهي فقد جعل إعجاز القرآن الكريم في شيء فوق النَّظم ألا وهو النِّظام[6]، ومعناه أنَّ القرآن الكريم يرتكز على الترابط العضوي بين الآيات والسور، بحيث تتماسك كل آية وسورة ضمن بناء شامل يخدم غرضاً أوسع، وجعل لكل سورة عموداً واحداً وأصلاً عميقاً، ترجع إليه كل موضوعات هذه السورة، وإن بدت هذه الموضوعات مختلفة متباينة[7].

---

[1] الشريف الجرجاني: التعريفات، ص:242.

[2] الجرجاني: دلائل الإعجاز، 81/1.

[3] قال بالنظم قبل الجرجاني آخرون مثل ابن المقفع، والجاحظ، والخطابي، ولكن الجرجاني قعَّد النظرية، وجعل كتابه قائم عليها، انظر: ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، 13، والجاحظ: البيان والتبيين، 113/1. والجاحظ: الحيوان، 11/1.

[4] الجرجاني: دلائل الإعجاز، 80/1.

[5] انظر: الباقلاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، 178.

[6] هذا جانب مختصر من نظرية النَّظم عند الفراهي، وهي أوسع من ذلك، ولها مجموعة من المرتكزات، بينها الفراهي في مقدمة كتابه: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وكتاب دلائل النظام، حيث قدم قراءة أكثر شمولًا وعمقًا للقرآن، وكان له تأثير كبير على التفسير الحديث.

[7] انظر: الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص:42.

فسورة الحجرات لها عمود واحد؛ وهو: التوبيخ على سوء الأدب قولاً وفعلاً، فنهى عن التقدُّم بين يدي النَّبيﷺ ورفع الصوت فوق صوته، ونهى عن قبول قول كل فاسق، وأمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين، وأمر بالعون عن الباغي ونهى المؤمنين عن السخرية من النَّاس والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، إلى آخر موضوعات السورة التي تتصل بنفس العمود الذي بيَّنه الفراهي[1]. فنظرية الفراهي تقوم على أنَّ لكل سورة نظامًا واحدًا مستقلًّا عن باقي السور، واستدلّ على ذلك بأمورٍ منها[2]:

1- أنَّ القرآن الكريم فيه السور الطويلة والقصيرة، ولو لم يكن ذلك لتميزها في نظامها؛ لكان القرآن كله سورة واحدة دون الحاجة إلى هذا التقسم.

2- اسم السورة يدل على تميزها كما يدل تميز أهل مدينة عن المدينة الأخرى، مع أن بعض السور بينها تشابه كبير كالمعوذتين، والتشابه بين المرسلات والنازعات والتكوير والانشقاق، ومع ذلك كانت كل سورة من السور المذكورة، منفصلة عن الأخرى مستقلة بذاتها.

3- أنَّ التحدي وقع بمقدار سورة، وهذا يدل على أنَّ لكل سورة نظاما خاصا مهما قصرت، والسورة القصيرة كالطويلة تماما في نظامها ووقوع التحدي بها.

وقد سبق الفراهيَّ الهنديَّ في ذلك البقاعيُّ، وذلك في كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، حيث بيَّن في مقدمة كل سورة مقصدها الرئيس، وتظهر عناية البقاعي بهذا الأمر، أنَّه أفرد لذلك مؤلفاً خاصاً أسماه: (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، وهو كتاب مختصر بين فضائل سور القرآن ومقاصدها.

وقد اهتمَّ بعض المعاصرين أيضاً، بتتبُّع مقصد السورة الرئيس، وكان من أكثرهم عناية بهذا الأمر كلٌّ من سيد قطب وسعيد حوى، فأمَّا سيد قطب؛ فقد جعل لكل سورة مقدمة بيَّن فيها موضوعها الأساسي وأسماه غالباً (شخصية السورة)، وبيَّن أن هذا الأمر يدركه كل من عاش في ظلال القرآن، إذ يلاحظ أن لكل

[1] انظر: الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص:42.

[2] انظر: المرجع السابق: ص:75، ص46-47.

سورة شخصيةً متميزة، ذات روحٍ حيةٍ خاصة، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة ترتبط جميعها بمحور واحد يجمعها ويوجهها[1].

وأما سعيد حوَّى، فقد جعل لكل سورة محوراً أساسيًّاً، وربط محاور تلك السور بآيات من سورة البقرة. ويكاد يكون هذا الأمر السمة الأبرز في كتابه (الأساس في التفسير)[2]. وقد بيَّن اهتمامه بهذا الأمر بقوله: "إن لهذا القرآن ملامح عامة مشتركة، وله وحدته وترتيبه، ثم إنَّ لكل سورة من سوره ملامحها الخاصة بها"[3].

فالسور القصيرة تتضمَّن تنوعاً في الموضوعات على نحو يشبه السور الطويلة، فهي تحتوي على القصص، والأحكام، والموعظة، وذكر الجنَّة والنَّار، وأهوال يوم القيامة. وقد وقع الاعتراض في أقصر سورة في القرآن الكريم[4]، ولم يقتصر هذا الأسلوب على السور الطويلة، كما انَّ لكلِّ سورة قصيرة محوراً خاصاً أيضاً، على نحو يشبه السور الطويلة.

والاهتمام بمحور السورة الرئيس مفيد في هذا البحث؛ لأنَّ الآيات المعترضة تشكِّل موضوعاً مستقلًّا وسط سياقات مختلفة، فتكون الآية المعترضة مرتبطة بالسياق من جهة، ومرتبطة بعمود السورة من جهة أخرى.

الفرع الثاني: علاقة أسلوب الاعتراض بالنَّظم القرآني

اهتم العلماء باللفظة والجملة القرآنية، والآية والآيات، لإظهار بلاغة وإعجاز هذا الكتاب الخالد؛ وبيَّنوا أنَّه لا يوجد عبث في القرآن الكريم، ولمَّا كانت الجملة أو الآية المعترضة قد تَظهر لقارئ النَّص القرآني؛ وكأنَّها مستقلة عن السياق، بيَّن علماء التفسير الفوائد المتعددة لهذا الأسلوب، إظهاراً لإعجاز القرآن الكريم، ودفعاً لما قد يتبادر لبعض الأذهان من وجود النَّقص أو الخلل في آياته.

---

[1] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 27/1.

[2] ومن شدة عنايته بهذا الامر، وردت كلمة "محور" وتصريفاتها في كتابه الأساس في التفسير أكثر من ألف مرة.

[3] حوى: الأساس في التفسير، 686/2.

[4] كالاعتراض الذي وقع في سورة الكوثر، فقد وقع قول الله ﷻ، ﴿فصل لربك وانحر﴾، معترضا بين الآيتين: ﴿أنا اعطيناك الكوثر﴾، وقول الله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، والآية المعترضة حكم شرعي وأمر للنبي بالذبح في وقت محدد، بين آيتين موضوعهما ذكر تفضل الله على النَّبي ﷺ.

فأصل بلاغة القرآن الكريم قائم على اتحاد أجزاء الكلام واندماج بعضها في بعض، مع شدة ارتباط آخره بأوله، وليس لما اتصف بهذا الأسلوب حدٌّ يحصره أو قانون يحيط به، إذ يأتي في صور متعددة ووجوه متنوعة تختلف باختلاف المقام والمعنى[1]، فالفصاحة لا تتجلّى في الألفاظ المفردة وحدها، بل تظهر عند تأليفها وضمّها على نسقٍ مخصوص يُبرز ما بينها من علاقاتٍ ومعانٍ دقيقة، وهذا علمٌ جليلٌ وأصلٌ عظيمٌ من أصول البيان[2].

ومن الطرق المخصوصة التي سار عليها القرآن الكريم، إيراد بعض الألفاظ والجمل والآيات بشكل اعتراضي خلال النَّص القرآني لفوائد مخصوصة، وهذه الفوائد تعزز جمال النَّظم القرآني وإعجازه في أسلوبه، فكل كلمة في القرآن الكريم تتناسق مع موضعها، وتتمركز فيه دون أدنى مجال لتقديم أو تأخير أو تبديل، وصدق ابن عطية إذ وصف شدة ترابط كلمات القرآن الكريم واتساقها، بقوله: "لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[3].

فالاعتراض إذا ورد في موضعه المناسب من السياق كان من مقتضيات النظم ومطالب المقام، إذ كثيرًا ما يأتي مؤكِّدًا لمعنى الكلام الذي وقع فيه، موضِّحًا لبعض دقائقه، ومقرِّرًا له في نفوس السامعين، وهذه من أبرز فوائده البلاغية[4]، وهذا متحقق في القرآن الكريم في أبدع صورة، لدرجة أعجزت الأجيال عن معارضته رغم وقوع التَّحدي في آيات عدة حتى تحداهم اللهﷻ أخيراً؛ بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن الكريم، ولكنَّهم عجزوا أيضاً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: 23-24].

---

[1] انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز: 93/1.

[2] انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز: 539/1.

[3] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 52/1.

[4] انظر: حسن: الجملة المعترضة في القرآن مفهومها وأغراضها البلاغية، ص:186.

والاعتراض في القرآن الكريم يأتي على ضربين[1]:

1- اعتراض الجملة أو الجمل وسط الآية، وهذه الجمل وإن ظهرت وكأنَّها غير مرتبطة بالسياق إلا أنَّ الكشف عن وجه ارتباطها بسياقها سهل يسير؛ لأنَّها تأتي في الغالب مؤكِّدة ومبينة للسياق الواردة فيه، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ ﴾ [الممتحنة: 10]. وَجُمْلَةُ: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ ﴾، معترضة، جاءت لبيان أن معرفة خفايا القلوب مردُّها إلى الله تعالى وحده، أي إن الله يعلم سرائرهن، ولكن عليكم أن تختبروا ذلك بما تقدرون عليه من الدلائل الظاهرة[2].

2- أما اعتراض الآية والآيات؛ فإنَّها تبدو أكثر استقلالاً عن سياقها لدرجة أنَّه قد يتبادر للذهن أنَّها لا ترتبط بالسياق بوجه من الوجوه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً[3].

فالآيات المعترضة أكثر تميُّزاً عن السياق من الجمل المعترضة، ممَّا يمنحها فائدتين أساسيتين:

الفائدة الأولى: تَحمل الآية المعترضة في الغالب موضوعاً متكاملاً بحيث لو قرأ القارئ الآية وحدها لحصل على هذا المعنى بشكل كامل.

الفائدة الثانية: يفيد موضع الآية الاعتراضية معنىً آخر يختلف عن معناها المستقل، ويكون هذا المعنى في الغالب غير ظاهر، مما يستدعي مزيداً من التفكر والتدبر حتى يتضح للقارئ.

لذلك لا ترتبط -في الغالب- الآية والآيات المعترضة بالسياق بوجه ظاهر، ولكن عند كشف سبب الاعتراض يتضح ارتباطها ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً، مع ما تحمل من دلالات إضافية بموقعها من النَّص، فيكون النَّص القرآني عقدا محكماً متناسقاً في آياته وسوره؛ وكأنَّه جملة واحدة أو حتى كلمة واحدة، قال

[1] أما اعتراض السورة فلم يقل به أحد من أهل العلم فيما اطلعت عليه إلا الفراهي ولم يضرب عليه أي مثال، لذلك لا يرقى أن يكون نوعا مستقلا.

[2] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 156/28، الطنطاوي: التفسير الوسيط، 338/14:

[3] وهذه الأمثلة سوف يأتي ذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني موضحاً سبب اعتراضها بإذن اللهﷻ.

ابن العربي: "إنَّ ارتباط آيٍ القرآن بعضها ببعض، حتَّى تكون كالكلمة الواحدة، مُتَّسِقة المعاني، منتظمة البيان"[1]. وقال الفراهي: "إن كنت ممن يوقن بأنَّ الله راعي النَّظام الحكيم في كلامه، ورأيت أمراً قُرن بأمر، فلا بد لك أن تطلب المناسبة، فهذا الطلب يهديك إلى أمور خفية لا يهتدي إليها من مرَّ عليه ولم يتدبر"[2]. فالآيات المعترضة تتصل بشكل مباشر بنظرية النَّظم، وهي ضمن أساليب البلاغة التي وقع بها التحدي، قال ابن عاشور: "وإنَّما وقع التحدي بسورة؛ أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات[3]؛ وبيَّن أن هذا التحدي من أساليب البلاغة الرفيعة، وجعل مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصياغته تبعًا للغرض الذي سيق له، من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض والرجوع إليها، وما يتخلل ذلك من فنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض[4]، وهذا هو وجه إيقاع التحدي بسورة كاملة دون أن يُجعل بعدد من الآيات، كما أوضحه شرف الدين الطيبي[5].

[1] ابن العربي: سراج المريدين في سبيل الدين، 144/4.

[2] الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص:43.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 104/1.

[4] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 104/1.

[5] ونص كلام الطيبي: "ولهذا السر كان التحدي بالسورة، وإن كانت قصيرة، دون الآيات وإن كانت ذوات عدد والله يقول الحق وهو يهدي السبيل"، انظر: الطيبي: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، 54/7.

الفصل الثاني

دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في السور المدنية

يُقسم القرآن الكريم –كما هو معلوم– إلى قسمين رئيسين؛ القرآن المكي والمدني، وضابط ذلك وعلامته، هجرة النَّبيﷺ، قال ابن عطية: "كل ما نزل من القرآن بعد هجرة النَّبيﷺ؛ فهو مدني سواء ما نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار أو بمكة، وإنَّما يُرسم بالمكِّي ما نزل قبل الهجرة"[1]، وهذا التقسيم هو الذي استقر عليه أهل العلم، واعتبروه، حتى اشتهر في كتبهم[2].

وانطلاقاً من هذا التصنيف تناولت دراسة الآيات المعترضة في السور المدنية، بعد أن بيَّنت في الفصل السابق فوائد اعتراض الجملة القرآنية وأثرها في السياق، علماً أنَّ إدراك فائدة هذا النوع من الاعتراض أعسر، والبحث فيه أولى وأجدر، والفوائد فيه أخصّ؛ إذ إنَّ كل آية معترضة تحمل فائدة تختص بموضعها الذي وردت فيه، ولا تتعدَّاه، فتضفي جمالاً وترابطاً على النَّص القرآني، فتبرز أوجه الإعجاز البياني ليتجلى النَّص القرآني في أبهى صور التَّحدي الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثله.

وقد اقتصر نطاق البحث في هذا الفصل على دراسة الآيات المعترِضة التي لا ترتبط بالسياق القرآني بوجهٍ ظاهر في السور المدنيّة، دون التعرّض للسور المكّيّة، وذلك للأسباب الآتية:

1- أنّ السور المدنيّة أطول من السور المكّيّة، ويكثر فيها التنوّع بين الأساليب البلاغيّة، ممّا يتيح وقوع الاعتراض فيها بشكلٍ أوضح وأجلى.

2- طول الآيات القرآنيّة في السور المدنيّة، إذ قد تشكّل الآيةُ معنى قائماً بذاته فيُتوَهَّم استقلالُها عن النصّ، ويُؤكّد وقوع الاعتراض؛ بخلاف السور المكّيّة ذات الآيات القصيرة، حيث يكون اعتراض الآية

---

[1] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 143/2.

[2] جرى الخلاف في تحديد المكي والمدني على ثلاثة أقوال، ذكرها الزركشي والسيوطي، وهي:

- أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة.
- أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة؛ وهو المشهور.
- أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 193/1، والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 37/1.

فيها أشبه باعتراض الجملة القرآنيّة، إذ لا تستقلّ – في كثيرٍ من الأحيان – الآيةُ المكّيّة بمعنى مستقلٍّ عن سياقها.

3- كثرة وتنوّع مواضيع التشريع في السور المدنيّة، ممّا يستلزم إدراج اعتراضاتٍ لرفع الأوهام، وتقييد العمومات، وتعليل الأحكام.

4- تنوّع الخطاب في السور المدنيّة ليشمل المسلمين والمشركين من العرب، فضلًا عن اليهود والنصارى؛ فكثرت النداءات والاعتراضات، وعُطف خطاب على آخر، من باب جمع معايب المشركين والمنافقين إلى معايب اليهود والنصارى.

5- التنوّع الزمني في الخطاب بين الحديث عن الأقوام السابقين، والانتقال إلى الحديث عن الواقع والمستقبل، يقتضي ورود بعض الاعتراضات تعقيبًا على القصص القرآني.

6- وضوح أسباب النزول في الآيات المدنيّة أكثر من السور المكّيّة، ممّا يجعل اعتراض الآية مرتبطًا بمعرفة سبب نزولها؛ فربّما يزول سبب اعتراضها أو يتأكّد بحسب سبب النزول والسياق.

7- معالجة الآيات المدنيّة لموضوع قيام المجتمع الإسلامي وتعزيز مفهوم الحكم بالشريعة الإسلاميّة، وهذا يقتضي وجود بعض الاعتراضات التي تؤكّد المعاني الخفيّة أو تعالج الإشكالات الملحّة.

فكانت هذه الأسباب هي التي دعت إلى اختيار السور المدنيّة والتركيز عليها؛ إذ هي أظهر في هذا الباب. وذلك من خلال تتبّع الآيات المعترِضة في سياقها، وتحليل وجه اعتراضها، واستقصاء سبب ورودها على هذا النحو، وبيان أهمّ الفوائد التي تحقّقها من خلال موقعها في النَّص القرآني بما يخدم النَّظم، وذلك من خلال مبحثين على النحو الآتي:

المبحث الأول: دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في السور السبع الطوال

في هذا المبحث سوف أتناول الآيات المعترضة في السور السبع الطوال، التي تمتاز بطول آياتها ومقاطعها، وكثرة تفصيلاتها في القصص والأحكام والمواعظ وضرب الأمثال، مما يجعل الاعتراض فيها له دلالات خاصة تستحق البحث والتدبُّر. وذلك بجعل كل سورة مطلباً مستقلاً يُستقصى فيه مواضع الاعتراض من تلك السورة، ويُبيّن مدى ارتباطه بالسياق، من خلال الكشف عن مناسبته لسياقه، وبيان عمق ارتباطه بمحور السورة الرئيس، وذلك من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: الآيات المعترضة في سورة البقرة

الفرع الأول: نبذة عن مختصرة عن السورة: سورة البقرة سورة مدنية بلا خلاف[1]، ونقل البقاعي الإجماع على ذلك[2]، وعدد آياتها مئتان وست وثمانون آية، وهي السورة الثانية من حيث الترتيب، وهي على رأس السبع الطوال، سميت بالزهراء[3] وسنام القرآن[4]، وفسطاط القرآن[5].

أما فضائلها فكثيرة جداً، ففيها آية الكرسي؛ أعظم آية في القرآن، وآية الدين؛ أطول آية، وآخر آية نزلت؛ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾[6]، وآخر آيتين إذا قرأهما المسلم من ليلته كفتاه حتى يصبح[7]. ومن فضائلها أيضاً:

1- أنَّها تنفِر الشيطان، قال رسول اللهﷺ: "لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"[8].

---

[1] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 155/1، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 41/1.

[2] البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 5/2.

[3] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 197/4.

[4] للحديث الذي أخرجه الترمذي، عن النَّبيﷺ أنَّه قال: " لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"، انظر: الترمذي: سنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ سُورَةِ البَقَرَةِ وَآيَةِ الكُرْسِيِّ برقم2878، 7/5، وهو حديث مختلف في صحته، فقد صححه ابن حبان، والحاكم، وضعفه ابن الأثير والألباني، شعيب الأرنؤوط، وقال الألباني: صحيح: دون (ثلاثة ليال)، انظر: ابن حبان: صحيح ابن حبان، 60/3، والحاكم: المستدرك على الصحيحين، 285/2، وابن الأثير: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 312/6، والألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، 525/3، والتعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، 18/2، شعيب الأرنؤوط، في تحقيقه لصحيح ابن حبان هامش صفحة، 60/3.

[5] الزمخشري: الكشاف، 334/1.

[6] انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب موكل الربا، 734/2.

[7] انظر: مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ فَضْلِ الْفَاتِحَةِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، برقم 807، 554/1.

[8] مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ، وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ، برقم780، 539/1.

2- أنَّها تأتي شفيعاً لصاحبها يوم القيامة، قال رسول اللهﷺ: "اقْرَءُوا القرآن فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ"[1].

3- أنَّها سورة مُعَظَّمة من الصحابةﷺ، فقد قال أنس بن مالكﷺ: "وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، يُعَدُّ فِينَا عَظِيمًا"[2]، أي ذا شأن ورفعة، وما ذلك إلا لعظم هاتين السورتين.

الفرع الثاني: محور السورة الرئيس، هو الهداية والإبعاد عن الضلال[3]، وهذا المقصد يظهر من بداية سورة البقرة وقول اللهﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، ثم ذَكر الله ﷻ بعد ذلك صفات المؤمنين، في ثلاث آيات، وأتبعها بصفات الكافرين في آيتين، وفصَّل آيات المنافقين بعد ذلك في ثلاث عشرة آية، وكل ذلك يتفق مع محور السورة في هداية الخلق باتباع صفات المؤمنين والابتعاد عن سبيل الكافرين والمنافقين. وقد أوضح ابن عاشور أن سورة البقرة سورة واسعة متشعّبة الموضوعات، جمعت من وشائج أغراض السور ما يصدق تسميتها بفسطاط القرآن، وتنقسم أغراضها إلى قسمين رئيسين: أحدهما يبيّن سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وتزكيته للنفوس، والآخر يوضّح شرائعه لأتباعه وما فيها من إصلاحٍ لمجتمعهم[4].

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، برقم804، 553/1.

[2] أحمد: المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، برقم 12216، 248/19.

[3] انظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 55/1، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 150/1، والسيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، 52/1.

[4] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 203/1.

الفرع الثالث: الآيات المعترضة في سورة البقرة: تبيَّن بعد التتبع أنَّها تقع في ثلاثة عشر موضعاً، وبيانها على النحو الآتي:

الموضع المعترض الأول مع سياقه: قول اللهﷻ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: 43-45].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: بدأت الآية بسؤال استنكاري موجه إلى بني إسرائيل، الذين يعظون النَّاس، ويثبتونهم على الإيمان، وينسون أنفسهم، وهم يتلون التوراة، وجاءت خاتمة الآية مناسبة ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ لأن ما يفعلونه لا يناسب العقول السوية.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: اعترضت هذه الآية في سياق آيات تحتوي على مجموعة من الأوامر والنَّواهي الموجَّهة إلى بني إسرائيل، قال ابن عاشور: موضحاً اعتراض هذه الآية: "اعتراض بين قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: 43]، وقوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: 45]"[1].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر سبب اعتراض هذه الآية بمعرفة سبب نزولها، فقد أخرج عبد الرزاق عَنْ قَتَادَةَ، "فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾، قَالَ: "كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَأْمُرُونَ النَّاس بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِتَقْوَاهُ بِالْبِرِّ، وَهُمْ مُخَالِفُونَ ذَلِكَ، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ بِهِ"[2]. فكان أحدهم يقول لصهره أو قريبه من المسلمين: اثبت على دينك، وامتثل ما يأمرك به نبيكم، فإن أمره حق وقوله صدق، فكانوا يأمرون الناس بذلك وهم لا يعملون به[3].

---

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 474/1.

[2] عبد الرزاق: تفسير عبد الرزاق، 268/1. إسناده صحيح، انظر: ياسين: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، 149/1.

[3] انظر: الواحدي: أسباب النزول، ص27، والبغوي: معالم التنزيل، 88/1.

وبذلك يمكن أن نلخص الحكمة من اعتراض هذه الآية فيما يأتي:

1- وصف حال بني إسرائيل حتى يعرفهم أهل الإسلام على حقيقتهم؛ فقد أورد اللهﷻ الآية المعترضة في سياق تكثر فيه الأوامر والنَّواهي، وكان من المفترض أن تحضّهم الأوامر والنَّواهي على الإيمان والاتباع؛ فإذا بالمفارقة غير المتوقعة، أنَّهم يأمرون النَّاس بالبرِّ ويشهدون بالسر على صدق النَّبيﷺ، ولا يطبقون ذلك على أنفسهم، مع أنَّ سياق الآيات يدل على فهمهم للنُّصوص دون التباس، ومعرفتهم للنَّبيﷺ دون شك، وزاد ذلك إيضاحاً، قول اللهﷻ: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، أي التوراة التي عرَّفت النَّبيﷺ، وأخبرتهم بصفته حتى عرفوه دون شك.

فكأن الاعتراض يبرز بوضوح هذه المفارقة العجيبة بين ما يُفترض من الإيمان والطاعة، وبين الواقع القائم على التكذيب والعصيان، والمقصود من ذلك بيان تمام خسرانهم وشدة سوء حالهم، إذ أصبحوا يعظون ويعلّمون الناس كما يمارس الصانع صنعته والتاجر تجارته، دون أن ينظروا إلى حال أنفسهم تجاه ما يأمرون به غيرهم[1].

لذلك ناسب هذا التناقض التذييل الذي ختم اللهﷻ به الآية، ﴿أفلا تعقلون﴾، قال الحرالي: "لمَّا تقدم من نقض عهدهم، ولبسهم وكتمهم بما ظهر من نقص عقولهم في أن يُظهر طريق الهدى لغيره ولا يتبعه؛ فأخرجهم بذلك عن حد العقل الذي هو أدنى أحوال المخاطبين"[2]. فالحد الأدنى للعقول السوية ألَّا يخالف الإنسان ما يدعو النَّاس إليه، لذلك احتج نبي الله شعيب على قومه بقوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾[هود: 88].

2- نفي الإيمان المزعوم عن بني إسرائيل، فهم كذَّبوا بدعوة النَّبيﷺ مدعين التمسك بكتابهم، فكانت هذه الآية المعترضة وسط الأوامر والنَّواهي، تعرية لقولهم الباطل، قال الشعراوي: "إذن فقوله تعالى:

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،474/1.

[2] الحرالي: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، ص206.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾، يُذكِّر الله بأنَّ اليهود يقولون ما لا يفعلون، ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول اللهﷺ وبالإسلام؛ لأنَّ ذلك أمر في التوراة، ولكنَّهم نسوا أنفسهم، فهم أول مخالف للتوراة؛ لأنَّهم لم يتبعوها، وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد"[1].

3- كمال العظة والعبرة لأمة محمدﷺ؛ وذلك في قوم نزلت عليهم الأوامر فعرفوها وفهموا مقتضاها، ولكنَّهم لم يعملوا بها، بل زادوا حجة الله عليهم، فأمروا النَّاس بالبر ولم يفعلوه، فكانت الآيات صورة مُنفِّرة من هؤلاء القوم، وهذه الصورة المنفِّرة تتأكد باعتراض هذه الآية، وسط مجموعة من الأوامر والنَّواهي، حتى يستقر في ذهن السامع بشاعة هؤلاء القوم، "فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[2]، و"الخطاب عام لليهود الذين كان هذا حالهم، وعبرة لغيرهم"[3]، فكل تالٍ للقرآن الكريم، له عظة حية أمام عينيه بهؤلاء القوم حتى لا يكون مثلهم.

وقد أوضح سيد قطب أن هذه الآية، وإن وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، إلا أن دلالتها تتجاوزهم، فهي موجهة إلى النفس البشرية عامة، وإلى رجال الدين خاصة، فهي نصٌّ دائم لا يختص بقومٍ دون قوم، ولا بجيلٍ دون جيل[4].

وهذه الصورة المنفِّرة تتفق مع قول اللهﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط الآية بمحور السورة من جهتين:

- الأولى: أنَّ الآية تبرز شناعة فعل اليهود واستكبارهم؛ وذلك أنَّهم عرفوا الحق ولم يتبعوه، وهذه الصورة المنفِّرة ترسم الهداية لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

[1] الشعراوي: تفسير الشعراوي، 306/1.

[2] الخطيب الاسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، 467/1.

[3] رضا: تفسير المنار، 247/1.

[4] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 68/1.

- الثانية: أنَّ معنى الآية المباشر يركز على ضرورة الموافقة بين الظاهر والباطن، وعلى سلامة المرء الشخصية، وهذا الأمر هو جوهر الهداية وأصله وأساسه، فهذه الآية وحدها تصلح موعظة بليغة لمن تدبَّر وتمعن[1].

الموضع المعترض الثاني مع سياقه: قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 61-63].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: بيَّنت الآية أصنافاً من العباد على اختلاف أحوالهم وأزمنتهم، بدءاً بالذين آمنوا –سواء أكانوا من المؤمنين من أمة محمدﷺ أم من المؤمنين بأنبيائهم من الأقوام السابقة– ثم اليهود والنَّصارى والصابئين الخارجين من دين إلى دين؛ كل من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر، وأتبع الإيمان بالعمل الصالح؛ فلهم الأجر الجزيل، والأمان في الدنيا والآخرة[2]. ومناسبةُ ختمِ هذه الآية بقوله

[1] أذكر وأنا طالب في مرحلة البكالوريوس؛ أنَّ أحد الأخوة الفضلاء أرسل لي رسالة على الجوال –وكنا نتبادل النصائح– فكان نصُّ الرسالة، إياك أخي أن تكون من أهل الآية 44 من سورة البقرة، فكانت هذه موعظة بليغة يتردد صداها في نفسي منذ تسع عشرة سنة.

[2] انظر: الواحدي: التفسير الوجيز، ص:110، ونخبة من أساتذة التفسير؛ التفسير الميسر: 10/1.

تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ظاهرة؛ إذ من استقر أجره عند ربه، لا يصيبه حزن على ما مضى، ولا خوف مما هو آتٍ[1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة في معرض حديث الآيات عن بني إسرائيل؛ في موضوع مختلف عن السياق، إذ عدَّدت أصنافاً من المؤمنين من ملل مختلفة، وبدأت بالمؤمنين من أمة محمد ﷺ[2]، إذ لا يوجد في سياق الآيات أي حديث عن النَّبيﷺ وأمته، فكانت هذه الآية معترضة بموضوع مستقل عن السياق، وبانتقال زمني من الماضي إلى الحاضر. وقد حكم ابن عاشور على هذه الآية أنَّها معترضة بين ذكر الآيات التي بيَّنت إنعام الله ﷻ على بني إسرائيل، وبما قابلوها من الجحود والكفران[3]. وقال دروزة: "والمشكل في الأمر وضع الآية في سلسلة يعود ما قبلها وما بعدها إلى أحوال اليهود"[4].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يمكن أن نُرجع سبب اعتراض هذه الآية، لعدة أسباب، كما بيَّن أهل التفسير، وهي على النحو الآتي:

1- أنها جاءت مناسبة لما سبق من ذكر سوء مقابلة بني إسرائيل لنعم الله تعالى، وهو ما أدى إلى ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وهذا السياق مما يثير في نفوسهم الفزع والرغبة في النجاة من غضب الله، فلم يمنعهم سبحانه من رحمته، بل بيَّن في هذه الآية أن باب التوبة والإيمان مفتوح لهم، تأنيسًا لوحشتهم من الوعيد السابق، وإنصافًا للصالحين منهم، واعترافًا بفضلهم، وتشجيعًا لمن قد يؤمن من غيرهم من النصارى والصابئين[5]. قال الإيجي: "وهو اعتراض مشعر؛ بأنَّهم مع كمال ضلالهم إن آمنوا يُتاب عليهم"[6].

---

[1] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 392/1.

[2] وهو ما رجحه، انظر: الإمام الطبري: جامع البيان، 143/2.

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 531/1.

[4] دروزة: التفسير الحديث، 173/6.

[5] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 531/1.

[6] الإيجي: جامع البيان في تفسير القرآن، 485/1.

2- اعتراض الآية؛ فيه رد على جحود اليهود الذي طغوا في الأرض واستكبروا وكذَّبوا الأنبياء وقتلوهم، ومع هذا يدَّعون أنَّهم هم وحدهم المهتدون، وأنَّهم شعب اللّه المختار، فقد قال الله على لسانهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾[المائدة: 18]. فلا ينفع الإنسان الانتساب إلى دين أو ملة أو قوم دون العمل، وهذا من الغرور الذي أصاب الأقوام السابقة، لمَّا انحرفوا عن رسالة ربهم، سواء أكان ذلك في حياة أنبيائهم أم بعد موتهم، قال محمد رشيد رضا: "والحكمة في عناية الله -تعالى- بالنَّعي على المغترين بالانتساب إلى الدين - أيا كان - ظاهرة، فإنَّ هذا الغرور هو الذي صرفهم عن العمل به اكتفاءً بالانتساب إليه، وجعله جنسية فقط. وترك العمل لازم أو ملزوم لعدم الفقه في الدين.. وتَبِع هذا في الأمم السابقة، ترك النَّظر فيما جاء به النَّبيﷺ"[1].

فكانت الآية المعترضة تكذيباً لهذه الدعوى العريضة، وتقريراً للقواعد الكلية، فطريق الحق الذي يُرضى اللهﷻ، هو طريق الذين آمنوا والذين هادوا والنَّصارى بشرط الإيمان الكامل لله تعالى[2].

ولا منافاة بين السببين؛ فالتعليل الأول موجه للصالحين والمؤمنين من بني إسرائيل والأقوام السابقة، والتعليل الثاني موجه للكافرين والمعاندين علَّهم يرجعوا إلى طريق الحق الذي بيَّنه لهم ربهم، ورغَّبهم به، فكانت دلالة اعتراض الآية: بشارة لقوم، ونذارة لآخرين. قال البقاعي: " إنَّهُ -سبحانه- لمَّا علّل إهانة بني إسرائيل بعصيانهم، واعتدائهم، كان كَأَنَّهُ قيل: فما لمن أطاع؟ فأجيب بجواب عامٍّ لهم ولغيرهم"[3]. فالآية مع سياقها تشبه، قول اللهﷻ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: 123-124].

[1] رضا: تفسير المنار، 279/1.

[2] انظر: قطب: ظلال القرآن، 75/1.

[3] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 454/1.

3- الاعتراض بهذه الآية فيه إشارة واضحة إلى قُبح فعل بني إسرائيل، فالآية المعترضة جاء فيها ذكر للطوائف المنحرفة عن الإسلام من الذين تهودوا والنَّصارى والصابئين، وذلك في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكأنَّ في ذلك إشارة أنَّ اليهود قد جمعوا آثام تلك الأقوام، فقد حرفوا الدين، وطالبوا بعبادة الأصنام، وعبدوا العجل، وكذَّبوا أنبياء اللهﷻ وقتلوهم. قال البقاعي: "ولمَّا كانت هذه السورة في استعطاف بني إسرائيل ترغيباً وترهيباً، قرن هنا بين فريقيهم، ولمَّا كانت ملة الصابئة جامعة لما تَفَرَّقَ من أصول أديان أهل الشرك تلاهم بهم مريداً كل مشرك"[1].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس، لا يخفى ارتباط الآية بمحور السورة الرئيس، بما تتضمنه الآية من ترغيب كل النَّاس على اختلاف مللهم ونحلهم بالإيمان، والعمل الصالح؛ وذلك من خلال فتح باب التوبة، والهداية أمام اليهود ابتداءً، وهم من أكثر الأقوام عناداً واستكباراً، كما وصفهم القرآن في آيات كثيرة، ولم يكتف النَّص القرآني بفتح باب التوبة بل رغَّب فيها بما وعد به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بحفظ أجورهم وتأمينهم عند ربهم؛ لأنَّ الكافر المعاند إن تاب ورجع، قد يخشى ويخاف من عقاب ربه على ما سلف منه من عمل، فكان وعد الله لمن عاد وأناب؛ أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الموضع المعترض الثالث مع سياقه: قول اللهﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ البقرة [113-117].

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 456/1.

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: بدأت الآية الأولى بسؤال استنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وسعى في تخريبها، سواء أكان ذلك بهجرها وتعطيلها، أم بمحاربة أهلها والتضييق عليهم، ثم وصف الله تعالى ما يصير إليه هؤلاء من خوفٍ ووجلٍ في الدنيا بسبب سوء فعلهم، مع ما ينتظرهم من خزيٍ وعذابٍ أليمٍ في الآخرة[1]. أما الآية الثانية فارتبطت موضوعًا بالأولى، إذ بيَّن الله تعالى فيها جهتي المشرق والمغرب، ليؤكد أن أي جهةٍ توجه إليها المسلمون في صلاتهم بأمر الله فإنهم بذلك يبتغون وجهه، فالله واسع الرحمة بعباده، عليم بأعمالهم[2].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: جرى الخلاف في تحديد من هو المقصود بهذه الآية، الذي منع ذكر اللهﷻ في مساجده، وسعى في خرابها، على عدة أقوال[3]؛ أشهرها قولان:

1- "أنَّها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس"[4].

2- أنها نزلت في المشركين، سواء في الذين صدّوا النبي ﷺ عن المسجد الحرام فاضطر إلى الهجرة، أو في الذين حالوا بينه وبين دخول مكة يوم الحديبية[5].

فعلى المعنى الأول: الآية ليس فيها اعتراض فالآية التي قبلها تذكر الخلاف الشديد بين اليهود والنَّصارى بقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: 113]، ثم انتقل الحديث عن حدث وقع بمظاهرة النَّصارى لبختنصر على غزو المسجد الأقصى وتخريبه، وسبي أهله ونفيهم، وبهذا تكون الآية اللاحقة: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ

[1] وقد ذكر ابن الجوزي معنى آخر وهو؛ "أنه خبر في معنى الأمر، تقديره: عليكم بالجد في جهادهم كي لا يدخلها أحدٌ إلا وهو خائف"، انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 103/1.

[2] انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 103/1، ونخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، 18/1.

[3] ذكر الرازي الخلاف في ذلك على خمسة أقول في تحديد من هو المقصود في هذه الآية وهي: أنهم؛ الأول: النصارى الذي غزو القدس، الثاني: بُخْتُنَصَّرَ الذي خرب القدس، الثالث: مشركو العرب الذين منعوا النبيﷺ الصلاة في البيت الحرام، فحملوه على الهجرة، الرابع: مشركو العرب الذين منعوا النبيﷺ من العمرة، الخامس: اليهود الذين حاولوا منع المسلمين من التوجه للكعبة بالصلاة، وكذلك حاولوا صد الناس عن المسجد النبوي، انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 11/4.

[4] ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 103/1.

[5] انظر: المرجع السابق: 103/1.

وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾[البقرة: 115] أيضاً متصلة بالسياق، فسواء توجه بنو إسرائيل بعد هذا السبي إلى المشرق أو المغرب فهي أرض اللهﷻ، وهذا ما أشار إليه الطبري بعد عرض الأقوال بقوله: "ولله ملك الخلق الذي بين المشرق والمغرب يتعبدهم بما شاء، ويحكم فيهم ما يريد عليهم طاعته، فولوا وجوهكم –أيها المؤمنون– نحو وجهي، فإنَّكم أينما تولوا وجوهكم، فهنالك وجهي"[1]. وقد اختار هذا القول ورجحه ابن جرير الطبري، واستند في ترجيحه؛ "أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام"[2].

أما على القول الثاني: أنَّ المقصود بهذه الآية: المشركون من العرب، الذين حالوا بين النَّبيﷺ والمسجد الحرام بإخراجه من مكة أولا ثم منعه من العمرة ثانيا، فالاعتراض في الآية، وفق هذا القول بيّنٌ ظاهر، قال الألوسي: "على الأول تكون الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ عطف قصة على قصة تقريراً لقبائحهم، وعلى الثاني تكون اعتراضاً بأكثر من جملة"[3]، وفيه انتقال من الحديث عن اليهود والنَّصارى، إلى التعريض بالمشركين الذين حاربوا النَّبيﷺ وصدوا عن المسجد الحرام[4].

والقول الثاني أظهر؛ وذلك للأسباب الآتية:

1– أنَّ الآية اللاحقة للآية المعترضة مرتبطة بها في معناها وموضع اعتراضها، وهذا يرجح اشتراكهما في المعنى، وقد فسر جمهور المفسرين الآية الثانية: –ولله المشرق والمغرب– على توجه العبد المسلم في الصلاة نحو القبلة؛ وهذا ينسجم مع القول الثاني، قال سيد قطب: "والذي يجعلنا نرجح أنَّ الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة، هو الآية الثانية منهما"[5].

---

[1] الطبري: جامع البيان، 533/2.

[2] الطبري: جامع البيان، 522/2.

[3] الألوسي: روح المعاني، 361/1.

[4] وهذا القول رجحه، ابن كثير، وابن عاشور، وكثير من المفسرين ذكروا القولين دون ترجيح كابن ابي حاتم والواحدي، انظر: ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، 210/1، والواحدي: الوجيز، ص126، وابن كثير: تفسير القران العظيم، 388/1، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 678/1.

[5] قطب: في ظلال القرآن، 105/1.

ويشهد لذلك ما أخرجه الدارقطني والواحدي، "عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِﷺ سَرِيَّةً كُنْتُ فِيهَا فَأَصَابَتْنَا ظُلْمَةٌ فَلَمْ نَعْرِفِ الْقِبْلَةَ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَّا: قَدْ عَرَفْنَا الْقِبْلَةَ هِيَ هَاهُنَا قِبَلَ الشَّمَالِ، فَصَلَّوْا وَخَطُّوا خُطُوطًا وَقَالَ بَعْضُنَا: الْقِبْلَةُ هَاهُنَا قِبَلَ الْجَنُوبِ فَصَلَّوْا وَخَطُّوا خُطُوطًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ، أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْخُطُوطُ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ؛ فَلَمَّا قَفَلْنَا مِنْ سَفَرِنَا، سَأَلْنَا النَّبِيﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَسَكَتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾"[1].

2- يظهر من القول الأول، وكأنَّ دين اليهود وقتئذ كان مقبولاً، ولم يكن اليهود كذلك؛ فقد لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم واعتدائهم[2].

3- أنَّ قريشاً قد سعوا بالخراب المعنوي للمسجد الحرام، قال ابن كثير: "وأما اعتماده[3] على أنَّ قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأيُّ خراب أعظم ممَّا فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول اللهﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 34]"[4].

4- ورد ذكر المشركين في آية مشابهة لهذه الآية، وهي قول اللهﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ

[1] الدارقطني: سنن الدارقطني، 6/2، والواحدي: أسباب النزول، ص37، وقد أورد ابن كثير هذه الرواية في تفسيره وعلق عليها بقوله: وَهَذِهِ الْأَسَانِيدُ فِيهَا ضَعْفٌ، وَلَعَلَّهُ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 394/1.

[2] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 388/1.

[3] يقصد الإمام الطبري في ترجيحه الذي ذكرته أعلاه.

[4] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 388/1.

خَٰلِدُونَ﴾ التوبة [17]، واتحاد الآيتين في المعنى أولى من إفتراقهما، قال الجصاص: "ويدل على مثل دلالة هذه الآية، قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 17]"[1].

5- القول بالاعتراض يرجح القول الثاني، وهو أيضا ينسجم مع جعل الآيتين في الفترة الزمنية نفسها؛ لأنَّ القول الأول، يجعل الآية الأولى تتكلم عن عهد سابق، والآية الثانية عن زمن النبوة.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: لمَّا قرر أهل التفسير أنَّ المقصود بالآية: المشركون الذين صدوا عن المسجد الحرام، كان لا بدَّ من الكشف عن سبب هذا الاعتراض، وبيان فوائده، ويتخلص ذلك في فائدتين جليلتين، وهما:

1- جمع في هذه الآية بين ذم المعاندين من المشركين وذم اليهود والنصارى، إذ لما كان السياق السابق موجَّهًا لذم أهل الكتاب، انتقل إلى ذم مشركي قريش الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ظلمًا وعدوانًا[2]، فيكون النَّص القرآني قد "ذكر جميع الكفَّار وذمهم، فمرة وجه الذم إلى اليهود والنَّصارى، ومرة إلى المشركين"[3]، وعلى هذا المعنى يكون الخراب حسياً. وقد بيَّن ابن عاشور أنَّ اللهﷻ أشار إلى مشابهة المشركين أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى في عنادهم، وتكذيبهم، ومن ذلك أيضاً، قول اللهﷻ: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: 105]، وفي هذه المقارنة تغليظ على المشركين أنَّهم شابهوا اليهود والنَّصارى، بل فاقوهم بالعناد والاستكبار حتى منعوا مساجد اللهﷻ، وسدوا طريق الهدى وحالوا بين النَّاس وزيارة المسجد الحرام الذي هو فخرهم وسبب مكانتهم، وهذا شأن الحاسد المغتاظ[4].

---

[1] الجصاص: أحكام القرآن، 74/1.

[2] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 388/1.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 11/4.

[4] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 679/1.

وقد شابه المشركون اليهود في عنادهم واستكبارهم، قال اللهﷻ حكاية عنهم:﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:32]. قال أبو حيان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه جرى ذكر النَّصارى في قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾[البقرة: 113]، وجرى ذكر المشركين في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾[البقرة: 113]، وفي أي نزلت منهم، كان ذلك مناسباً لِذِكْرِها تَلِي ما قَبْلَها"[1].

2- وَعْدُ المؤمنين بالنَّصرة، فعلي القول الثاني: الذي منع ذِكر الله في مساجده، وسعى في خرابها، هم المشركون، فهم الذين أخرجوا النَّبيﷺ وصحابته الكرام أولا، وهم الذين صدَّوهم عن المسجد الحرام، ولم يسمحوا لهم بأداء العمرة، رغم أنَّ البيت كان متاحاً لكل العرب الموافق منهم لقريش والمخالف أيضاً، قال اللهﷻ: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 34]، قال الألوسي: "وعلى الثالث اعتراض بين كلامين متصلين معنى، وفيه وعد المؤمنين بالنَّصرة، وتخليص المساجد عن الكفار"[2].

والمساجد التي عناها النَّص القرآني، إمَّا المسجد الحرام، وإمَّا المسجد الأقصى، قال الطبري: "وأن لا مسجد عنى اللهﷻ بقوله: ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾، إلا أحد المسجدين، إمَّا مسجد بيت المقدس، وإمَّا المسجد الحرام"[3]، والمسجد الحرام في تلك الفترة كان بيد المشركين، والمسجد الأقصى بيد النَّصارى، والآية

[1] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 571/1.
[2] الألوسي: روح المعاني، 362/1.
[3] الطبري: جامع البيان، 522/2.

المعترضة فيها وعد واضح للذين صدَّوا عنهما ألَّا يدخلوهما إلا خائفين، وفي هذا بشارة واضحة لظهور المسلمين، وملكهم للمسجدين، وقد كان ذلك، فقد مَلَكَ المسلمون المسجد الحرام بعد نزول هذه الآية بسنتين، بعد فتح مكة، وقد ذكر الرازي هذا المعنى بوضوح تام، حيث قال: "إن هذا بشارة من الله للمسلمين، بأنَّه سيظهرهم على المسجد الحرام، وعلى سائر المساجد، وأنَّه يُذِّل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً"[1].

وقد كان ذلك بأن أظهر اللهﷻ المسلمين على المسجدين، المسجد الحرام والمسجد النبوي في حياة النبيﷺ، وأمر النَّبي بإخراج اليهود من جزيرة العرب[2].

أما المسجد الأقصى، فقد مَلَكَه المسلمون في السنة الخامسة عشرة من هجرة الحبيب محمد ﷺ[3]، في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطابﷺ، والفتح الثاني تم على يد صلاح الدين الأيوبي، قال الرازي: "بيت المقدس بقي أكثر من مائة سنة في أيدي النَّصارى بحيث لم يتمكن أحد من المسلمين من الدخول فيه إلا خائفاً، إلى أن استخلصه الملك صلاح الدين رحمه الله في زماننا"[4]. وبقي هذا الأمان للمسجد الأقصى بعد ذلك عدة قرون، بحيث لا يدخل المسجد الأقصى مشرك إلا خائفاً، قال الألوسي يصف ذلك: "وقد أنجز الله تعالى وعده، والحمد لله فقد رُوِيَ أنَّهُ لا يدخل بيت المقدس أحد من النَّصارى إلا متنكراً مسارقة"[5].

ويُضاف إلى ما سبق أنَّ الآية مع سياقها بشارة للمؤمنين في العصر الحديث كذلك، فالآية المعترضة في صياغتها لم تختص بزمن بعينه، ولم تجزم في تعين مسجد أو مساجد محددة كذلك، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

---

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 12/4.

[2] انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابٌ: هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ؟، برقم 3053، 69/4.

[3] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 607/3

[4] الرازي: مفاتيح الغيب، 12/4.

[5] الألوسي: روح المعاني، 362/1.

مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ ﴾[البقرة: 114]، قال ابن عطية: "وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة"[1].

فدلَّت الآية أنَّ كل من سعى في خراب أيٍّ من مساجد اللهﷻ، في أيّ زمن من الأزمان، قد شمله وعيد اللهﷻ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

وأخص مساجد الله في أرضه المساجد الشريفة المفضلة التي لا تشد الرحال إلا إليها. ولمَّا اعتدى اليهود في هذا الزمن على المسجد الأقصى، وسعوا أشد السعي في خرابه، وصدِّ النَّاس عنه، كانوا مستحقين لهذا الوعيد الشديد الذي حملته الآية، وهذا فيه بشارة للمؤمنين في هذا الزمن، أنَّ ظلم اليهود سوف ينتهي، ويرجع المسجد إلى أهله ومستحقيه، ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: 7]، فلا يدخله بعد ذلك اليهود إلا خائفين.

ومن العجيب أن الحرالي، الذي عاش في القرن السابع الهجري، قد أشار في تفسيره لهذه الآية إلى ما يشبه الإشارة إلى ظهور اليهود في المسجد الأقصى، إذ بيَّن أن من علامات قيام الساعة تضييع المساجد، وأن كل أمة أو طائفة أو شخصٍ يقترف جرمًا في مسجد، يكون فعله سببًا في خلوّه، فيعاقبه الله تعالى بالخوف والرهبة في الدنيا. وضمن ذلك أشار إلى ما يقع من تسليط الله على البيت المقدس، بسبب ما ارتكبه اليهود فيه من أعمال، إذ أجْرى الله سنته أن من لم يُعظِّم حُرمة مساجده شرّده منها، وجعل دخوله إليها تحت ذلٍّ ورقٍّ من أعدائه، كما يشهد بذلك أهل البصيرة، ولا سيما في الأرض المقدسة التي تتعاقب عليها دول الغلبة بين هذه الأمة وأهل الكتاب، حتى تكون العاقبة للمتقين، ويفرح المؤمنون بنصر الله[2].

[1] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 199/1.

[2] انظر: الحرالي: تراث أبي الحسن الحرالي، ص:254.

وهذه بشارة عظيمة لأهل هذا الزمن، ممن قد يدخل اليأس إلى نفوسهم، لظهور وتغلُّب أعداء الله فيه، أنَّ سنة الله لهم بالمرصاد، وأنَّ وعد الله لن يُخطئ من اعتدى على مساجده، ومنع ذكره؛ فظاهر "الآية العموم في كل مانع، وفي كل مسجد، والعموم، وإن كان سبب نزوله خاصاً، فالعبرة به لا بخصوص السبب"[1].

رابعا: ربط الآيتين بمحور السورة الرئيس: اعترضت هاتان الآيتان سياق الحديث عن بني إسرائيل معرِّضة بمشركي مكة الذين كذَّبوا النَّبيﷺ وصدُّوه عن المسجد الحرام، تسلية لقلب النَّبيﷺ، حتى لا يظننَّ ظانٌّ أنَّ مشركي قريش، هم أول من كذَّب نبيهﷺ، وصدَّ عن دعوته، وفي هذا التعريض تثبيت، وهداية لقلب النَّبيﷺ وصحابتهﷺ، وتقريع للمشركين وزجر لهم، لئلا يشابهوا اليهود والنَّصارى في عنادهم وتكذيبهم، وفي هذا الزجر والتقريع دعوة خفية للهداية والإيمان لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وفي هذا أيضاً تسلية للمؤمنين في كل عصر ومصر، حتى يعتبروا بعاقبة الكافرين الذين صدوا عن مساجد اللهﷻ، كيف أنَّ الله أذلَّهم في الدنيا، وتوعدهم بالعقاب العظيم في الآخرة، وهذا من أقوى المعينات على الصبر والثبات على طريق الإيمان، والرضا بأمر اللهﷻ رغم ما فيه من شدة على المؤمنين في بعض الأحوال، وهذا فيه كمال الهداية والبُعد عن الضلال.

الموضع المعترض الرابع مع سياقه: قول اللهﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠ ﴾ البقرة [118-120].

[1] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 571/1.

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: ابتدأ اللهﷻ هذه الآية بضمير المتكلم متفضِّلاً على نبيهﷺ، ومذكِّراً له أنَّ رسالته رسالة حق، للنَّاس جميعاً بشيراً ونذيراً، غير مسؤولٍ عن أصحاب الجحيم من المعاندين والمستكبرين من اليهود والأمم الأخرى.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة ضمن سياق الحديث عن بني إسرائيل، قال ابن عاشور: "معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب"[1].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض: يمكن ربط الآية بالسياق من وجهين:

الوجه الأول: لمَّا شابهت هذه الآية، الآية السابقة في موضع اعتراضها، شابهتها كذلك في سبب اعتراضها، فهي آية معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب، ويظهر القصد من اعتراضها من خلال عدة أمور، وهي كما يأتي:

1- جاءت الآية تأنيسًا للرسول ﷺ، إذ كان يرجو أن يؤمن به أهل الكتاب لما لديهم من علمٍ بالله وأنبيائه، فيقوَى بهم الإسلام، فإذا به يلقى منهم عنادًا أشدَّ مما لقيه من المشركين، فشقَّ عليه إعراضهم عن دعوته، وكأن لسان حالهم يقول: يا محمد، مهما جئتنا من بيّنة، ومهما فعلت لإرضائنا، فلن نرضى عنك حتى تتبع ملّتنا[2].

فكانت هذه الآية تسلية للنَّبيﷺ وتطييباً لخاطره، وعذراً له؛ وذلك أنَّه غير مسؤول عن قوم عاندوا ورضوا لأنفسهم بالجحيم، وفي ذلك أيضاً تيئيس من إيمان اليهود[3]. قال سيد قطب: "وإذا انتهت مقولاتهم، وفُندت أباطيلهم، وكُشفت الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم، يتجه الخطاب إلى رسول اللهﷺ يبين له وظيفته، ويحدد له تبعاته، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنَّصارى.. ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 691/1.

[2] الزحيلي: التفسير المنير، 295/1.

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 691/1.

وَنَذِيرًا ﴾، وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضلِّلين، ومحاولات الكائدين، وتلبيس الملفِّقين، وفي جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين"[1].

فهذه الآيات ونظائرها كانت بمثابة التمهيد لما حصل من اعراض اليهود والنصارى وإصرار على تكذيب النبيﷺ رغم معرفتهم به، حتى لا يتفاجأ النَّبيﷺ وصحابته، فهي بمثابة حقائق تُنير الطريق لتكشف لهم حقيقة تكذيب اليهود وعصيانهم، وقد كان؛ فلم يؤمن من اليهود إلا قليل؛ قال النَّبيﷺ: " لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ"[2].

2- إعلام النَّبيﷺ أن إعراض الكافرين ليس عن نقص في الآيات، فقد ورد في الآية السابقة للآية المعترضة أنَّ الكافرين[3]، طلبوا من النَّبيﷺ آية، قال اللهﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ ﴾ [البقرة: 118]، فقد يخطر في بال النَّبيﷺ أنَّ تأخر إيمان هؤلاء القوم من اليهود والنَّصارى ومشركي العرب عن نقص في الآيات، أو التباس في فهم الحق الذي جاء من عند اللهﷻ، فاللهﷻ ينفي هذا الخاطر، مؤكداً لنبيه محمدﷺ أنَّه ما أرسله إلا بالحق الواضح البيِّن بشيراً ونذيراً للخلق أجمعين. قال أبو حيان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لمَّا ذكر أنَّه بيَّن الآيات، ذكر من بُيِّنَتْ على يديه، فأقبل عليه وخاطبهﷺ ليعلم أنَّه هو صاحب الآيات، فقال: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾، أي بالآيات الواضحة، وفُسِّرَ الحق هنا بالصدق وبالقرآن وبالإسلام.. أي أرسلناك، ومعك الحق لا يُزايِلُكَ"[4].

---

[1] قطب: في ظلال القرآن، 107/1.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبيﷺ، حين قدم المدينة، 3941، 70/5، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب نزل أهل الجنة،2793، 2151/4.

[3] بيَّن ابن الجوزي أنه جرى خلاف في تحديد القائل على ثلاثة أقوال: وهم اليهود والنَّصارى والمشركون، انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 105/1.

[4] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 588/1. لا يزالك، أي لا يفارقك.

والذي يؤكّد هذا المعنى أنَّ الآية الواردة بعد الآية المعترضة، هي قول اللهﷻ: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [البقرة: 120]، فاللهﷻ يقرر حقيقة أنَّ اليهود والنَّصارى لن يؤمنوا، حتى لو جاءتهم آيات كثيرة، ومقصدهم هو أن يتبع المخالف ملتهم، وأن يدور في فلكهم، ويؤمن بدينهم المحرَّف، والعجب ممن يرجو تأييداً من اليهود والنَّصارى في هذا العصر، ويغفل عن بيان الله ﷻ حقيقة هؤلاء القوم، وعدائهم للأمة المسلمة.

3- إعلام اللهﷻ نبيهﷺ بطبيعة الخلق، وانقسامهم إلى مؤمن وكافر أبد الدهر، فالنَّبيﷺ يجتهد في دعوته بشيراً ونذيراً للخلق أجمعين، وهذا لا يمنع من وجود خلق لا ينتفعون بدعوة ولا موعظة، وهذه حقيقة من حقائق القرآن الظاهرة، قال الله تعالى:

- ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام: 116].
- ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: 103].

ولما كان الحديث في السياق عن عناد اليهود واستكبارهم، ذكّر الله تعالى نبيَّه بهذه الحقائق، ونهاه أن يحزن لإعراض من أعرض عن دعوته، فالجحيم معدّة لأهلها من المكذّبين والمعاندين. وقد صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ تسليةً له، وتأكيدًا لما أُعلم به في مطلع السورة من أن الأمر كلّه جارٍ على تقدير الله، وأن الخلق منقسمون إلى مؤمنٍ وكافرٍ ومنافق[1].

[1] انظر: الحرالي: تراث أبي الحسن الحرالي، ص:257.

وهذا يتناسب مع السياق اللاحق للآية المعترضة، وبالتحديد مع قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: 121]، فالآية قررت أنَّ حال الذين أخذ كتاب ربهم من قبل النَّبيﷺ إلى مؤمن به وكافر.

الوجه الثاني: من حيث سبب النزول: هذا الوجه يظهر من خلال اختلاف القُرَّاء في قراءة كلمة ﴿تسأل﴾، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [البقرة: 119]، على قراءتين، كما بيَّنه ابن الجزري: فالقراءة الأولى قراءة الجمهور: "بِضَمِّ التاءِ والرَفْعِ عَلى الخَبَرِ"[1]، ﴿تُسألُ﴾، فتكون اللام نافية، وهذه القراءة يظهر فيها الاعتراض بشكل جلي، والتوجيه فيها على ما سبق ذكره.

أما القراءة الثانية: "قراءة نافِعٌ ويَعْقُوبُ بِفَتْحِ التاءِ وجَزْمِ اللامِ عَلى النَهْيِ"[2]،﴿تَسألْ﴾ وقد أخرج الواحدي سبباً لنزول الآية على القراءة الثانية[3]، مرسلاً عن مقاتل "أن النَّبيﷺ، قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بَأْسَهُ بِالْيَهُودِ لَآمَنُوا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: وَلا تَسْئَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ"[4].

وعلى هذه القراءة يظهر اتصال الآية المعترضة بالسياق؛ وذلك بنهي النَّبيﷺ عن السؤال عن أصحاب الجحيم من اليهود والنَّصارى، أو الاهتمام الزائد بأمرهم، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[فاطر: 8]، فالنَّبيﷺ مأمور بالرسالة والبلاغ وغير مأمور بالنتائج، وكم

[1] ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، 221/2.

[2] المرجع السابق: 221/2

[3] أخرج الواحدي سببا آخر على هذه القراءة وهو: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: "لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، والتوجيه حسب هذا السبب على ما ذكرت في التوجيه الأول، غير أن ابن عاشور رد هذا السبب بقوله: "وما قيل إن الآية نزلت في نهيهﷺ عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله: إنا أرسلناك تأنيس، وتسكين فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض، وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع، انظر: الواحدي: أسباب النزول، ص39، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 692/1.

[4] الواحدي: أسباب النزول، ص:43.

من نبي يرجع يوم القيامة ولم يؤمن به أحد، قال رسول اللهﷺ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيﷺ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبي لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"[1].

رابعاً: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط هذه الآية بمحور السورة الرئيس بشكل واضح؛ فالنَّبيﷺ هو منبع الهداية والبُعد عن الضلال، والله يمنُّ على نبيه بهذه النعمة العظيمة، وينفي سؤال نبيه عن المعاندين من أصحاب الجحيم على القراءة الأولى، وفي هذا تطمين للنَّبيﷺ؛ وذلك أنَّه غير مؤاخذ بتكذيب المكذبين بعد تأديته الرسالة على الوجه الذي أُمر به. أما على القراءة الثانية: ففيها نهي النَّبيﷺ عن السؤال عن أصحاب الجحيم من المعاندين؛ لأنَّ رحمة النَّبيﷺ تجعله يهتم بشأنهم، ويُكثر من سؤال الله لهم بالهداية، وهذا يتفق مع قول اللهﷻ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: 80].

وعلى كلتا القراءتين، يظهر اهتمام النَّبيﷺ بهداية قومه، وإبعادهم عن الضلال، وهذا هو المحور الرئيس لسورة البقرة، الذي قُرِّرَ في بداية المطلب.

الموضع المعترض الخامس مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ٱلَّذِينَ

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الايمان، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، برقم، 374، 199/1.

ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: 144-149].

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: تتحدث الآية الأولى عن اليهود والنَّصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل، وعرَّفهم النَّبي محمداﷺ بأوصافه المذكورة في كتبهم، حتى عرفوه كما يعرفون أبناءهم، ولكن فريقاً منهم كتموا الحق، وأعرضوا عنه مع علمهم صدقه. أما الآية الثانية فهي تُظهر منَّةَ اللهﷻ على نبيهﷺ برسالة الحق، فلا يكون من الشاكِّين فيما أُنزل إليه. وهذا وإن كان خطاباً للرسولﷺ فهو موجه للأمة أيضاً[1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان معترضتين في سياق الحديث عن القبلة، وتحولها من المسجد الأقصى إلى بيت الله الحرام، وموضوعهما مغاير للسياق، قال الرازي: " لا تَعَلُّقَ لهذا الكلام بما قبلهُ من أمر القبلة"[2]، وقال ابن عاشور: "جملة معترضة بين جملة: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: 145] إلخ، وبين جملة: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ ﴾"[3].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: قبل الكشف عن سبب الاعتراض لا بد من معرفة عائد الضمير في كلمة: ﴿يعرفونه﴾، وفي ذلك خلاف على قولين:

الأول: أنَّها تعود على صرف القبلة نحو الكعبة، وهذا القول ينفي الاعتراض عن النَّص القرآني، فالسياق واحد، وهو الحديث عن القبلة.

[1] أنظر: نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، 23/1.

[2] الرازي: مفاتيح الغيب، 111/4.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 39/2.

والثاني: أنَّها تعود على النَّبيﷺ، والحق الذي كتموه: هو نبوة النَّبيﷺ وصفته، وهذا هو الأظهر من وجوه:

1- أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور سابق، وهو لفظ العِلم في الآية التي سبقت الآية المعترضة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: 145]، والكاف في قوله جاءك تعود إلى النبي ﷺ، فكأنه قال: إنهم يعرفون ذلك العلم كما يعرفون أبناءهم، وأما أمر القبلة فلم يُذكر في السياق أصلًا[1].

2- أخبر اللهﷻ في كتابه أنَّ أمر النَّبيﷺ موجود في التوراة والإنجيل في آيات كثيرة[2]، ولم يُخبر أن أمر تحويل القبلة مكتوب عندهم في كتبهم[3].

3- أن المعجزات هي الدالة على صدق النبي ﷺ، أما أمر القبلة فإنه من دلائل ما جاء به، فكان حمل المعرفة على النبوة أولى وأقرب إلى المقصود[4].

4- لا يجوز أن يعود الضمير إلى القبلة؛ كما بيَّنه ابن عاشور بقوله: "فالضمير المنصوب في ﴿يعرفونه﴾ لا يعود إلى تحويل القبلة؛ لأنَّه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريراً لمضمون، قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: 144]، بل هو عائد إما إلى الرسول.. وإما أن يعود إلى الحق"[5].

---

[1] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 112/4.

[2] منها:

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: 157].
- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6].

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 112/4.

[4] انظر: المرجع السابق: 112/4.

[5] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 39/2.

5- وردت آية مشابه لهذه الآية في سورة الأنعام، وهي قول اللهﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 20]، والذي يعرفونه في هذه الآية: هو النَّبي محمدﷺ، فكان اتحاد الآيتين في المعنى أولى من افتراقهما لاشتراكهما في اللفظ والتركيب.

6- ورد بعد هذا المقطع مباشرة، قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا ﴾ [البقرة: 151]، أي كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة، فقد أرسلنا فيكم رسولًا من أنفسكم، وهذا يُرجِّح أن الضمير في قوله تعرفونه يعود إلى النبي ﷺ.

7- تركيب الكلمة يدل على أنَّها تعود إلى مذكر (يعرفونه)، أي النَّبيﷺ، ولو كانت تشير إلى القبلة، لقِيل تعرفونها.

وبناءً على هذا القول، فإن الآيتين تعدّان معترضتين على سبيل الاستطراد، بمناسبة ذكر طعن أهل الكتاب في القبلة، إذ كان طعنهم نابعًا من الكِبر والعناد، مع علمهم بأن القبلة الإسلامية هي الحق، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ ﴾ [البقرة: 144]، فاستطرد مبينًا أن طعنهم في القبلة الجديدة ليس إلا جزءًا من طعنهم في الإسلام وفي النبي محمد ﷺ، ويُستدل على كون الآيتين استطرادًا بما تضمنه السياق من انتقالٍ لطيفٍ يخدم الغرض العام دون الخروج عنه، بقوله تعالى بعدهما: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾ [البقرة: 148]، حيث عاد الحديث إلى استقبال القبلة، وتجلَّت للمسلمين فضيلة قبلتهم، وتيقَّنوا أنَّهم على الحق، وأنَّ اليهود لن يُقِّروا بصحة استقبال الكعبة؛ لأنَّهم معاندون مستكبرون، لا يطلبون الحق ولا يريدونه، رغم معرفتهم التامَّة به، كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم[1].

[1] انظر: الألوسي: روح المعاني، 411/1.

فالاعتراض يدلُّ على أنَّ من جحد نبوة النَّبيﷺ المعروفة عندهم في الكتاب، لن يتورع عن إنكار القبلة، وكتم الحق الذي آتاهم الله إياه؛ لذلك جاءت الآية المعترضة الثانية تأكيداً على أنَّ الحقَّ من اللهﷻ، ولم يضر الحق تشكيك الممترين من الكافرين من اليهود والنَّصارى؛ فكأنَّ الآية تُنهي الجدل حول القبلة بإهمال كل قول بعد هذا القول.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: تتصل هاتان الآيتان المعترضتان بمحور السورة الرئيس؛ من خلال بيان اللهﷻ لنبيه وصحابته الكرام طبيعة اليهود المعاندين، وحقيقة عدائهم لهم، فالأمر لا يقتصر على جحد القبلة، بل يتعداه إلى التشكيك في أصل النبوة. وفي ذلك تثبيت، وتسلية للنبيﷺ وصحابته الكرام، وأكَّد هذا المعنى بالآية الثانية، ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾، حيث يأتي تأكيد الحق، ونفي الشك فيه، ليُبرز كمال الهداية والبعد عن الضلال، وهو محور السورة كما بُيّن.

الموضع المعترض السادس مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 170-174].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: بدأت الآية الأولى بنداء اللهﷻ لجموع المؤمنين، مُمتنًّا عليهم بما رزقهم من الطيبات في حياتهم الدنيا، حاضًّا إيَّاهم على شكره على هذه النعم، وهذا خطاب لمن كان من أهل العبادة والاتباع، وفي الآية الثانية؛ بيَّن اللهﷻ ما يحرم أكله على المؤمنين، وختم الآية بالاستثناء

لمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات؛ وأنَّ الله غفور لهذا المضطر إذا أكل غير مجاوز حد الاضطرار ولا معتدٍ فيه.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن الكافرين من اليهود ومشركي العرب مع تقريعهم وذمهم على سوء فعلهم، حيث توسطت هاتان الآيتان هذا السياق في موضوع مختلف تماماً عنه؛ إذ جاءتا لبيان تفضُّل اللهﷻ على المؤمنين فيما رزقهم، مع بيان ما يحرم عليهم من الأطعمة، قال ابن عاشور: "اعتراض بخطاب المسلمين بالامتنان عليهم بإباحة ما في الأرض من الطيبات"[1]. وقال محمد دراز عن هاتين الآيتين: "وتبدو الآيات فصلاً جديداً"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط هاتين الآيتين بسياقهما من وجوه، وهي:

1- ارتباط هاتين الآيتين بآية سابقة، وهي قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 168]، فبدأ الخطاب عاماً لكل البشر، ثم كانت الآية المعترضة خطاباً خاصاً من اللهﷻ للمؤمنين، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: 172]، ولمَّا كان أهل الإيمان أدعى إلى شكر اللهﷻ، ذكَّرهم بوجوب شكره، وهذا الشكر حسب الآية له مقتضيان، الأول رد النِّعمة بالشكر، والثاني مقتضى الإيمان الذي يدفع العبد لشكر اللهﷻ على أدنى نعمة[3]. قال ابن عاشور: "وقد أعيد مضمون الجملة المتقدمة جملة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 114/2.

[2] دراز: التفسير الحديث، 279/6.

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 190/5، الزحيلي: التفسير المنير، 78/2.

ٱلۡأَرۡضِ﴾، بمضمون جملة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ ليكون خطاب المسلمين مستقلاً بنفسه"[1].

2- الرد على جدال اليهود فيما أحلَّه اللهﷻ للمؤمنين؛ فقد كان اعتراض هذا الموضع في سياق جدال اليهود، دليلاً على أنَّ اليهود قد جادلوا فيما أحلَّه اللهﷻ للمؤمنين، قال سيد قطب: "ولقد جادل اليهود جدالاً كثيراً حول ما أحلَّه القرآن، وما حرَّمه"[2].

رابعا: ربط الآيتين المعترضتين بمحور السورة الرئيس: يظهر ذلك من وجوه، وهي:

1- بدأت الآية الأولى بنداء اللهﷻ لعباده المؤمنين، وهذا النِّداء في حد ذاته دعوة للهداية؛ فاللهﷻ نبَّه عباده المؤمنين في عشرات المواضع من كتابه، وهذا موضع منها.

2- تفضَّل اللهﷻ عليهم بنعمة الطيبات حاضَّاً إياهم على شكره، وهذا فيه إعانة كبيرة على الهداية؛ لأنَّ الإنسان جُبل على شُكر من أسدى إليه معروفاً، فمن تذكَّر نعمة اللهﷻ عليه، فشكره، تحصَّل على الهداية، وابتعد عن الضلال.

3- ربطُ شكر اللهﷻ بمن حقق العبادة، فالعابد هو الشاكر، والشاكر هو العابد، وهذه دعوة للعبادة، والتزام أمر اللهﷻ، والعمل الصالح من أخص معاني الشكر، قال اللهﷻ: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: 13].

4- بيَّنت الآية ما أحلَّه اللهﷻ وما حرَّمه، ومن التزم الحلال، وابتعد عن الحرام، تحصَّل على الهداية.

5- بيَّن اللهﷻ عفوه وتفضُّله على المضطر؛ إذا أكل الحرام غير مجاوز ولا معتد، وهذا التفضُّل يستوجب الشكر، ويزيد الإيمان.

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 114/2.

[2] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 157/1.

الموضع المعترض السابع مع سياقه: قال تعالىﷻ: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 185-187].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: آية جليلة عظيمة -وكل القرآن عظيم- تُشعر المرء المسلم بالقرب من خالقه، فاللهﷻ يجيب نبيهﷺ عن سؤال صحابتهﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجيَه أم بعيدٌ فنناديَه[1]؟ بأنَّه قريب من عباده، قربٌ يليق بجلاله وكماله، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم اللهﷻ، أن يستجيبوا لأوامره، ويؤمنوا به إيماناً صادقاً، ليكونوا على رجاءٍ من إصابة الرُّشد[2].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: كانت هذه الآية سبباً لبحثي؛ إذ كانت تستوقفني دائماً عند قراءة هذا الموضع من كتاب اللهﷻ، فهي واضحة في اعتراضها بين آيات الصيام، فالآية التي قبلها قول اللهﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ...﴾[البقرة: 185]، آية تتحدث عن شهر الصيام، والآية التي بعدها: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ..﴾[البقرة: 187]، آية تتحدث عن

[1] أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري، والواحدي، ولفظ الطبري: أنها "نزلت في سائل سأل النبي، فقال: يا محمد، أقريبٌ ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: "وإذا سألك عبادي عني فأني قريبٌ أجيبُ" الآية، انظر: الطبري: انظر: الطبري: جامع البيان، 480/3، وابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، 314/1، والواحدي: التفسير البسيط، 591/3. قال المحقق أحمد شاكر في هامش الصفحة المذكورة من تفسير الطبري: "وهذا الحديث ضعيف جدًا، منهار الإسناد بكل حال".

[2] الواحدي: الوجيز للواحدي، ص151.

أحكام الصيام كذلك، وموضوع الآية المعترضة مغاير تماماً للسياق، فهي جواب السائلين عن اللهﷻ؛ بأنَّه قريب من عباده يجيب دعوة السائلين، حاضَّاً إياهم على الإكثار من دعوته، لعلهم يرشدون إلى مرادهم ورجائهم لربهم، قال الراغب الأصفهاني مثبتاً الاعتراض في هذا الموضع: " كيف فُصل بين الآية الأولى، وبين التي بعد هذه، وهما في حكم رمضان، بهذه الآي، وهي قد اختلفت عنهما؟"[1]، وقال الألوسي: "فالجملة على التقديرين اعتراضية بين كلامين متصلين معنى"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: لما قلَّبت النَّظر في كتب التفسير، وجدت أن أكثر المفسرين اهتموا باعتراض هذه الآية، وتلخيص توجيهاتهم كما يأتي:

1- تحري الدعاء في شهر رمضان، فاللهﷻ المجيب واحد أحد، قيُّوم يجيب الداعي في كل الأوقات، ولكن على العبد المؤمن أن يُكثر من الدعاء في هذا الشهر الفضيل تحرِّياً للإجابة، وهذا المعنى ظاهر من كلام ابن عاشور بعد أن بيَّن أنَّ هذه الآية معترضة، بقوله: "وفي هذه الآية إيماء إلى أنَّ الصائم مرجو الإجابة، وإلى أنَّ شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان"[3]، وهذا المعنى أكدته السنة النبوية؛ فقد قال رسول اللهﷺ: "ثَلاَثَةٌ لاَ يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ"[4].

قال ابن كثير: "وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر"[5].

فالآية السابقة للآية المعترضة تناولت أحكام الصائم في النهار، وتناولت الآية اللاحقة للآية المعترضة أحكام الصائم في الليل، وأفاد اعتراض الآية بينهما ضرورة إكثار الصائمين الدعاء في الليل والنهار،

---

[1] الراغب: تفسير الراغب، 395/1.

[2] الألوسي: روح المعاني، 461/1.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 179/2.

[4] أخرجه الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب، برقم3598، 5/578، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وصححه: ابن حبان وشعيب الأرنؤوط وآخرون، والألباني، انظر: ابن حبان: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، 215/8، الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، 211/3، وهامش المسند، ابن حنبل: المسند، 445/2.

[5] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 509/1.

ويتأكد بينهما، وهو وقت التقاء الليل بالنهار، وقت إفطار الصائمين، فكأنَّ موضع الآية المعترضة بين آية الصيام النهارية، وآية الصيام الليلية، إشارة إلى فضيلة الدعاء في هذا الوقت، فيكون فضل الدعاء وقت الإفطار ثابتاً بالسنَّة صراحة، وبالقرآن إشارة.

2- أن هذه الآية مرتبطة بالتكبير الوارد في الآية السابقة من وجوه:

أ- أن الله تعالى أمر بالتكبير أولًا، ثم رغّب في الدعاء ثانيًا، تنبيهًا إلى أن الدعاء ينبغي أن يُقدَّم عليه الثناء الحسن على الله سبحانه[1]، قال الراغب الأصفهاني: "قيل بل هي من تمام الآية الأولى؛ لأنَّه لمَّا حثَّ على تكبيره وشكره على ما قيَّضه لهم من إتمام الصوم، بيَّن أنَّ الذين تذكرونه وتشكرونه قريب منكم ومجيب لكم إذا دعوتموه، ثم تمَّم ما بقي من أحكام الصوم"[2].

ب- أنَّه تعالى بعد إيجاب فرض الصوم، وبيان أحكامه، أمر العبد بالتكبير والشكر، ثب بيَّن سبحانه بلطفه ورحمته، أنه قريب من عبده، مطَّلع على ذكره وشكره، يسمع دعاءه ويستجيب له، ولا يردُّ رجاءه خائبًا[3]، قال البيضاوي: "واعلم أنَّه تعالى لمَّا أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العِدَّةِ، وحَثَّهِمْ على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالَّة على أنَّه تعالى خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه"[4].

ج- أنَّه لمَّا أمر بالتكبير أولا، فصَّل في كيفية تكبير اللهﷻ ومناجاته، فعن أبي موسى الأشعري؛ أنَّه قال: "كُنَّا مَعَ النَّبيﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ النَّبيﷺ : "أَيُّهَا النَّاس ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا"[5]، فتكون الآية عبارة عن إجابة سؤال مقدَّر.

وقد أوضح محمد رشيد رضا أن هذه الآية، وإن وردت بين آيات الصيام، فهي ليست أجنبية عنها، بل متصلة بها ارتباطًا وثيقًا؛ إذ بعد أن أمرت الآية السابقة بإكمال عدة الصيام وبالتكبير شكراً لله تعالى،

---

[1] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب 5/ 260.

[2] الراغب: تفسير الراغب الأصفهاني، 395/1.

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 260/5.

[4] البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 125/1.

[5] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، بَاب: الدُّعَاءِ إِذَا عَلَا عَقَبَةً.، برقم6021، 2346/5.

كان من تمام ذلك بيان كيفية الذكر والدعاء، لأن التكبير والشكر يكونان بالقول والعمل، فإذا كانا بالقول، فقد يُسأل: هل يكون ذلك برفع الصوت والمناداة أم بالمناجاة والخفاء؟ فجاءت هذه الآية جوابًا عن هذا السؤال المتوقع، فهي في موضعها المناسب، سواء صحّ ما ورد في سبب نزولها أم لم يصح"[1].

3- أنَّ اعتراض هذه الآية فيه إيناس وتخفيف من مشقة الصائم، قال سيد قطب: "﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أية رقة؟ وأي انعطاف؟ وأية شفافية؟ وأي إيناس؟ وأين تقع مشقة الصوم ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود، وظل هذا القرب، وظل هذا الإيناس؟! وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة"[2].

4- أنَّها ترتبط بالآية اللاحقة لها، بإرشاد من وقع في الذنب إلى التوبة والدعاء، فقد فرض اللهﷻ الصيام على أمَّة الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وكان ذلك أنهم إذا نام أحدهم بعد الإفطار حرُم عليه ما يُحرَّم على الصائم حتى الليلة التالية، فشقَّ عليهم هذا الحكم، فعصوا الله تعالى فيه[3]، ثم ندموا وطلبوا من النبي ﷺ التوبة، فأنزل الله عليهم هذه الآية مبشِّرًا بقبول توبتهم، وناسخًا للحكم السابق استجابةً لدعائهم وتضرعهم [4].

5- التشابه الكبير بين الدعاء والصيام على أنَّهما عبادة سر وخفاء، فالصيام سر بين العبد وربه، فمن الذي يحجز الصائم عن الطعام والشراب إذا اختلى بنفسه؛ جاء في الحديث القدسي: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ"[5]، وكذلك الدعاء سر بين العبد وربه، فاللهﷻ جمع في هذا

---

[1] رضا: تفسير المنار، 134/2.

[2] قطب: في ظلال القرآن، 173/1.

[3] وهذا ثابت من حديث البراءﷺ حيث قال: " كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: 187] فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، انظر البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصيام، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ..}، برقم 1915، 3/ 28.

[4] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 260/5.

[5] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصوم، بَاب: هَلْ يَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ، برقم 1805، 673/2، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، برقم 163، 807/2.

الموضع عبادات السر المتشابه، ويتأكد هذا المعنى بالآية اللاحقة للآية المعترضة، وكأن اللهﷻ يذِّكر عباده إذا خلا الأزواج إلى بعضهم، فلا ينسى العبد المؤمن خلوته بربه ومناجاته ودعاءه.

وعند النظر في توجيهات المفسرين أعلاه يظهر أنَّ الاختلاف بينها اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد؛ إذ يمكن أن يُحمل سبب الاعتراض على كل ما ذكروا، ولكن أوضح هذه التوجيهات، وأكثرها اتصالاً بالنَّص والسياق، القول بأنَّ اعتراضها حاضٌّ على الإكثار من الدعاء في شهر رمضان، وأنَّ عبادة الدعاء مثل الصيام عبادة سر وخفاء ولا يفعلهما إلا مُخلص قريب من ربهﷻ.

وأن الدعاء في رمضان ليس كالدعاء في غيره، وفيه ليلة القدر؛ الليلة التي نزل فيها القرآن رحمة للعالمين، فيها تفتح أبواب السماء للداعين، وتتنزل الرحمات على التالين، فكأنَّ الآية تدعونا لأن نستجيب لكتابه المنزل في رمضان، وأن ندعوه به، إنَّه هو البر الرحيم.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: تتصل هذه الآية اتصالاً مباشراً بمحور السورة الرئيس الداعي إلى الهداية والبعد عن الضلال، من جهتين:

1- أنَّها بشارة لكل مؤمن بأنَّ اللهﷻ قريب من عباده يسمع دعاءهم ونجواهم.

2- أنَّها دعوة للطاعة والإيمان، وأي شيء يقرّب من الهداية أكثر من الاستجابة للهﷻ؟

الموضع المعترض الثامن مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: 217-219].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: تُعد هذه الآية تأكيدًا من الله تعالى في وصف عباده الذين آمنوا به وبرسوله، وعملوا بشرعه، وهاجروا وجاهدوا في سبيله، فهم يبتغون فضل الله وثوابه، والله غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم رحمةً واسعة[1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة في معرض آيات الأحكام المُصَدَرة بصيغة السؤال؛ ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾[البقرة: 215]، ثم ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ ﴾[البقرة: 217]، ومثل ذلك الآية التي بعدها، وهي قول الله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ ﴾[البقرة: 219]، قال ابن عاشور: "وهذه الجملة معترضة بين آيات التشريع"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط هذه الآية مع سياقها من وجهين:

1- من حيث سبب النزول؛ وذلك:

أ- أنَّ عبد الله بن جحشﷺ وجماعة معه أصابوا المشركين بقتال في شهر رجب، فعايرهم المشركون بذلك، فأنزل اللهﷻ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ.. ﴾ [البقرة: 217]، مبيناً جواز قتال المشركين إذا أصروا على القتال في الأشهر الحرم، وقد وردت هذه الآية المعترضة في هذا السياق لتكون مزيداً من الطمأنينة للصحابة بوقوع الأجر كاملاً، "قَالَ عَبْد

[1] انظر: نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، 34/1.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 337/2.

اللَّه بن جحش وأصحابه أصبنا القوم فِي رجب، فنرجو أن يَكُون لنا أجر المجاهدين فِي سبيل اللَّه؛ فأنزل اللَّهﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: 218]"[1].

ب- أنه لمَّا قتل عبد الله بن جحش وأصحابه عمرو بن الحضرمي[2]، "قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم -أظنه قال: - وِزْرًا، فليس لهم فيه أجرٌ[3]، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾"[4].

ولا معارضة بين السبب الأول والثاني؛ فيكون الوزر المذكور في رواية الطبري الذي خاف منه عبد الله بن جحشﷺ وأصحابه: هو القتال في الأشهر الحرم، وذلك عظيم وكبير كما أخبرهم اللهﷻ من قبل، وقد استقر ذلك في نفوسهم حتى خافوا من هذا الفعل؛ فكان لا بدَّ من توضيح الحكم من جهة، والتأكيد من جهة أخرى، حتى لا يبقى في قلوب الصحابة شك أو خوف، قال أبو السعود: "﴿إن الذين آمنوا﴾، نزلت في أصحاب السريةِ لما ظُنَّ بهم أنَّهم إنْ سلِموا من الإثم فلا أجرَ لهم"[5].

2- من حيث المعنى؛ وذلك أنَّه تعالى لمَّا أوجب الجهاد من قبل بقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: 216]، وبيَّن أن تركه موجب للوعيد، ثم أعقب ذلك بذكر من يتولّى القيام به،

---

[1] مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، 187/1.

[2] هو عمرو بن الحضرمي، وهو أول مقتول في الإسلام، قتله واقد بن عبد الله اليربوعي، في سرية نخلة بقيادة عبد الله بن جحش، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، 166/2.

[3] أي قتله، وتمام الرواية ما أخرجه النسائي: "أَنَّ النبيﷺ: " بَعَثَ رَهْطًا، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ، فَلَمَّا أَخَذَ لِيَنْطَلِقَ، لَكِنَّهُ بَكَى صَبَابَةً إِلَى رَسُولِ اللهﷺ، فَبَعَثَ رَجُلًا مَكَانَهُ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وَكَتَبَ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ وَجْهًا، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ ثُمَّ قَالَ: «سَمْعًا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَخَبَّرَهُمُ الْخَبَرَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَرَجَعَ رَجُلَانِ وَمَضَى بَقِيَّتُهُمْ فَلَقَوَا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَمْ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ» فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: " فَعَلْتُمْ وَفَعَلْتُمْ كَذَا وَكَذَا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَتَوَا النَّبِيَّﷺ فَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} [البقرة: 217] إِلَى قَوْلِهِ {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: 217] الشِّرْكُ "، وزاد الطبراني: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وِزْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}"، انظر: النسائي: السنن الكبرى للنسائي: كتاب السير، باب البكاء عند التشييع، برقم8752، 107/8، والطبراني: المعجم الكبير للطبراني، 172/2. وثق رجاله الهيثمي، وجوّد اسناده ابن حجر، انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 198/6، ابن حجر: تغليق التعليق، 76/2.

[4] الطبري: جامع البيان، 319/4.

[5] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 218/1.

فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 218]، ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد[1]، قال ابن عاشور: "والذي يظهر لي أنَّ تعقيب ما قبلها بها من باب تعقيب الإنذار بالبشارة، وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم، فإنَّ المهاجرين لم يرتد منهم أحد"[2]. وقال أبو الحسن الْحَرَالِّي: "لمَّا ذكر أمر المتزلزلين ذكر أمر الثابتين"[3].

ويمكن إضافة ربط آخر بين الآيات، فالآية المعترضة وردت بين آيات التشريع، وفيها عدد من الأحكام، وكانت هذه الآيات مصدَّرة بصيغة السؤال "يسألونك"؛ عن الإنفاق، وبر والوالدين، وحب الخير، والأمر الجازم بالقتال، والرضى بقضاء الله وقدره، وبعد الآية المعترضة، التدرج في تحريم الخمر والميسر، والحضِّ على الإنفاق مرة أخرى، والأمر بالاعتناء بالأيتام ثم أحكام الزواج من الكتابية، وتعددت الأحكام بعد ذلك، لتكون هذه الآية جواباً عن هذه الأسئلة؛ أنَّ من يستجيب لهذه الأوامر ولا يخالف أمر الله فيها: هم المؤمنون الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيله، فهم الأقدر على الامتثال للهﷻ والإذعان له، ومن قاربهم في صفتهم، شابههم بالإيمان والاستجابة، وقد ورد الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في القرآن الكريم، إحدى وخمسين مرة، بقوله تعالى : ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وهذا يدل على أنَّ الإيمان من أهم الأسباب المشجعة على العمل الصالح. وبذلك تكون الآية المعترضة وصفا للمؤمنين من الصحابة من جهة، ودعوة للمؤمنين في كل زمان ومكان؛ أن يكونوا بهذه الصفة لتكون لهم العاقبة نفسها.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: هذه الآية فيها كمال أسباب الهداية في كل عمل صالح بركنيه:

- الأول: موافقة الشرع، بقول اللهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.
- والثاني: إخلاص النِّية للهﷻ: ويمثله قول اللهﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾.

[1] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 394/6.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 337/2.

[3] الحرالي: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، ص:390.

ونهاية الآية فيها ترغيب بالحصول على المغفرة والرحمة من اللهﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فالآية بنصها، وبركنيها، وما يترتب على من يتمثَّلها من مغفرة، حاثَّة على الهداية، وبموقعها منفِّرة من الضلال، وهذا يتفق تماماً مع محور سورة البقرة الرئيس.

الموضع المعترض التاسع مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 235-241].

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: الآية الأولى: أَمرٌ من اللهﷻ لعموم المسلمين بالحفاظ على الصلاة، وخصَّ الصلاة الوسطى[1]، بمزيد من العناية والتأكيد، مع أمرهﷻ بالقيام في الصلاة بخشوع

[1] جرى خلاف كبير في تحديد الصلاة الوسطى على عدة أقوال، وأظهر هذه الأقوال دائر في تحديدها بين صلاتي الفجر والعصر، والقول إن الصلاة الوسطى: صلاة العصر أظهر وأبين، وعليه الأدلة الصحيحة، وهو ما رجحه جمع من أهل العلم:

- قال ابن رشد القرطبي: "وقد قيل إنها العصر، وهو قول أكثر أهل العلم"، انظر: ابن رشد: البيان والتحصيل، 120/18.
- وقال ابن قدامة: "وصلاةُ العَصْرِ هي الصلاةُ الوُسْطى، في قولِ أكثرِ أهْلِ العِلْمِ من أصحابِ النَّبِيِّﷺ وغيْرِهم، منهم: عَلِيُّ بنُ أبى طالِبٍ، وأبو هُرَيْرَة، وأبو أيُّوب، وأبو سَعِيد، وعَبِيدةُ السَّلْمانِيّ، والحسنُ، والضَّحَّاكُ، وأبو حنيفة، وأصحابُهُ"، انظر: ابن قدامة: المغني، 18/2.
- وقال النووي: "والذي تقتضيه الأحاديث الصحيحة أنها العصر وهو المختار قال صاحب الحاوي نص الشافعي رحمه الله أنها الصبح وصحت الأحاديث أنها العصر، ومذهبه اتباع الحديث فصار مذهبه أنها العصر"، النووي: المجموع شرح المهذب، 61/3.

وتذلل، وبيَّنت الآية الثانية أنَّ الصلاة لا تسقط عن المؤمنين في حال الخوف أو الحرب، وتُصلى على الحال المقدور عليه، وقد توسَّع أهل التفسير في تفسير هذه الآية كثيراً، نظراً لأهمية الصلاة في حياة المسلم، والتأكيد على إقامتها، والحفاظ على أوقاتها[1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: هاتان آيتان معترضتان في سياق الحديث عن أحكام النساء من طلاق وعدة، وما لهنَّ من حقوق وما عليهنَّ من واجبات، بشكل لافت للنظر، وكأنَّ ورود هاتين الآيتين في هذا السياق مستقل عنه، وهذا ظاهر من وصف المفسرين لاعتراض هاتين الآيتين، ومن ذلك قول أبي حيان: "﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، قالوا: هذه الآية معترضة بين آيات المتوفى عنها زوجها، والمطلقات، وهي متقدمة عليهن في النُّزول، متأخرة في التلاوة ورسم المصحف"[2]، وقال ابن عاشور: "وعلى هذين الوجهين الآخرين تكون جملة: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾، معترضة"[3]

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: أهتم جمع كثير من المفسرين بتتبع اعتراض هاتين الآيتين، وهما من أكثر الآيات استقلالاً عن سياقهما في ظاهر الأمر، ومع أنَّ ابن عاشور أكثر المفسرين عناية بأسلوب الاعتراض من خلال تتبع اعتراض الكلمة والجملة والآية والآيات، إلا أنَّه نبَّه تنبيهاً مهماً عند تفسير هذه الآية لا يمكن تجاوزه، حيث قال: "الانتقال من غرض إلى غرض، في آي القرآن، لا تلزم له قوة ارتباط، لأنَّ القرآن ليس كتاب تدريس يُرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض..؛ فقد يجمع فيه الشيء للشيء، من غير لزوم ارتباط، وتفرع مناسبة، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني، عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأموراً بإلحاقها بموضع معين من إحدى سور القرآن"[4]. وبالغ محمد دروزة وادعى أن هاتين الآيتين فصل مستقل لا صلة لهما بالسياق البتة[5].

---

[1] انظر: أبو حيان: تفسير البحر المحيط، 248/2، وأبو الفداء: روح البيان، 373/1.

[2] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 541/2.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 2/ 466.

[4] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 465/2.

[5] انظر: دروزة: التفسير الحديث، 450/6.

وقد ألمح الفراهي في كتابه دلائل النظام إلى أنَّ عدداً من المفسرين أنكروا التناسب تبرئة لكتاب الله؛ لأنَّهم إن قالوا بها في المواضع الظاهرة فقد يلتبس عليهم التناسب والنظام فيما خفي منها، وذكر مثالًا على ذلك هذه الآية، إذ جاءت واقعة بين سياقٍ متصل بأحكام النساء، ثم عاد بعدها الكلام إلى ما كان عليه، ولولا ورود هذه الآية لظنّ البيان على تمام الاتصال، ومن تكلّم في مناسبتها ولم يدرك وجهها فقد جانب الإنصاف، إذ الواجب أن يستمع القول فيتّبع أحسنه[1].

ومع ذلك؛ فإنَّ المفسرين[2] لم يدَّخروا جهدًا في بيان أوجه ارتباط هاتين الآيتين بالسياق، وخرجوا بتوجيهات مفيدة، لا تكلُّف فيها، ومن أهم هذه التوجيهات أنَّ الاعتراض:

1- دعوة إلى العدل ونبذ الظلم؛ لذلك أوضح الطنطاوي أن السر في توسط هاتين الآيتين بين آيات الأحكام هو أن هذه المسائل كثيرًا ما تكون سببًا للنزاع والخصام والقطيعة بين الناس، فأراد القرآن بأسلوبه الحكيم أن يذكّرهم بأن المحافظة على الصلاة والمداومة على طاعة الله وذكره تُورث في النفس مراقبة الله والخشية من عقابه، وتعين على حل القضايا المتعلقة بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح، لأن من حافظ على فرائض الله وأوامره، ابتعد عن ظلم الناس، وتعامل معهم بخلق كريم[3].

2- أنَّ أمر النِّساء بحاجة إلى تقوى اللهﷻ، والصلاة تعظِّم التقوى في قلب المرء المسلم، وهذا يجعل الآية ترتبط بما قبلها وما بعدها، فنهاية الآية التي سبقتها قول اللهﷻ: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [البقرة: 237]. قال سيد قطب: "وفي هذا

[1] انظر: الفراهي: دلائل النظام عبد الحميد، ص:23.

[2] انظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 27/6، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 465/2.

[3] انظر: الطنطاوي: التفسير الوسيط، 545/1.

الجو الذي يربط القلوب بالله، ويجعل الإحسان والمعروف في العشرة عبادة لله، يدس حديثاً عن الصلاة- أكبر عبادات الإسلام- ولم ينته بعد من هذه الأحكام"[1].

فالصلاة عبادة والزواج وما يتعلق به من أحكام عبادة، وتحقيق العبادة للهﷻ من أعظم مقاصد خلق الإنسان، قال سيد قطب: "فيوحي بأنَّ الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة، ومن جنسها، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن، وهو يتسق مع التَّصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله"[2].

3- دعوة لعدم الانشغال عن الصلاة؛ وذلك أنه لما كان سياق الحديث عن أعباء الحياة وشؤونها من أحوال الأزواج والزوجات، وأحكام النكاح والوطء، والإيلاء والطلاق، والرجعة والنفقة والإرضاع والخطبة والمهور، كان ذلك مظنّة الانشغال عن الصلاة والتهاون بها أو تأخيرها عن وقتها، فناسب أن يُؤتى بهاتين الآيتين اعتراضًا لتذكير المؤمنين بهذه العبادة العظيمة. فإذا كان المسلم مأمورًا بأداء حقوق العباد، فأداء حقوق رب العباد أولى وأحق، فكأن المعنى: لا تشغلكم أمور النساء وشؤون الحياة عن إقامة الصلاة في أوقاتها[3].

4- الدعوة إلى لين القلوب ونبذ قسوتها؛ وذلك أنَّ الانشغال بأمور الحياة وهمومها، قد يؤدى إلى قسوة القلب، ويورث في النَّفس الحزن، فاللهﷻ ذكَّر المؤمنين بالصلاة في هذا السياق، حتى تبقى الصلاة برهماً يداوي بها المسلم جروحه وهمومه، ويستعين بها، فهي بعد توفيق الله خير عون للمؤمن في دنياه[4]، قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: 45].

---

[1] قطب: في ظلال القرآن، 257/1.

[2] المرجع السابق: 257/1.

[3] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 542/2، البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 359/3.

[4] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 482/6.

5- دعوة إلى الابتعاد عن المعاصي والظلم؛ وذلك أنَّ الانشغال بالمشاكل الزوجية، ومعالجة النَّاس، قد يقسِّي القلب، ويوقع الإنسان في بعض المعاصي والتقصير، سواء كان ذلك التقصير في حقوق النَّاس أم في حقوق اللهﷻ، فاللهﷻ ذكَّر المؤمنين بالصلاة في هذا المقام؛ لأنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وقد ذكر الفخر الرازي أنَّ مناسبة اعتراض هذه الآية: "تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التمرد عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى، والانتهاء عن مناهيه، كما قال اللهﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]"[1].

ختاماً يمكن إضافة توجيه أخير لاعتراض هذه الآية، وهو: كما أنَّ الصلاة عمود الدين؛ فإنَّ المرأة عمود البيت، فيكون الاعتراض دعوة إلى ضرورة الحفاظ على النَّساء، وعدم التَّسرع بالطلاق لأتفه الأسباب، ولعلَّ الذي يعين على هذا الفهم، ربط النَّبيﷺ في مرضه الأخير بين بالنِّساء والصلاة في وصيته الأخيرة، بقولهﷺ: "الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ"[2].

ومع طول البحث والمراجعة، وجدت أنَّ الإمام الفراهي الهندي، قد أشار إلى هذا المعنى بقوله: "ثم انظر المناسبة في هذا المثال بين النِّكاح والصلاة من جهة الطهور، وفي سورة البقرة، من جهة التخفيف، حيث قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ.. فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾[البقرة: 238-239]، [فالحفظ][3] على النَّكاح واجب حتى الوسع، ثم فيه عند الطلاق بعض التخفيف في الأجر، فكذلك في الصلاة، فاعلم أنَّ لكل قران، منظراً كقران النُّجوم"[4].

رابعا: ربط الآيتين المعترضتين بمحور السورة الرئيس: يظهر بشكل واضح ارتباط هاتين الآيتين بموضوع السورة الرئيس، بما حملت من معنى واعتراض:

---

[1] المرجع السابق: 482/6.

[2] ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في ذكر مرض رسول اللهﷺ، برقم1625، 519/1، وقد صححه الحاكم وضياء الدين المقدسي، والألباني والأرنؤوط، انظر: هامش الكتاب المذكور، والحاكم: المستدرك على الصحيحين، 59/3، حاشية، أحمد: المسند، 209/19، وضياء الدين: المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، 35/7.

[3] هكذا وردت في الأصل، والمقصود [الحفاظ]، بمعنى المحافظة على الزواج وعدم التسرع في الطلاق.

[4] الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص:45.

- أمَّا من حيث المعنى؛ فلا يخفى على أحد دور الصلاة المركزي في بث الهداية في قلوب المؤمنين بما تنهاهم عن الفحشاء والمنكر؛ فتُصلح القلوب، ويزيل اللهﷻ بها الهموم والكروب، والكلام في ذلك كثير، إذ لا يخفى على مسلم عارف بالصلاة وفضلها، دورها المركزي في بثِّ الهداية والثبات على الاستقامة.
- وأمَّا من حيث الاعتراض؛ فكل المعاني التي أشار إليها المفسرون تدلُّ على أنَّ اعتراضها في هذا الموضع، لِما لها من أثر في تهذيب النفس، وهدايتها وقت الشدائد والمحن، فهي سبيل ضابط للمؤمن في كل حال وتحت أي ظرف، تزيد من هدايته، وتُبعده عن الضلال.

الموضع المعترض العاشر مع سياقه، قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: 243-246].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالقتال والجهاد في سبيله، وذكّرهم بأنه سميع لأقوالهم، عليم بنيّاتهم، ثم رغّبهم في الإنفاق، واعدًا لهم بأن يعود عليهم ذلك بأضعاف كثيرة من

الثواب والجزاء الحسن، فالأموال كلها من خزائن الله، وهو سبحانه يوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، وإليه المرجع والمآب[1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان معترضتين في سياق الحديث عن أحوال بني إسرائيل مع أمرِ اللهﷻ لهم بالقتال والجهاد، فقد سبقها الحديث عن حال القوم الذي خرجوا خوفاً من القتال، قال اللهﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [البقرة: 243]، ولحقها الحديث عن قوم آخرين من بني إسرائيل فصَّل الله أمرهم، قال اللهﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: 246]، واعترضت هاتان الآيتان السياق؛ وكأنَّهما مستقلتان عنه بتحوّل الخطاب لأمة محمدﷺ، وحضِّهم على القتال في سبيل الله، وترغيبهم بالنَّفقة، التي يضاعفها اللهﷻ لهم، ويُخلف عليهم بها خيراً. قال محمد دروزة: "الآيات فصل جديد، ومن المحتمل أن تكون نزلت بعد الآيات السابقة لها فوضعت في ترتيبها"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآيتين المعترضتين؛ في أنَّ الآية الأولى أمرت المؤمنين بالقتال ورغَّبت فيه، وجعل اللهﷻ لهذا الأمر معيناً بهذا السياق، إذ سبقه حديث عن قوم خرجوا من ديارهم وهم ألوف خوفاً من الموت، فلم ينفعهم هذا الحرص، ولم يدفع عنهم ما يخافون، قال الرازي: "أن هذا استئناف خطاب للحاضرين، يتضمن الأمر بالجهاد إلا أنه سبحانه بلطفه ورحمته قدم على الأمر بالقتال ذكر الذين خرجوا من ديارهم لئلا ينكص عن أمر الله بحب الحياة بسبب خوف الموت، وليعلم كل أحد أنه يترك القتال لا يثق بالسلامة من الموت"[3].

---

[1] نخبة من اهل التفسير: التفسير الميسر 1/ 39.

[2] دروزة: التفسير الحديث، 456/6.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 498/6.

وقد أوضح ابن عاشور أن الآيتين جاءتا استئنافًا لحثِّ المؤمنين على الجهاد، وتذكيرهم بأن الحذر لا يؤخّر الأجل، وأن الجبان قد يهلك في موضع يظنّه مأمنًا، وأن الحرص لا يزيد في عمر الإنسان ولا ينقص منه[1].

أمَّا الآيات التي بعدها فهي تصف قوما آخرين، وحالهم مختلف عن القوم الذين خافوا القتال وفروا منه، بل إنَّ هؤلاء القوم هم الذين طلبوا القتال، فقالوا لنبيهم: ﴿ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: 246]، ثم فصَّل الله في ذكر شأنهم، وأنَّ أكثرهم تنكَّر لطلبه لمَّا استجاب الله لهم، فحصل لهم جملة من الانتكاسات، وانقسموا عدة انقسامات، بعد أن كانوا أعداداً كبيرة:

القسم الأول: الذين تنكَّروا لطلبهم، وهم الأكثر، فتولوا عن القتال بعد أن فرضه الله عليهم، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: 246]، وهذا القسم يشبه الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من القتال؛ لأنَّ طلبهم للقتال لم يكن طلباً حقيقياً، فسرعان ما تراجعوا عنه، بمجرد أن أعلمهم نبيهم أنَّ اللهﷻ كتب عليهم القتال، وقبل أن يعرفوا مَلِكَهم الذي اختاره اللهﷻ لهم.

القسم الثاني: الذين تراجعوا عن القتال كبراً أو تعذُّراً؛ بأنَّ الملك لم يعجبهم، فلم يكن بالمواصفات المقررة في عقولهم؛ فكانت الأعذار واهية ولا تجوز في منطق العقلاء، ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ [البقرة: 247]، فهم جعلوا معيار قبولهم لهذا الملك الغنى وملك المال، وهذا المعيار، معيار مختلق، إذ لا يؤثر في شخصية القائد البتة، بل إنَّ الأنبياء كانوا من بسطاء النَّاس، قال رسول اللهﷺ: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ"[2].

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 475/2.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإجارة، بَابُ رَعْيِ الغَنَمِ عَلَى قَرَارِيطَ، برقم2262، 88/3.

القسم الثالث: هم الذين خرجوا للقتال، ولكنَّهم سقطوا في امتحان الصبر ليميز اللهﷻ الخبيث من الطيّب، فطلب منهم نبيهم ألَّا يشربوا من النَّهر مع حاجتهم له إلا غُرفة يسيرة باليد، فسقط أكثرهم في هذا الاختبار، ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 249].

القسم الرابع: هم الذين عبروا النَّهر، وكان عددهم مثل عدد أصحاب بدر من المسلمين، فعن البَرَاءِﷺ، قال: حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا: "أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ، بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَ مِائَةٍ، قَالَ البَرَاءُ:[1] لاَ وَاللَّهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ النَّهَرَ إِلَّا مُؤْمِنٌ"[2]، ومع أنَّ هذا القسم فتح الله عليهم، إلا أنَّهم لم يكونوا على درجة واحدة من اليقين والإيمان، فقد هال بعضهم كثرة أهل الباطل؛ فقالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ ﴾ [البقرة: 249]، وقال الصفوة المؤمنة الصابرة الذين يوقنون بلقاء اللهﷻ ووعده بالنَّصر لأوليائه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: 249].

فكان الاعتراض بين أربع صور قبيحة لا يجوز الاستهداء بها، صورة قبل الاعتراض وثلاث صور بعده، وصورة خامسة هي محل النَّظر والاعتبار، فكأنَّ الاعتراض يُخبر المؤمنين من أمة محمدﷺ أنَّ هذه النَّماذج أمامكم، فاستهدوا بأهل الحق واليقين، يفتح الله عليكم، ولا تستهدوا بأهل الجبن والخوف والشك والتردد، فينصر اللهﷻ دينه بغيركم، فلا تنالوا إلا الخسران في الدنيا، والعذاب في الآخرة، قال أبو حيان: "هذا خطاب لهذه الأمة بالجهاد في سبيل الله، وتقدمت تلك القصة .. تنبيهاً لهذه الأمة أن لا تفرّ من الموت كَفِرار أولئك، وتشجيعاً لها وتثبيتاً"[3].

---

[1] تأكيداً منه على هذا المعنى؛ لأنَّه قد يفهم من قوله تعالى: " ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: 249]، أن الذين اجتازوا النهر هم الذين شربوا والذين لم يشربوا، هذا الرأي ذكره بعض المفسرين، ورجحه الواحدي بقوله: ﴿هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ -يعني: الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى-: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ قال: يعني: القليل الذين اغترفوا، وهذا التفسير يرده قسم البراءﷺ، انظر: الواحدي: الوجيز، ص:180.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَابُ عِدَّةِ أَصْحَابِ بَدْرٍ، برقم 3957، 73/5.

[3] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 564/2.

والنَّفس بطبعها تهوى المقارنة وتنشط بالمنافسة، وما ساق اللهﷻ لنا قصص الأقوام السابقة إلا من أجل الخوف من عاقبة الهالكين، والطمع بمشابهة المؤمنين الفالحين، لذلك عقَّب اللهﷻ بعد أكثر القصص، بأنَّها ما ضُربت لنا إلا مثلاً لكي نتعظ بها، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۛ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49]، فكان الاعتراض يناسب تعقيب اللهﷻ على هذه القصة الموجه إلى نبيه محمدﷺ، بقولهﷻ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: 252].

أما الآية الثانية وموضوعها عن الإنفاق متصلة أيضاً بالسياق، فالإنفاق المطلوب، عمومه، والمخصوص منه الإنفاق في سبيل اللهﷻ، وإعلاء كلمته لدلالة السياق، والغاية من هذا الاعتراض هي الاستطراد في الحث على الإنفاق لوجه الله تعالى في سبل البر، لما تقتضيه مناسبة الآيات الداعية إلى القتال؛ إذ إن القتال يلزم معه إنفاق المقاتل على نفسه وعلى رفاقه من الجنود الذين قد لا يجدون عدةً أو مؤنةً، وكذلك الإنفاق على تجهيز الجيش وإعداده[1]. قال الطنطاوي: "ثم أمر الله تعالى عباده بأن ينفقوا أموالهم في الأعمال الصالحة التي من أعظمها الجهاد في سبيله، فقالﷻ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾"[2].

وكذلك يتفق الوعد بمضاعفة الأجور للمنفقين مع خاتمة القصة؛ وذلك بقول اللهﷻ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾ [البقرة: 251]، فهذا مثال قائم لأمة في بداية النَّهار كانت أمة ضعيفة مغلوبة على أمرها، فلمَّا أنفق الصادقون منهم من أموالهم،

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 481/2.

[2] الطنطاوي: التفسير الوسيط، 560/1.

وقاتلوا في سبيل اللهﷻ، فتح الله عليهم فكانوا في آخر النَّهار ملوكاً، وكأنَّ اللهﷻ يعرض لنا نموذجاً حياً من إخلافه على المنفقين، فهو قرض واجب الوفاء به من اللهﷻ تفضلاً به على خلقه.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: لا يخفى على مسلم أثر الجهاد في تهذيب النَّفس وهدايتها، فالجهاد فيه تعريض النَّفس للخطر، وهو مظنَّة الموت، ومن كان هذا حاله، حرص أشدَّ الحرص أن يلقى اللهﷻ بنفس طائعة، وقلب مخبت للهﷻ، راجياً رحمة ربه، وطامعاً بالمغفرة والرضوان، قال اللهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: 218]، ومن جانب آخر؛ فإنَّ هداية اللهﷻ قريبة من أهل البذل والجهاد، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: 69].

اما الآية الثانية فقد أمرت بالنَّفقة ورغّبت بها، ولا يخفى على أحد أثر بذل المال والنفقة في تهذيب النفس وهدايتها؛ فالمال شقيق الروح، قال الله تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾[النساء: 128]، فمن تخلَّص من شُحِّهِ، وبذل المال تحصَّل على الهداية في الدنيا، وأخلف اللهﷻ عليه في الآخرة، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[التوبة: 18].

وتزداد الهداية في النَّفس إذا اطَّلع المسلم على أحوال الأمم السابقة، فتكون هاتان الآيتان سبباً للهداية، والبعد عن الضلال بما حملتا من أفكار ومعانٍ، وسبباً للهداية في موضعهما في سياق الحديث عن الأقوام السابقة، فالاعتبار من أعظم أسباب الهداية لأولي الأبصار، قال اللهﷻ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي

فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[آل عمران: 13].

الموضع المعترض الحادي عشر مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ البقرة [267-270].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: بيَّنت هذه الآية قسمة اللهﷻ للحكمة بين عباده، ومن أُعطي الحكمة، فقد نال خيراً كثيراً، وهذه الحقيقة لا يعلمها إلا أصحاب العقول النيرة والمتفتِّحة.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، فالآية التي قبلها، قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [البقرة: 267]، ثم ورد التحذير من كيد الشيطان الصَّارف عن النفقة بما يوهن القلوب فيخوِّفهم بالفقر، ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾ [البقرة: 268] ثم يرغِّبهم مرة أخرى بالإنفاق بما يعدهم ويتفضل عليهم بمغفرة الذنوب والتفضل عليهم من واسع عطائه: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 268]. أما الآيات الواردة بعد هذه

الآية فكلها موضوعها عن النفقة والتي بعدها مباشرة، قول اللهﷻ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ [البقرة: 270]، فالسياق السابق واللاحق عن النفقة، قال البقاعي: "اتصل ذكر آية الحكمة بالإنفاق نظماً"[1]، وقال ابن عاشور: "هذه الجملة اعتراض"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: كشف المفسرون عن سبب اعتراض هذه الآية، وكلامهم في التوجيه يدور على ثلاثة أمور، وهي أنَّ الآية المعترضة:

1- دعوة وحضٌّ على الإنفاق في سبيل اللهﷻ؛ لأنَّ الحكيم يفهم الخطاب، فيمتثل لأمر الله تعالى، وفي ذلك حثٌّ على طاعته والقيام بما أمر به من الإنفاق، واجتناب ما نهى عنه من التصدق بالخبيث، وتحذير من الاغترار بوعد الشيطان وأمره، وثقة بوعد الله الصادق، وتنبيه إلى أن الحكمة هي العقل الذي يميّز به الإنسان بين الحق والباطل[3]. ولو كان الموجود لدى المرء المسلم قليلاً؛ فإنَّ صوت الحكمة يقتضي الاستجابة لأمر اللهﷻ.

فكان منتهى الحكمة هو الجود بما يملكه الإنسان، فبذلك -والله تعالى أعلم- اتصلت آية الحكمة بآيات الإنفاق من حيث النظم، وبآية الكرسي من حيث المناظرة[4]. ولما كان السياق قبلها وبعدها في الحديث عن الإنفاق، عُلم أن التقدير: فما جمعتم من شيء فإن الله سائلكم عن وجه وضعه وجمعه بحكمة، ومحاسبكم عليه، فعُطف على ذلك الحثُّ على الإسرار بالنفقة في وجوه الخير[5].

2- وصف لحال المُنفِقين؛ لأنَّهم لم يصلوا لتلك الحال من البذل والعطاء إلا بعد امتلاكهم للحكمة، قال ابن عاشور: "فالمقصود التنبيه إلى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيههم إلى أنَّهم قد أصبحوا به حكماء

---

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 97/4.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 60/3.

[3] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 686/2.

[4] قصد البقاعي بذلك مناظرة آية الكرسي في وقوعها بعد آية الإنفاق، فقد سبق آية الكرسي، قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: 254].

[5] انظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 97/4.

بعد أن كانوا في الجاهلية جهلاء"[1]. وفي ذلك ترجيحٌ لوعد الرحمن بالجزاء والخلف على وعد الشيطان الذي يخوّف الناس من الفقر فيبعث فيهم الحرص والشحّ والطمع؛ فوعْد الرحمن يقوم على الحكمة والعقل، أمّا وعد الشيطان فيقوم على الشهوة والحسّ، والحكمة عطية من الله تعالى، يمنحها لمن يشاء[2].

3- أنَّ الحكمة تقتضي ألا يكون الإنفاق إلا في سبيل الخير، فكما يحرص بعض النَّاس على الإنفاق في سبل الخير، يحرص آخرون على الإنفاق في سبيل الشر والضلال، وهذا لا يغيّر من أصل التسمية، قال اللهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ ﴾[الأنفال: 36]، وقد أشار لهذا المعنى البقاعي حيث قال: "فعطف عليه حثّاً على الإسرار بالنفقة في الخير والوفاء بالنذر، وتحذيراً من الإنفاق في المعصية"[3]. فتكون الآية المعترضة، وكأنَّها أمرٌ بالنَّفقة وترغيب بها من جهة، وتحذير من النفقة في المعصية من جهة أخرى؛ لأنَّ الإنسان بطبعه يحب أن يتصف بوصف الحكمة ورجاحة العقل، وطريق ذلك فهم كلام اللهﷻ والاستجابة لأمره، فالسخي الكريم: هو حكيم عليم بسنن ربه الذي وعده بالإخلاف عليه في الدنيا أضعافاً مضاعفة، ثم الأجر الوفير في الآخرة، وذلك من قول اللهﷻ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[البقرة: 245]، فيدفعه هذا العلم إلى المسارعة في الإنفاق وعدم الخوف من وعد الشيطان بالفقر، وهذا المعنى يدركه أصحاب العقول الراجحة، والقلوب العامرة بالإيمان.

ويبدو من هذا الاعتراض معنى آخر؛ وهو تأنيس الفقراء من المسلمين الذين لا يملكون مالاً، بأن يتعلموا العلم والحكمة، وينفقوا من العلم؛ فمن أُوتي العلم؛ فقد أُوتي خيراً كثيراً، يفوق الخير الذي أعطاه اللهﷻ

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 61/3.

[2] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 60/7، وقطب: في ظلال القرآن، 313/1.

[3] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 97/4.

لعبده المؤمن من مال وجاه وسلطان، فكم سطَّر التاريخ ذكر العلماء من الفقراء، ولم يسطِّر ذكر الأغنياء، ويشهد لهذا القول عدة شواهد من القرآن والسنة:

1- فأما القرآن، فقد وردت كلمة ﴿الحكمة﴾ في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، وكان من تلك المواضع، ما يتفق مع الآية المعترضة في اجتماع بين الحكمة والمال، أو الملك الدنيوي، منها:

أ- قول اللهﷻ: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: 53-54]، بيَّن اللهﷻ في هذا الموضع حرص اليهود على الملك المادي، وشحِّهم في النفقة على النَّاس، وبخلهم حتى منعوا عنهم قشرة نواة التمر[1]، في مقابل منَّة الله على سيدنا إبراهيمﷺ بما هو أفضل من ذلك: الكتاب والحكمة والملك العظيم، وقد بيَّن ابن الجوزي أنَّ الحكمة هنا، هي إما النُّبوة أو التفقه في الدين[2]. فكان عطاء اللهﷻ، الحكمة لسيدنا إبراهيمﷺ ولبنيه من بعده، أفضل من الملك المادي الذي حرص عليه بنو إسرائيل أشدَّ الحرص، وهذا يبين ارتباط الحكمة بالعلم والتفقه في الدين.

ب-قول اللهﷻ في معرض إظهار منَّته على نبيه داودﷺ: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾ [البقرة: 25][3]، فالله أعطى داوودﷺ الملك بمعنى الجاه والمال والسلطان، والحكمة بمعنى الفقه في الدين وزيادة في العلم، قال الواحدي: " وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أي: جمع له المُلْك والنُّبوة"[4].

---

[1] انظر: الواحدي: التفسير الوسيط، 65/2.

[2] انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 421/1.

[3] ومثلها أيضا، قول اللهﷻ: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ [ص:20].

[4] الواحدي: التفسير الوسيط، 340/4.

ج- يشهد لذلك أيضا تفسير كلمة الحكمة الواردة في الآية المعترضة؛ فقد ذكر أهل التفسير عدة معان للحكمة، وهي: (القرآن والفقه به، الإصابة في القول والفعل، العلم بالدين، الفهم، النبوة)[1]، وقد بيَّن الطبري أنَّها مأخوذة من "الحكم" وفصل القضاء، وأنَّها الإصابة، بما دل على صحته، وبذلك رجَّح أن يكون معنى الحكمة: الإصابة في القول والفعل، حيث قال: "فتأويل الكلام: يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيراً كثيراً"[2].

والمتأمل في سياق ورود كلمة (الحكمة) في القرآن الكريم، يظهر أنَّها إمَّا تُنسب للأنبياءﷺ؛ فيكون معناها النُّبوة والرسالة، وإمَّا تُنسب إلى الخلق؛ فيكون معناها العلم والفقه في الدين، قال ابن كثير: "والصحيح أنَّ الحكمة -كما قاله الجمهور- لا تختص بالنُّبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع"[3]، وهذا ظاهر لأنَّ بعض السياقات الواردة فيها كلمة الحكمة لا يمكن أن تُفَسَّير بالنُّبوة والرسالة، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2][4]، فلا يمكن أن يعلِّم النَّبي قومه النَّبوة، وإنَّما يعلمهم الفقه في الدين. لذلك فإنَّ معنى الحكمة الوارد ذكرها في الآية المعترضة، العلم والفقه في الدين والإصابة في القول والفعل، وهذا العالم الذي آتاه اللهﷻ علماً يعلِّمه للنَّاس، أفضل حالاً من الذي آتاه مالاً ينفق به، وهذا المعنى الدقيق جداً، لا يعقله إلا أصحاب العقول النَّيرة.

2- أما الأحاديث؛ فيشهد لذلك جملة من الأحاديث التي قرنت بين العلم والإنفاق، ومنها:

---

[1] انظر: الطبري: جامع البيان، 576/5-579، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 242/1، وقد ذكر أحد عشر قولا في تفسير الحكمة.

[2] الطبري: جامع البيان، 579/5.

[3] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 701/1.

[4] ومثلها قول اللهﷻ:

- ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة [129].
- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: 12] ، ولقمان ليس نبياً، فلا يمكن أن يكون تفسير الحكمة هنا النبوة والرسالة.

أ- قال رسول اللهﷺ: "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[1]، وهذا الحديث يتفق تماماً مع الآية المعترضة، فمن أبرز معاني الحكمة: العلم، والأنبياء لم يورثوا المال، وانَّما ورثوا العلم، وعبارة: (من أخذه أخذ بحظ وافر)، تتفق مع قول اللهﷻ: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ب-قال رسول اللهﷺ: "لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"[2]، وهذا أوضح في الدلالة، على المعنى المذكور، وفيه دلالة واضحة أنَّ الحكمة هي العلم، واشتمل الحديث على كلمة الحكمة، الواردة في الآية، والنفقة الواردة في سياق الآية، وهذا يشهد بشكل ظاهر، أنَّ الآية تأنيس للفقير كيلا يحزن؛ إذ بإمكانه أن ينفق من علمه بدل نفقة المال، فهي أفضل وأثمن.

وفي الحديثين دلالة على المعنى المذكور- أنَّ الحكمة أثمن من المال- وبإمكان كل مريد مجتهد تحصيل العلم النافع، وتعليم النَّاس به، وبذلك يكون قد أوتي خيراً كثيراً، وهذا المعنى يشهد له أيضاً قول النَّبيﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وَعَلَّمَهُ"[3]، والقرآن الكريم أعظم العلوم وأشرفها.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط الآية بمحور السورة الرئيس بشكل ظاهر، باعتراضها، وبما تحمله الآية من معان، وأبرز هذه المعاني معرفة معنى الحكمة، ومن أبرز معاني الحكمة: الإصابة في القول والفعل، وهذا هو لب الهداية، إذ إنَّ الحساب يوم القيامة على ما يعمل الإنسان، لا بما يعلم[4]، قال اللهﷻ: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

[1] ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب الايمان وفضائل الصحابة والعلم، بَابُ فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، برقم 223، 81/1، أبو داوود: سنن أبي داود، كتاب العلم، بَابُ الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، برقم 3641، 317/3، والترمذي: سنن الترمذي، أبواب العلم، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الفِقْهِ عَلَى العِبَادَةِ، برقم 2682، 346/4، وقد صححه الزيلعي، والألباني، أنظر: الزيلعي: تخريج أحاديث الكشاف، 9/3، والألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، 1079/2.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضل العلم، بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ، برقم 73، 25/1، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ، وَيُعَلِّمُهُ، وَفَضْلِ مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً مِنْ فِقْهٍ، أَوْ غَيْرِهِ فَعَمِلَ بِهَا وَعَلَّمَهَا، برقم 816، 559/1.

[3] البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، بَابٌ: خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمه، برقم5027، 192/6.

[4] ورد في القرآن الكريم المقطع (بما تعملون)، إحدى وأربعين مرة، أما (بما تعلمون)، فلم يرد إلا مرة واحدة، والعلم فيها منسوب للبشر، وليس للهﷻ.

تَعۡمَلُونَ ﴾[الجاثية: 28]. وكم من عالم لا يعمل بعلمه؟! نسأل الله السلامة والعافية. أما الاعتراض، فهو حاضٌّ على النَّفقة من جهة، وحاضٌّ على بثِّ العلم من جهة أخرى، ولن يفعل ذلك إلا من عمَّر قلبه بالهداية وابتعد عن الضلال.

الموضع المعترض الثاني عشر مع سياقه: قول اللهﷻ: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: 276-278].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: آية أكَّد اللهﷻ بها الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، لتُقرر الجزاء العظيم الذي يستحقونه، فلا يخافون يوم القيامة، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وقعت هذه الآية معترضة في سياق الحديث عن الربا، والاعتراض في هذه الآية واضح وبارز، لدرجة أنَّ الذي يحفظ هذا الموضع من القرآن الكريم، ربما في كثير من الأحيان ينسى هذه الآية، لشدة اتصال ما قبلها بما بعدها، قال ابن عاشور، مثبتاً اعتراض هذه الآية: "جملة معترضة لمقابلة الذم بالمدح"[1].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر للمتأمل قوة ارتباط هذه الآية بسياقها من خلال عادة القرآن الكريم في مقابلة المدح بالذم، والوعد بالوعيد، قال الرازي: " اعلم أنَّ عادة الله في القرآن مطردة؛ بأنَّه تعالى مهما ذكر وعيداً، ذكر بعده وعداً؛ فلمَّا بالغ هاهنا في وعيد المرابي، أتبعه بهذا الوعد"[2].

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 93/3.

[2] الرازي: مفاتيح الغيب، 81/7.

وقد أكَّد ابن عاشور هذا المعنى بقوله: "جملة معترضة لمقابلة الذم بالمدح، والمقصود التعريض؛ بأنَّ الصفات المقابلة لهاته الصفات صفة غير المؤمنين"[1]، كما أشار إلى أمر مهم بعد نقله للنَّص السابق، بقوله: " والمناسبة تزداد ظهورا لقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾"[2]، وهذا يعني أنَّ مركز ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها، هو موضوع الزكاة، فعند تأمل النَّص القرآني يظهر ذلك بشكل واضح؛ فقد ورد قبل هذه الآية قول اللهﷻ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[البقرة: 276]، والصدقات تشمل صدقة التطوع والزكاة المفروضة، وبذلك ترتبط الآية بما قبلها بهذا الموضع بالتحديد، وترتبط أيضا، بالموضوع القرآني السابق لموضوع الربا، لورود عدة آيات متتالية تحضّ على النفقة، وتبيّن بعض أحكامها. قال سيد قطب: "ويجعل ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قاعدة هذا النَّظام، في مقابل نظام الجاهلية الذي يقوم على القاعدة الربوية"[3].

وتتصل هذه الآية أيضاً بما بعدها في موضوع الزكاة والنفقة، بقول اللهﷻ، بعد الآية المعترضة بآتين: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 280]، وبذلك يظهر أنَّ الزكاة والنَّفقة في الآية المعترضة هما محور ارتباطها بما قبلها وما بعدها. وبذلك يكون السياق مترابطاً بذكر الشيء وضده، ومن الفوائد اللغوية أن الربا والزكاة يشتركان في الدلالة على الزيادة عن الأصل[4]، لكن الفرق في المعنى بائن وشاسع، وتظهر هذه المقابلة بشكل واضح جدا، في قول اللهﷻ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: 39]، فالربا جرم محرم توعَّد اللهﷻ فاعله بالمحق وذهاب البركة، أما الزكاة فهي

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 93/3.

[2] المرجع السابق: 93/3.

[3] قطب: في ظلال القرآن، 329/1.

[4] الربا: هو في اللغة الزيادة، والزكاء وَهُوَ النَّمَاء وَالزِّيَادَة، انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث، 184/1، الهروي تهذيب اللغة، 200/5. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 71/3.

نماء وطهر وزيادة، فبالمقابلة بين الربا المحرم، والزكاة الواجبة يظهر قبح الربا أكثر، فيكون النُّفور منه أشد.

ويظهر أثر هذه المقابلة في الوعد والوعيد المترتب على كل منهما فاللهﷻ أغلظ في الوعيد على فاعل الربا، فوصفه ابتداءً كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ، وحكم اللهﷻ على فاعل الربا غير التائب بالنَّار والخلود فيها، ثم وعده بالمحق، قبل الآية المعترضة، وبالحرق بعدها، وناسب هذا الوعيد الشديد، وعد اللهﷻ عباده المؤمنين بالأجر والأمان، قال سيد قطب: "﴿ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، في الوقت الذي يوعد أكلة الربا، والمجتمع الربوي بالمحق والسحق، وبالتخبط والضلال، وبالقلق والخوف"[1].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط هذه الآية المعترضة بمحور السورة بوجه قوي؛ وذلك أنَّ أعلى درجات الهداية: الإيمان والعمل الصالح، وبذل المال على ما أمر اللهﷻ به، مع ما جُبلت عليه النَّفس من حب المال والشح في إنفاقه، قال اللهﷻ: ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾[النساء: 128]، ويتأكد هذا المعنى بموقع الآية معترضة وسط آيات الربا، وكأنَّ الاعتراض فيه دلالة أنَّه رغم قساوة الواقع الذي يعيشه الإنسان، وانكباب النَّاس على الربا، والمعاملات المحرمة، والبعد عن الإيمان والعمل الصالح، وتقصير النَّاس في الصلاة، إلا أنَّ هنالك ثلة مؤمنة ثابتة صابرة، طامعة في الأجر والثواب لا يضرها عصيان النَّاس، ولا يغيرها زخرف الباطل؛ ولذلك استحقت هذه الفئة المهتدية البعيدة عن الضلال، وعد اللهﷻ بأن: ﴿ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: 277].

[1] قطب: في ظلال القرآن، 329/1.

الموضع المعترض الثالث عشر والأخير مع سياقه، قول اللهﷻ: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ .. ﴾ [البقرة: 279-282].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: أمر اللهﷻ عبادة المؤمنين بتقوى اليوم الذي يرجع فيه الإنسان إلى ربه، حتى يوافيه بما عمل، سواء أكان عمله خيراً أم شراً، دون ظلم أو محاباة لأحد، وهذه الآية آخر ما نزل من القرآن على الراجح من أقوال أهل العلم[1]. والآية وصية اللهﷻ لخلقه، وأهم الكلام آخره، فكيف إذا كان آخر الكلام كلام الله جل في علاه، المُنزَّل على نبينا محمدﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فهي خلاصة الرسائل السماوية وهي وصية ثمينة، وكنز عظيم من كنوز القرآن، حريٌّ بكل مسلم أن يجعل هذه الآية نصب عينيه، ومبتغاه من هذه الحياة الدنيا، ليعبر الآخرة بخير زاد يُصرف يوم الميعاد، قال اللهﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: 197].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: يظهر اعتراض هذه الآية بوضوح؛ إذ وردت في سياق المعاملات المالية، فقبلها الحديث عن الربا، وبعدها آية الدَّين . أطول آية في القرآن الكريم . وقد اعترض هذا السياقَ ذكرُ آيةٍ تذكّر بتقوى الله واليوم الآخر، في موضوع لا يتّصل اتصالًا مباشرًا بما قبله ولا بما بعده، قال ابن عاشور: "جيء بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تذييلاً لهاته الأحكام"[2]، ولعلّ ابن عاشور قصد بلفظ التذييل معنى الاعتراض؛ إذ إنّ ابن عاشور جمع بين وصفي التذييل والاعتراض في مواضع عدّة، منها:

[1] قاله ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن جبير، وعطية، ومقاتل، يُنظر: الطبري: جامع البيان، 40/6، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 249/1.
[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 97/3.

1- " ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ يَعۡلَمُونَ ﴾ جملة معترضة تذييلا لما قبلها. والواو اعتراضية"[1].

2- "ويجوز أن تكون تذييلا معترضا بين القصتين وتكون الواو اعتراضية"[2].

3- "﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يجوز أن تكون تذييلا أو اعتراضا في آخر الكلام"[3].

وهذا لا يخرج عمّا تقرّر في الفصل السابق من أنّ التذييل والاعتراض قد يجتمعان في بعض المواضع، ولذلك فإنّ هذه الآية تُعَدّ اعتراضًا واقعًا بين آيات الربا وآية الدَّين، بشكلٍ واضح لكلّ من تدبّرها.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: شابهت هذه الآية في اعتراضها، اعتراض الآية السابقة، وسط آيات الربا، فشابهتها في سبب اعتراضها أيضاً، وذلك أنَّ الحديث قد سبقها عن أحكام الربا، وقد كان الربا متجذراً عند العرب في الجاهلية، فلمَّا نزل تحريم الربا المحبب إلى النُّفوس، خُشي أن لا يستجب بعض المؤمنين لهذا الأمر؛ فوردت هذه الآية تذكيراً حانياً من اللهﷻ، وحضَّاً منه على الاستجابة لأمرهﷻ، وهذا المعنى قرره أكثر المفسرين الذين، كشفوا عن سبب اعتراض هذه الآية، وقد أوضح الرازي أن هذه الآية نزلت في العظماء الذين كانوا يتعاملون بالربا، وكانوا أصحاب مالٍ وجاهٍ وأعوانٍ وأنصار، يغلبون الناس بثروتهم وسلطانهم، فاقتضى المقام أن يُوجَّه إليهم زجرٌ ووعيدٌ شديد، ليرتدعوا عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل، لذلك خوَّفهم الله تعالى في هذه الآية بأعظم ألوان التخويف والتهديد[4]، وقال ابن عاشور: "جيء بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ تذييلاً لهاته الأحكام؛ لأنَّه صالح للترهيب من ارتكاب ما نهي عنه، والترغيب في فعل ما أمر به أو ندب إليه"[5].

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 7/ 421.
[2] المرجع السابق: 9/ 107.
[3] المرجع السابق: 30/ 167.
[4] انظر الرازي: مفاتيح الغيب، 87/7.
[5] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 97/3.

ويمكن الكشف عن روابط أخرى بين هذه الآية المعترضة وسياقها، ومن ذلك:

1- ربط الآية بما بعدها، فالدَّيْن أيضا، مما قد يجحده النَّاس، أو يحرِّفه عن زمنه ومقداره، فكما ذكَّر اللهﷻ من ارتكب الربا أو همَّ به، وخوَّفه بهذه الآية؛ فإنَّه ذكَّر كل من تسوِّل له نفسه الاعتداء على مال الآخرين، بتأخير الدَّيْن عن وقته، أو جحده بالكلية، بهذه الآية الكريمة، وأنَّ جزاء الاعمال عند اللهﷻ فلا يُظلم عنده أحد.

2- ترتبط هذه الآية بسياقها بما أمر الله به المؤمنين بتقواه جل في علاه، بما قبلها وبعدها، فأمَّا ما ورد قبلها، فقول اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278]، وأمَّا ما ورد بعدها، فقول االلهﷻ: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282]. وهنالك ارتباط بين النَّهي عن الربا، والتذكير بتقوى اللهﷻ في موضع آخر من القرآن الكريم، وذلك في قول اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130]، وهذا المعنى أشار إليه سيد قطب إشارة سريعة دون توضيح، بقوله: "وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات، جو الأخذ والعطاء، جو الكسب والجزاء"[1].

3- ناسب ذكر الكسب في هذه الآية، وليس العمل؛ لأن من أخصِّ معاني الكسب: طلب الرزق[2]، قال اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة: 267]، وطلب الرزق، قد يكون من حلال، وقد يكون من حرام، فكأنَّ الآية

[1] قطب: في ظلال القرآن، 333/1.

[2] انظر: الفراهيدي: العين، 315/5، ابن منظور: لسان العرب، 716/1.

المعترضة، بتذكيرها باللهﷻ، واليوم الآخر، رغَّبت بالكسب الحلال الطيب، وحذَّرت من الكسب الحرام، وأقبح المعاملات المالية، وأشدها خطراً الربا الوارد في السياق السابق.

4- تشترك هذه الآية المعترضة مع الآيات السابقة؛ أنَّه قيل فيهما، إنهما آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد روى البخاري ما يأتي:

- عن ابن عباسﷺ قال: "آخر آية نزلت على النَّبيﷺ آية الربا"[1].
- وأخرج البخاري تعليقاً، عن ابن عباس أيضا: أن آية ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾، هي آخر ما نزل[2].

وقد أزال أهل العلم هذا الإشكال من عدة وجوه، منها:

أ- أنَّ المراد من هذا؛ أنَّ آخر ما نزل من الآيات في البيوع آية الربا، أمَّا آخر ما نزل على الإطلاق فهو آية: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾[3].

ب- أنها مِن آخر ما نزل، لأنَّ الجمهور قالوا: آخر آية نزلت: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، فقيل: قبل موته بتسع ليال، ثم لم ينزل شيء[4].

ج- ويحتمل أنَّ المقطع القرآني من آيات الربا وآية، ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ نزل دفعة واحدة، ويشهد لهذا تبويب البخاري في كتابه، "بَاب: مُوكِلِ الرِّبَا، لقوله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ

---

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَاب: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}، برقم4270، 1652/4.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب البيوع، بَابُ مُوكِلِ الرِّبَا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ، 59/3.

[3] الألوسي: روح المعاني، 54/2.

[4] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 719/2.

فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 278-281]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيﷺ"[1].

فإيراد قول ابن عباس مباشرة بعد هذا المقطع من سورة البقرة، يدل على أنَّ ابن عباس قد جمع في تعيين آخر ما نزل، آيات الربا، وآية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾، وهذا يُظهر الارتباط بين هذه الآية مع سابقها، وعلى التوجيه الأخير فهو مقطع واحد، نزل جملة واحدة، وفيه فائدة تذكير النَّاس بالله، واليوم الآخر، وسط هذه الأوامر والنَّواهي المالية، فتكون الآية موعظةً من الله لعباده، يذكِّرهم فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وسائر المتاع، وبمجيء الآخرة والرجوع إليه سبحانه، ليحاسب خلقه على أعمالهم، ويجازيهم بما اكتسبوا من خير أو شر، محذِّرًا لهم من عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: أمَّا ارتباط هذه الآية المعترضة بمحور السورة فظاهر، فهي تذكير باللهﷻ واليوم الآخر، وما فيه من جزاء اللهﷻ للعباد على أعمالهم، يدفع العبد إلى الاستقامة في حياته ومراقبة قلبه، فالكسب ورد في القرآن الكريم بما يخص القلب، قال اللهﷻ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[البقرة: 225]. وكذلك اعتراضها فيه معنى الهداية، فمن حافظ على معاملاته المالية، تخفف من حقوق النَّاس، والكسب يؤثر على القلب إيجاباً

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب موكل الربا، 734/2.

[2] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 720/1.

وسلباً، قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[المؤمنون: 51].

وَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: 172]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"[1].

المطلب الثاني: الآيات المعترضة في سورة آل عمران

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة آل عمران سورة مدنية[2]، عدد آياتها مئتان، وهي الثالثة في ترتيب المصحف الشريف، وقد نزلت تعقيبًا على أحداث معركة أُحد، وما جرى بعدها من معركة حمراء الأسد[3]، وهي سورة عظيمة الفضل[4]، قال رسول اللهﷺ: "يُؤْتَى بِالقرآن يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآل عمران"[5].

الفرع الثاني محور السورة الرئيس: هو دعوة المؤمنين إلى التوحيد والثبات[6]، وهذا المقصد ينسجم مع مقصد سورة البقرة الذي يدعو للهداية، فجاءت سورة آل عمران مؤكدة على التوحيد والثبات عليه، خاصَّة لمن يتلوها في أوقات المحن والفتن والحروب والأزمات، وهذا المعنى يتذوَّقه كل من تدبر هذه السورة الكريمة.

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا، برقم1015، 703/2.

[2] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 41/1.

[3] الطبري: جامع البيان، 410/7.

[4] وهي تشترك مع سورة البقرة في كثير من الفضائل وقد ذكرت هذه الفضائل بداية المطلب السابق.

[5] مسلم: صحيح مسلم، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، برقم805، 554/1.

[6] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 67/2، خليل: أول مرة اتدبر القرآن، ص:37، العلواني: تدبر الزهراوين سورة آل عمران، ص:3.

الفرع الثالث الآيات المعترضة؛ تبيَّن بعد التتبع أنَّها تقع في ثلاثة مواضع، وهي على النحو الآتي:

الموضع المعترض الأول مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[آل عمران: 1-3]،

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: أخبر الله تعالى الخلق عن ذاته العلية بأنه لا إله بحق سواه، وأنه الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا يغفل ولا ينام، وهذه دعوة التوحيد التي أرسل اللهﷻ بها الرسل ونصب من أجلها الميزان، وخلق الجنَّة والنَّار، وافترق الخلق عليها مؤمن موحد سعيد، وكافر شقي تعيس.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: لا يظهر اعتراض هذه الآية بشكل جلي، ولكن عند النَّظر في بداية السور المقطَّعة وهي تسع وعشرون سورة، يظهر أن خمساً وعشرين سورة منها يتبع الحروف المقطَّعة ذكر القرآن الكريم أو آياته أو ما يدل عليه، وهنالك ثلاث سور لا يرد فيها أي ذكر للقرآن الكريم، وهي:

1- سورة مريم: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: 1-2].

2- سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ.. ﴾ [العنكبوت: 1-2].

3- سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [الروم: 1-2].

وقد تميَّزت سورة آل عمران، في فاتحتها، فكانت بدايتها: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [آل عمران: 1-3]، فلم تشابه السور الثلاث التي لم تذكر القرآن الكريم وآياته في بداياتها، كما أنَّها لم تشابه باقي السور التي ورد فيها ذكر القرآن وآياته مباشرة بعد الحروف المقطَّعة؛ فكانت سورة فريدة من بين السور التي تبدأ بالحروف المقطَّعة، حيث فصل بين الحروف المقطعة وذكر القرآن الكريم فاصل، وهو قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ

ٱلْقَيُّومُ ﴾، فكانت هذه الآية بمثابة اعتراض بين ذكر الحروف المقطَّعة، وذكر القرآن الكريم في الآية الثالثة.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: لعل الذي يفسر اعتراض هذه الآية على غير عادة القرآن الكريم في السور المقطَّعة هو سبب نزولها؛ فقد أورد جمهور المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت في وفد نجران الذين قدموا إلى النَّبيﷺ يجادلونه في أمر نبي الله عيسىعليه السلام: فقالوا: إن لم يكن عيسى ابن الله فمن أبوه، فنزلت فيهم صدر (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها[1]. وقد ورد أيضا أنَّ النَّبيﷺ طالبهم بالمباهلة[2]، وهذا ثابت في صحيح البخاري دون ذكرٍ لسبب النزول، أن العاقب والسيد، وهما من نصارى نجران، قدما على رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنّا لا نُفلح نحن ولا نسلنا من بعدنا. ثم قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث إلا أمينًا. فقال النبي ﷺ: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين. فتطلع الصحابة لذلك، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال النبي ﷺ: هذا أمين هذه الأمة[3].

والمباهلة ثابتة فيما أخرجه مسلم، عن سعد بن أبي وَقَّاصٍرضي الله عنه، وهو يذكر فضائل عليرضي الله عنه، وذكر منها: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ [آل عمران: 61]، دَعَا رَسُولُ اللهِﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي"[4].

وقد أحسن الرازي وأبدع في إبراز هذا المعنى، مبيّنًا أن نظم الآية يتضمَّن دلالة عقلية ونقلية على صدق النبي محمد ﷺ؛ إذ أوضح أن النصارى الذين جادلوا رسول الله ﷺ يُقال لهم احتجاجًا: إن كان خلافكم معه في معرفة الإله، فأنتم تدّعون أن له ولدًا، بينما محمد ﷺ ينزهه عن ذلك، والحق بلا ريب معه، إذ

---

[1] انظر: ابن أبي حاتم: تفسيره، 585/2، والطبري: جامع البيان، 154/6، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 257/1.

[2] وآية المباهلة هي قول اللهﷻ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61].

[3] انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، برقم4380، 172/5.

[4] مسلم: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابةرضي الله عنهم، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍرضي الله عنه، برقم2404، 1871/4.

ثبت بالعقل والبرهان أن الله حيٌّ قيوم، والحي القيوم يستحيل أن يكون له ولد. وإن كان خلافكم في النبوة، فذلك باطل أيضًا، لأن الطريق الذي عُلم به أن الله أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام، هو نفسه الطريق القائم في شأن محمد ﷺ، وهو طريق المعجزة الدالة على صدقه، وهي متحققة فيه، فكيف يصح إنكار نبوته؟ فذلك هو وجه النظم، وهو وجهٌ دقيقٌ بديعٌ غاية في الإحكام[1].

ثم فصَّل الرازي الكلام في مبحثين مستقلين في الرد على النَّصارى: المبحث الأول: مبحث الإلَهِيّاتِ، يمثله قول اللهﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، والمبحث الثاني: مبحث النُّبُوَّةِ يمثله، قول اللهﷻ: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [2].

فكانت الآية المعترضة بمثابة مقدمة، ودليل على الآية الثانية، وسبب نزولها مرتبط أيضاً، بقول الله: ﴿مُصَدِّقَا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾[آل عمران: 3]، أي هو خطاب للنَّصارى، أنَّ الله الواحد الأحد الحي القيوم، الذي نزَّل عليكم الكتب وأرسل عليكم الرسل، هو الذي نزَّل الكتاب على نبيه محمدﷺ، فهي بموقعها دعوة ظاهرة وترغيب بالإيمان بالنَّبي محمدﷺ، وكان من هدي القرآن في الفترة الأولى من العهد المدني دعوة أهل الكتاب بالمحاججة والترغيب، وهذا يظهر من تكرار قول اللهﷻ: ﴿يا أهل الكتاب﴾ في ست آيات من سورة آل عمران [3]، بخلاف الفترة الأخيرة من الفترة المدنية[4] التي كان الخطاب فيها، فيه زجر وتقريع وتخويف، ولا أدلّ على ذلك من آيات سورة المائدة في آيتين، قال اللهﷻ فيهما: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾[المائدة: 17]،

---

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 129/7.

[2] الرازي: مفاتيح الغيب، 129/7.

[3] ومعلوم أن سورة آل عمران نزلت تعليقاً على غزوة أحد، والمتتبع لهذه الآيات أي في بداية الفترة المدنية، يظهر له بشكل جلي اللين والتودد لأهل الكتاب في دعوتهم إلى الايمان بالله وبنبوة نبينا محمدﷺ.

[4] وسورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن الكريم، ولا أدلّ على ذلك من الحديث الذي أخرجه البخاري: "أن أناسا، من اليهود قالوا: لو نزلت هذه الآية فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، فقال عمر: أية آية؟ فقالوا: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي..﴾ [المائدة: 3]. فقال عمر: إني لأعلم أي مكان أنزلت أنزلت، ورسول اللهﷺ واقف بعرفة"، انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، برقم4407، 177/5.

والثالثة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة: 73].

أما ارتباط الآية بما قبلها، فيمكن ربط ذلك بسورة البقرة، فسورة آل عمران ترتبط بسورة البقرة بروابط كثيرة[1]؛ قال رسول اللهﷺ: "اقْرَءُوا القرآن فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آل عمران، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَا"[2]، من ضمن الروابط كذلك أنَّ قول اللهﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: 2]، يرتبط بشكل واضح بآية الكرسي من سورة البقرة، قال ابن الزبير الغرناطي: "سورة آل عمران، اتصالها بسورة البقرة والله أعلم من جهات: إحداها ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضُمِّن في سورة البقرة بأسرها"[3].

ويظهر أيضاً ارتباط هذه الآية بسورة البقرة، من قول رسول اللهﷺ: " اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 163]، وَفَاتِحَةِ آل عمران، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[آل عمران: 2]"[4].

وبذلك تكون هذه الآية التي ظاهرها الاعتراض مرتبطةً بما قبلها من آيات سورة البقرة، ومرتبطةً كذلك بما بعدها، وقد أفادت باعتراضها معانيَ جليلةً ومتعدّدة، على النحو الذي تقدّم ذكره.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية بمحور سورة آل عمران الداعي للتوحيد والثبات؛ وذلك أنَّ الآية تقرر معنى التوحيد والإيمان في معرض جدال أهل الكتاب، وهذا يُعطي المؤمن قوة وثقة في دينه من جهة، وبراءة من الشرك والكفر الذي وقع فيه أهل الكتاب من جهة أخرى، وهذا المعنى من

[1] قال السيوطي: "اتصالها بسورة البقرة والله أعلم من جهات..."، ثم شرع في بيان ذلك، ينظر: السيوطي: البرهان في تناسب سور القرآن، ص:195.

[2] مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَاب فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، برقم804، 553/1.

[3] ابن الزبير: البرهان في تناسب سور القرآن، ص:195.

[4] أبو داود: سنن أبي داود، بَابُ تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الْوِتْرِ، باب الدعاء، برقم1496، 80/2، والترمذي: سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب، برقم3478، 517/5، صحيح، قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وحسنه الألباني، انظر: الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، 229/1.

أقوى ما يثبت العبد المؤمن، قال ابن عاشور: "﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، جملة معترضة أو حالية، رداً على المشركين، وعلى النَّصارى خاصة، وأتبع بالوصفين، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها"[1].

الموضع المعترض الثاني مع سياقه، قولﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢ * كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ ﴾ [آل عمران: 91-93].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذا خطاب من اللهﷻ موجه للصحابةﷺ، ولعموم أمَّة محمدﷺ؛ أنَّهم لن ينالوا ثواب أهل البر ومنزلتهم في الجنَّة، حتى ينفقوا ممَّا يحبون من أموالهم، والله أعلمهم بأنَّ ما ينفقونه سواء كان قليلاً أم كثيراً؛ فإنَّ الله يعلمه، ويعلم نيَّة هذا المنفق على أي أساس كانت.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: أمَّا وجه اعتراض هذه الآية فظاهر؛ إذ إنَّ سياق الآيات، الحديث عن أهل الكتاب، ثم الالتفات إلى خطاب النَّبيﷺ وأمَّته بحضِّهم على النَّفقة، ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى أهل الكتاب، قال ابن عاشور: "﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ ﴾، استئناف وقع معترضاً بين جملة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾، وبين جملة: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾"[2].

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 147/3.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 5/4.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآية بسياقها من وجوه، وهي:

1- أسلوب المقابلة؛ فقد سبق الآية المعترضة، قول اللهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران: 91]، والافتداء من نار الآخرة لا يكون إلا في الدنيا؛ لأنَّ الأعمال تغلق عند الموت، فإنفاق الكافرين في الحياة الدنيا لا يُغني عنهم من عذاب اللهﷻ في الآخرة، وناسب ذلك: المقابلة بحال المؤمنين الذي يستجيبون للهﷻ، استجابة الإيمان أولاً، واستجابة النَّفقة ثانياً، وقد أوضح أبو حيان هذا التقابل، وجعله وجهَ التناسب بين هذه الآية المعترضة وما قبلها، إذ لما بيّن الله حال من مات كافرًا وأنه لا يُقبل منه ما أنفقه في دنياه، ولا ما قدّمه لتخليص نفسه في الآخرة، حثّ المؤمنين على الصدقة، وبيّن أنهم لا ينالون البرّ إلا إذا أنفقوا مما يحبون[1].

وقد بيَّن ابن عاشور كذلك أنَّ موقع هذه الآية، بعد إخباره أنَّه لن يُتقبَّل من الكافرين أظلمُ ما يُنفقونه، هو بيانٌ لما ينفع أهل الإيمان من بذل أطيب المال، وبين الطرفين درجات كثيرة يدركها الفطناء من هذه المقابلة[2]. وهذه المقابلة تزيد الحقَّ وضوحًا، والباطلَ شناعةً، فلا تبقى لأحدٍ عند الله حُجَّة.

فالآية باعتراضها حضَّت على الإخلاص في النفقة؛ وذلك أنَّ الإنسان لن يستغني عمَّا يحب إلا إذا أخلص للهﷻ؛ وبذلك يكون كأنَّه أنفق كل ما في الدنيا، وهذا ما لم ينفع الذين كفروا الوارد ذكرهم في الآية السابقة، فالإنسان لا ينفق ما يحب إلا إذا أدرك أن في بذله لمحبوبه نيلَ محبوبٍ أسمى منه، وعلى هذا فلا يستطيع أن ينفق من دنياه إلا إذا أيقن أن فيما يبذله منها سعادةً أبدية في الآخرة[3].

2- التشويق والحض على النَّفقة، قال البقاعي: "من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنقاذ مما يلحقه من الشدائد، لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر، فتشوَّفت النَّفس إلى الوقت الذي يفيد فيه الإنفاق وأي

[1] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 260/3.
[2] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 5/4.
[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 288/8.

وجوهه أنفع، فأرشد إلى ذلك، وإلى أنَّ الأحب منه أجدر بالقبول.. على وجه أبلغ بقوله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ ﴾، وهو كمال الخير ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ ﴾، أي في وجوه الخير"[1].

3- ترتبط هذه الآية أيضاً بما بعدها، فالمؤمن يبذل ما يحب تأسّيا بنبيّ الله يعقوب عليه السلام الذي ترك ما يحب طاعة لله عز وجل، ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ [آل عمران: 93]، فينفق محبوباً لأجل الله عز وجل ويترك محبوباً آخر لأجل الله عز وجل فيكون الفعل والترك طاعة لله عز وجل، قال البقاعي: "﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، أي من كل ما تقتضون[2]، كما ترك إسرائيل عليه السلام أحب الطعام إليه لله سبحانه وتعالى"[3].

ويظهر أيضا -والله أعلم- أن هذا الاعتراض فيه توهين من أمر الدنيا، وإعلاء لأمر الآخرة، فالدنيا التي يتنافس النَّاس عليها، ويختصمون لأجلها، ويرتكبون الحلال والحرام في سبيل جمعها، لو قُدِّر لصاحبها أن يأتي بملء الأرض ذهبا[4]، لم يغن عنه ذلك من الله شيئا يوم القيامة، وهذا كله لا يعدل نفقة مُحَبَّبة إلى صاحبها، يبذلها في سبيل الله عز وجل طلباً لمرضاته. لذلك لمَّا نزلت هذه الآية استجاب الصحابة رضي الله عنهم فوراً لقول الله عز وجل، وأخرجوا أحبَّ ما لديهم في سبيل الله عز وجل، والروايات في ذلك كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم:

أ- عن أنس رضي الله عنه، قال: "فلما أنزلت هذه الآية: "﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: 92]، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿

---

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1/5.

[2] من الفعل اقتضى، واقتضى الدَيْن طلبه، واستلزمه، انظر: نخبة من اللغويين: المعجم الوسيط، 2/ 743، وبذلك يكون معنى الكلمة حسب السياق، أن النفقة المطلوبة التي تكون مما تحبها النفس، وتطلبها، وترغب بها بشدة.

[3] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1/5.

[4] لم يقل الله عز وجل: أن يأتي بما في الأرض من ذهب، وإنما قال: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [آل عمران: 91]، وهذا أضعاف مضاعفة عن كل ذهب الأرض، فكم يجمع الإنسان المسكين من ذلك؟!

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران: 92]، وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول اللهﷺ: بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح"[1].

ب- عن ابن عمرﷺ: "أن عمر بن الخطابﷺ أصاب أرضا بخيبر، فأتى النَّبيﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها، قال: فتصدق بها عمر"[2].

فكان لهذا الاعتراض فوائد كثيرة، وقد أوجز الألوسي العبارة في توجيه هذه الآية، بقوله: " كلام مستأنف لبيان ما ينفع المؤمنين، ويُقبل منهم، إثرَ بيان ما لا ينفع الكفار، ولا يقبل منهم"[3].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط هذه الآية بمحور السورة الرئيس من وجوه، وهي:

1- أنَّ الصدقة برهان من اللهﷻ يقوّي بها المؤمن إيمانه، قال رسول اللهﷺ: "وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ"[4]، قال النووي في شرحه على مسلم: "مَعْنَاهُ الصَّدَقَةُ حُجَّةٌ عَلَى إِيمَانِ فَاعِلِهَا"[5]، وتقوية الإيمان ثبات لأصحابه ولا بد.

2- أنَّ الصدقة التي رغَّبت بها الآية، ليست أيّ صدقة، بل هي الصدقة والجود بكرائم الأموال التي يحبها الإنسان، ولا يزهد بها إلا مؤمن راسخ الإيمان، وهذا تثبيت ثان تضفيه هذه الصدقة على صاحبها، زيادة عن مجرد الصدقة العادية.

3- أنَّ اللهﷻ ختم الآية بقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: 92]، فهذه النَّفقة إنَّما صدرت عن رقابة اللهﷻ لقلب ذلك المتصدق المخلص؛ لأنَّه يعلم تمام العلم أنَّ اللهﷻ

---

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، برقم1461، 120/2، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْأَقْرَبِينَ وَالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ، وَالْوَالِدَيْنِ وَلَوْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، برقم998، 693/2.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف، برقم2737، 198/3، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الوصية، بَابُ الْوَقْفِ، برقم1632، 1255/3.

[3] الألوسي: روح المعاني، 213/2.

[4] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، برقم223، 203/1.

[5] النووي: شرح النووي على مسلم، 101/3.

يعلم نيَّته وقصده، وهذه الرقابة هي رتبة الإحسان العالية التي جاء ذكرها في حديث عمر بن الخطابﷺ، لمَّا جاءهم جبريلعليه السلام يعلِّمهم أمور دينهم[1].

4- أفاد أسلوب المقابلة بين الآية المعترضة وما قبلها من إعراض الكافرين، وما بعدها من طاعة نبي الله يعقوبعليه السلام تثبيتاً إضافيَّاً؛ لأنَّ الإنسان بطبعه يميل إلى التقليد، والعاقل من يقلد أهل الخير، ويجتنب أهل الشر.

الموضع المعترض الثالث مع سياقه، قولﷻ: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: 195-198].

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: نهى اللهﷻ نبيهﷺ عن الاغترار بتقلُّب الكافرين بالنِّعم، وسعة الرزق؛ لأنَّ متاعهم في هذه الدنيا قليل زائل، ومصيرهم إلى النَّار، وبئست العاقبة التي صيروا أنفسهم إليها.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان -وموضوعهما عن وعيد اللهﷻ للكافرين- وسط سياق وعد اللهﷻ عبادة المؤمنين بمغفرة الذنوب وحسن المصير في الآخرة، فالآية التي وردت قبل الاعتراض، قول اللهﷻ: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ

[1] حيث جاء تعريف الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم50، 19/1.

أُنثَىٰ..﴾ [آل عمران: 195]، والآية الواردة بعد الاعتراض، قول اللهﷻ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ..﴾ [آل عمران: 198][1].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآيتين بسياقهما من وجوه، وهي:

1- أنَّ هذ الاعتراض من باب المقابلة، لمَّا ذكر اللهﷻ حال المؤمنين وما أعده لهم من نعيم، ناسب ذلك ذكر حال الكافرين وما وعدهم به من نار وجحيم، قال محمد عبدو: " ثم ذكر حال الكافرين للمقابلة، وربط الكلام بما قبله بالنهي عن الاغترار بما هم فيه من نعيم"[2].

وهذه المقابلة، تُظهر أنَّ عمل المؤمنين محفوظ لهم ومدخر في الآخرة، بخلاف الكافرين، الذين لا ينتظرهم إلا العذاب والثبور، قال ابن عاشور: "﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.. اعتراض في أثناء هذه الخاتمة، نشأ عن قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ باعتبار ما يتضمنه عدم إضاعة العمل من الجزاء عليه جزاء كاملاً في الدنيا والآخرة، وما يستلزمه ذلك من حرمان الذين لم يستجيبوا لداعي الإيمان وهم المشركون"[3].

2- أنَّ الاعتراض وقع لتبيث النَّبيﷺ وصحابته، لمَّا رأوا تقلب الكافرين بالنعم، وهذا المعنى يوافق ما ذكره أكثر المفسرين في سبب نزول هذه الآية[4]، إذ نزلت في مشركي مكة الذين كانوا يعيشون في نعيمٍ ورغدٍ من العيش، وسَعةٍ في الرزق، يتاجرون ويتنعمون بما أُوتوا من مالٍ ومتاع، فقال بعض المؤمنين متعجبين: أعداء الله في خيرٍ ونعمة، ونحن نعاني الجوع والمشقة، فأنزل الله تعالى هذه الآية تبيينًا لحكمة ذلك وتسليةً للمؤمنين[5].

---

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 205/4.

[2] رضا: تفسير المنار، 256/4.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 205/4.

[4] انظر: الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 576/9، والزمخشري: الكشاف، 457/1، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 363/1.

[5] انظر: الواحدي: أسباب النزول، ص:139.

وقيل: إنَّها نزلت في اليهود، وكانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال[1].

ويمكن أن يُقصد بالكفار كل من اليهود ومشركي العرب؛ لأنَّ سورة آل عمران نزلت تعقيباً على أحداث معركة أحد، وهي المعركة التي قُتل فيها خيرة الصحابةﷺ، وأصيب فيها النَّبيﷺ إصابة شديدة، فيكون تقلب المشركين في البلاد تقلب مَنَعة وقوة، وقهر للمؤمنين بالسيطرة على بيت الله الحرام، أمَّا تقلُّب اليهود فهو تقلب غنى وجمع للأموال من جهة، وشماته بالمؤمنين لما حلَّ بهم في أحد من جهة أخرى. وهذا يتفق أيضاً مع ما تضمنته السورة من استفاضة في ذكر المال، وذم تحصيله وجمعه في الحياة الدنيا[2]، مع الترغيب بالأعمال الصالحة في الآخرة فهي الدائمة الباقية، ومن ذلك، قول اللهﷻ:

أ- ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: 26].

ب- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: 116-117].

---

[1] انظر: الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 363/1، أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 481/3.

[2] ومن ذلك أيضا:

أ- ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 75-76].

ب- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: 91-92].

ج- ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [آل عمران: 180].

وسواء أكان التقلّب تقلّب قهرٍ وسلطان، أم تقلّبًا في المال وجمعه، فإن ذكر عاقبة الكافرين في هذا السياق فيه تثبيت لقلوب المؤمنين في كل زمان ومكان؛ إذ لما وعدهم الله بالثواب العظيم، وكانوا في شدةٍ وفقرٍ بينما الكفار في نعمةٍ وسعة، جاء ذكر هذه الآية تسليةً لهم وصبرًا على ما يلاقونه من بلاء، فقال الله عز وجل: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾[1].

3- هذا الاعتراض فيه توهين لأمر الدنيا، فالدنيا التي قد تغرُّ بعض المؤمنين بحال هؤلاء الكفار، هي ذاتها سبب عذاب من لم يتب منهم يوم القيامة، قال أبو السعود: "﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾، بيانٌ لقبح ما أوتي الكفرةُ من حظوظ الدنيا، وكشفٌ عن حقارة شأنِها وسوءِ مَغَبَّتِها، إثرَ بيانِ حُسنِ ما أوتيَ المؤمنون من الثواب"[2].

4- تعظيم أمر الآخرة في نفوس المؤمنين، وهذا يظهر من الآية اللاحقة للآيتين المعترضتين: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾، قال سيد قطب: "وما يشك أحد يضع ذلك النَّصيب في كفة، وهذا النَّصيب في كفة، أنَّ ما عند الله خير للأبرار، وما تبقى في القلب شبهة في أنَّ كِفَّة الذين اتقوا أرجح من كِفَّة الذين كفروا في هذا الميزان"[3].

ويمكن أن يُضاف لما سبق أنَّ في الآية تأنيساً للمسلمين وتخفيفاً من مصابهم، وذلك بالالتفات إلى الآية السابقة، وبالتحديد، قول اللهﷻ: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾، فالذين هاجروا، لم يهاجروا وحدهم، بل هنالك من هجَّرهم وآذاهم وأخرجهم من ديارهم وقاتلهم

[1] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 471/9.

[2] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 135/2.

[3] قطب: في ظلال القرآن، 550/1.

وقتلهم، فيكون معنى الآية المعترضة، من باب تخفيف المصاب على المرء المسلم، بخطاب اللهﷻ له، ألَّا يغرنَّك قوة وبطش هؤلاء الأعداء الذين قدروا عليكم فقتلوكم، وآذوكم وأخرجوكم من دياركم، فتكون الآية بشارة لكل مستضعف مغلوب على أمره في كل زمان ومكان؛ وأنَّ اللهﷻ يُعَلِّمه أنَّ له سُنناً في أرضه لا تتغير ولا تتبدل، ومن أهمها وأظهرها إهلاك الكافرين المعاندين ولو بعد حين، وهي مثل قول اللهﷻ:

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: 13-14].
- ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف: 128-129].

فلا يكون للمؤمن صبر إذا استحكم أهل الباطل منه إلا بمثل هذه الآيات المبشِّرة، ونحن اليوم نعيش جولة من جولات الصراع بين أهل الحق والباطل، ونرى الظلم الشديد الذي تعرَّض له أهل فلسطين عموماً، وأهل غزة على وجه الخصوص، ورغم ضراوة المعركة وصعوبة الأحداث؛ فإننا نرى ونسمع كثيراً من المكلومين الذين هُدِّمت بيوتهم وأخرجوا من ديارهم وفقدوا أحبتهم وأعمالهم وأموالهم، يستأنسون بمثل هذه الآيات العظمية، فما أجملها من بشارة تخرج من وسط المحنة، ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 196-197].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط هذه الآية بمحور السورة الداعي إلى التوحيد وثبات المؤمنين، بشكل واضح وجلي، فالسبب الذي علل به المفسرون هذا الاعتراض؛ أنَّه من أجل تثبيت

النَّبيﷺ والمؤمنين من بعده، قال الشوكاني: "﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ خطاب للنَّبيﷺ، والمراد: تثبيته على ما هو عليه، والمراد الأمة، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أو: خطاب لكل أحد"[1].

ويمكن أن يُصرف الخطاب للنَّبيﷺ –ولا إشكال في ذلك– على معنيين كما بينهما أبو حيان، وهما: أن الخطاب وُجِّه إلى القوم على لسان مقدَّمهم، فقام خطابُه مقامَ خطابهم جميعًا، فكأنه قيل: لا يغرنكم، والثاني: أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن مغرورًا بحالهم، بل كان ثابتًا على ما هو عليه، راسخًا في قلبه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [هود: 42]، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 14]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم: 8]، وقد جعل النهي في الظاهر موجَّهًا إلى التقلّب، بينما المقصود في المعنى هو المخاطب[2].

ويمكن إضافة معنى ثالث؛ أن يكون الخطاب من باب زيادة الإيمان في قلب النَّبيﷺ، فقد قال اللهﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 74]، وقال اللهﷻ: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214]، فتكون هذه الآيات ونظائرها من قبيل تثبيت النبي ﷺ، وزيادة إيمانه وطمأنينة قلبه، كما سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتى، وهو بلا شك مؤمن، وانَّما كان طلبة من أجل زيادة الإيمان واطمئنان القلب.

[1] الشوكاني: فتح القدير، 474/1.

[2] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 481/3.

المطلب الثالث: الآيات المعترضة في سورة النِّساء

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة النساء سورة مدنية[1]، عدد آياتها مئة وست وسبعون آية، وهي الرابعة في ترتيب المصحف الشريف، وتأتي بعد سورة البقرة من حيث الطول وعدد الكلمات، وتكثُر فيها آيات الأحكام والعبادات، سواء أكانت عبادات قلبية أم عبادات فعلية تكليفية.

قال ابن العربي في مقدمة تفسير سورة النساء: "سُورَةُ النِّسَاءِ فِيهَا إحْدَى وَسِتُّونَ آيَة"[2]، أي أنَّ عدد آيات الأحكام التي فسرها في هذه السورة يبلغ إحدى وستين آية؛ ممَّا يجعلها ثاني سورة في القرآن الكريم من حيث عدد آيات الأحكام بعد سورة البقرة[3]. ومن أهم معالم هذه السورة كثرة الأحكام العملية، بما تتضمنه من أوامر ونواهٍ، مع مقارنة بحال أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا لشريعة ربهم، وهذا ما بيَّنه جمع من علماء التفسير الذين اهتموا بمقاصد السور الرئيسة، ومن ذلك ما قاله:

1- البقاعي: "فَمقصودُها الأعظم الاجتِماع على الدِّين بالاقتداء بالكتاب المُبين"[4].

2- الفراهي: "وسورة النِّساء كالرِّدء لصورة الإسلام، بِما تُبيِّن من كَون الشَّريعة رحمة على النَّاس كافَّة"[5].

3- ابن عاشور:" فمعظم ما في سورة النِّساء شرائع تفصيلية في معظم نواحي حياة المسلمين الاجتماعية من نظم الأموال والمعاشرة والحكم وغير ذلك"[6].

وقد عُرضت هذه الأحكام بما يُظهر عدل اللهﷻ في تشريعاته ورحمته بالضعفاء والمساكين، حتى قيل: إنَّ الفرع الثاني محور سورة النساء: هو: "العدل والرحمة"[7]، وبذلك يظهر -والله أعلم- أنَّ مقصد سورة النساء، ومحورها الأساسي؛ تحقيق العبادة للهﷻ مع بيان رحمته وعدله بالضعفاء.

---

[1] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 41/1.

[2] ابن العربي: أحكام القرآن، 401/1.

[3] وعدد آيات الأحكام في سورة البقرة، تسعون آية، انظر: ابن العربي: أحكام القرآن، 15/1.

[4] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 172/5.

[5] الفراهي: دلائل النظام، ص:93.

[6] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 212/4.

[7] خليل؛ أول مرة اتدبر القرآن، ص:44.

الفرع الثالث الآيات المعترضة في سورة النِّساء: تبيَّن بعد التتبع أنَّها تقع في ثلاثة مواضع وهي:

الموضع المعترض الأول مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ..﴾[النساء: 8-11].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: أخبر الله تعالى مؤكِّدًا أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا في الدنيا إنما يأكلون نارًا تلتهب في بطونهم يوم القيامة، وسيتقلبون في جهنم تحرقهم وتُصليهم.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة وسط آيات الميراث، قال محمد عبده: " جمهور المفسِّرين على أنَّ هذا الكلام جديد، وهو انصراف عن الموضوع قبله"[1]، وهو انصراف عما هو بعده.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: تتبعت توجيه السادة المفسرين لاعتراض هذه الآية، فوجدت توجيهاتهم تدور على ثلاثة أمور، وهي:

1- أنَّه لمَّا طال التحذير والزجر في أمر اليتامى، مما قد يؤدي النُّفرة عنهم بالكليّة، فتضيع بذلك مصالحهم، ويزهد مَن حولهم في كفالتهم، جاءت هذه الآية لتضبط الأمر وتضعه في سياقه، وتعرِّفهم أنَّ المؤاخذ في ذلك: هو الذي يأكل مال اليتيم ظلماً لا سواه[2]، قال الرازي: "دلَّت هذه الآية على أنَّ مال اليتيم قد يُؤْكَلُ غَيْرَ ظُلْمٍ"[3].

[1] رضا: تفسير المنار، 324/4.

[2] انظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 202/5.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 506/9.

وهذا يجعل الآية مرتبطة بما قبلها من آيات اليتامى بشكل وثيق، فتتفق مع الضابط الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[النساء: 6]، وهذا يتّفق أيضاً مع ما ورد عن ابن عباس، أنَّه قال: "لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُﷻ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾[الأنعام: 152]، وَ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾[النساء: 10]، الْآيَةَ، انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُﷻ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: 220]، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ"[1].

2- أنَّ هذا الاعتراض ذُكر في سياق تقسيم الأموال، والمال إنَّما يُقسَّم على الورثة، ومن الوارد جداً أن يطمع بعض الأولياء الذين يصير إليهم مال اليتيم في هذا المال، فيأكلونه بالباطل، قال ابن عاشور عقب إيراده قول اللهﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 10]: "جملة معترضة تفيد تكرير التحذير من أكل مال اليتامى، جرته مناسبة التعرُّض لقسمة أموال الأموات؛ لأنَّ الورثة يكثر أن يكون فيهم يتامى لكثرة تزوج الرجال في مدة أعمارهم[2]، فقلما يخلو ميت عن ورثة صغار، وهو مؤذن بشدة عناية الشارع بهذا الغرض؛ فلذلك عاد إليه بهذه المناسبة"[3].

[1] أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الصيد، بَابُ مُخَالَطَةِ الْيَتِيمِ فِي الطَّعَامِ، برقم2871، 114/3، أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 113/2، والألباني: صحيح سنن أبي داود، 223/8.

[2] هذا كان في السابق، أمّا اليوم فالأغلب يقتصرون على زوجةٍ واحدةٍ.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 254/4.

3- أنَّ هذه الآية مرتبطة بحقوق الضعفاء الذين سبق ذكرهم، ومن ذلك:

أ- المحافظة على اليتيمة، والإعراض عن الزواج منها، إذا كان ذلك مظنَّة ظلمها، ويدلُّ عليه قول اللهﷻ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾[النساء:3].

ب- الأمر بدفع المهر للمرأة، والنَّهي عن الأكل منه إلا ما كان عن طيب نفس، ويدلُّ على ذلك قول اللهﷻ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[النساء: 4].

وقد بيَّن محمد رشيد رضا أن الأوامر والنواهي الواردة في الآيات السابقة جاءت لإبطال ما كان عليه العرب في الجاهلية من ظلم الضعيفين: اليتيم والمرأة، ولبيان حقوقهما وحمايتهما من الاعتداء. فقد نهت الآيات عن أكل أموال اليتامى بضمها إلى أموال الأوصياء أو باستبدال أموالهم الجيدة بالرديئة، كما حرَّمت أكل مهور النساء أو التضييق عليهن طمعًا في أموالهن، أو تزويجهن بغير مهر، أو الإكثار منهن ابتغاء المال. وكما حُرِّم ذلك كله في الآيات السابقة، فقد جاءت هذه الآية لتحرِّم أيضًا حرمان المرأة والصغير من الميراث، فالكلام لا يزال متصلًا ببيان حقوق اليتامى والنساء، والنهي عن الظلم الواقع على كلٍّ منهما[1].

فكانت هذه الآية المعترضة تصف مشهداً ثالثاً من مشاهد الضعفاء وهم الأيتام الصغار الذين لم يبلغوا سن الرشد؛ لأنَّ الطمع فيهم أكبر من غيرهم، فكان الوعيد أشد، قال الرازي: " وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنَّهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة"[2].

[1] انظر: رضا: تفسير المنار، 324/4:

[2] الرازي: مفاتيح الغيب، 506/9.

ويظهر أيضا ارتباط الآية بسياقها من وجهين إضافيين، وهما:

1- أن الآية المعترضة ترتبط بسياقها السابق، وذلك أنَّها مؤكدة على حقوق اليتامى، الذين تم ذكرهم قبل هذه الآية المعترضة، ومن ذلك:

أ- المحافظة على أموال اليتيم دون تبديل أو عبث، بما يضر اليتيم، ويدلُّ على ذلك، قول اللهﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾[النساء: 2].

ب-الأمر بدفع المال إلى اليتيم في حال بلوغه، ويدلُّ على ذلك، قول اللهﷻ: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ ﴾ [النساء: 6].

فكانت هاتان الآيتان آمِرَتَيْنِ بالحفاظ على المال عند توفيره في يد الولي أو الوصي دون العبث به، وصيانته بعدل وأمانة، حتى يكبر هذا اليتيم ويرشد فيُدْفع هذا المال إليه بأحسن ما كان، أمَّا الآية المعترضة وسط آيات الميراث؛ فكأنَّها تُرجع الأمر إلى الأصل، وهو وضع يد الولي على المال، وتخوّفه من هذه الولاية، وتخوّفه من الأكل من هذا المال، وتقول له: إن كنت على قدر المسؤولية، فأقدم على هذه الوصاية والولاية، وإن كنت تعلم من نفسك ضعفاً، فإيَّاك؛ لأنَّ عاقبة هذا الأمر النَّار والجحيم.

2- في اعتراض هذه الآية تحذير واضح للأخوة الكبار من أكل حقوق إخوانهم الصغار؛ لأنَّ اليُتْم ينطبق على من لم يبلغ الحلم من الورثة. قال رسول اللهﷺ: " لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ"[1]، فإذا توفي رجل وترك مجموعة من الأبناء، كان بعضهم قد بلغ الحلم، بينما لم يبلغه الآخرون، فإنَّ الكبار لا يعدّون يتامى، بخلاف الصغار الذين ينطبق عليهم وصف اليتم.

[1] أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الوصايا، بَابُ مَا جَاءَ مَتَى يَنْقَطِعُ الْيُتْمُ، برقم2873، 496/4، حسنه النووي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط، انظر: النووي: رياض الصالحين، ص:500، الألباني: صحيح سنن أبي داود، 226/8، وشعيب الأرنؤوط في هامش الصفحة المذكورة في تحقيقه لسنن أبي داود.

ولمّا كان أكثر النَّاس يقدِّمون حب الدنيا على الآخرة، قال اللهﷻ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[الأعلى: 16-17]؛ فإنَّه قد يعمَدُ الأخُ الكبير إلى أكل حق إخوانه الصغار، وهذا يحصل ويقع كثيراً، فكأنَّ هذه الآية تذكِّر هؤلاء الأخوة بحقوق الضعفاء من اليتامى، وتتوعدهم وعيداً شديداً على سوء فعلهم، وتحكي لهم عاقبة جرمهم؛ بأنَّ ما يأكلون من مال اليتامى ليس هنيئاً مريئاً، بل ناراً وجحيماً، يتأجج في بطن ذلك الآكل حتى يصل به إلى النَّار والجحيم فيصلاها والعياذ بالله. ورغم قساوة المشهد وشدة الوعيد؛ فإنَّ كثيراً من النَّاس لا ينتبه لذلك، ويصرُّ على أكل مال الضعيف طمعاً في عرض الدنيا الزائل، وارضاء لشهوة المُلك والسيطرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهذا المعنى أيضاً يتناسب مع الآية اللاحقة للآية المعترضة، وهي قول اللهﷻ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ..﴾[النساء: 11]، إذ إنَّ بعض الأخوة قد يحرفون هذه الأنصبة المقدرة من اللهﷻ بحجج واهية؛ وذلك بزعمهم أنَّهم أكثر تعباً في خدمة والدَيْهِم أو أنَّهم أكثر حاجة للمال لكبرهم، وتعدد مسؤولياتهم، وثمة من ينكر حظ أخته فيأكله بالباطل بحجة عدم السماح بذهاب المال للغريب[1]، وهذا اعتداء على مال اليتيم، وأكل له بالباطل، وهو داخل في وعيد الآية المعترضة.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط الآية المعترضة بمحور السورة، الذي يحضُّ على الالتزام بأحكام اللهﷻ، وينصر الضعفاء والمساكين، بشكل واضح؛ وذلك لما في هذه الآية من وعيدٍ شديد، يُخوِّف كل من تسوِّل له نفسه التعدي على حقوق الضعفاء من الأيتام، ليكفَّ عن ظلمه ويرتدع، ويعود تائبًا إلى الله تعالى، قال سيد قطب: " ولقد فعلت هذه النَّصوص القرآنية، بإيحاءاتها العنيفة العميقة

[1] وهذه حجة واهية ساقطة، إذ إن الغريب لم يعد غريباً بالنسب، بل أصبح من أقرب الأقرباء، وهب أنه بقي غريباً؛ فإن هذا الغريب أخذ عرض هذا الأخ، واستحله بأمر اللهﷻ وسنة نبيه، فهل الأرض والمال أغلى من العرض؟ واللهﷻ الذي قضى الزواج، هو الذي قضى الميراث، ولكنَّه الهوى وحب المال، وإن قال هذا المتعدي ما قال.

فعلها في نفوس المسلمين. خلصتها من رواسب الجاهلية. هزتها هزة عنيفة ألقت عنها هذه الرواسب، وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس- أي مساس- بأموال اليتامى"[1].

ومن جهة أخرى: فالآية فيها تسلية للضعفاء؛ بأنَّ ما نقص من حقهم في الدنيا، فإنَّ الله يوافهيم إياه كاملاً مكمَّلاً في الآخرة، مع العقاب الشديد لمن ظلمهم وبخسهم حقهم، فمن لم يرتدع بوعيد الدنيا حل به وعد الآخرة، والإنسان تطمئن نفسه بعقاب من ظلمه، وهذا يُسلي المؤمن في حياته الدنيا، ويصبِّره على كثير من الظلم والأذى والحزن، قال اللهﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: 42].

الموضع المعترض الثاني مع سياقه: قول اللهﷻ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: 29-32].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذه جملة شرطية وميزان بكفتين، خاطب اللهﷻ بها المؤمنين، فمن يجتنب كبائر الذنوب التي نهى اللهﷻ عنها، فإنَّ جزاءه عند ربه، تكفير تلك الذنوب، ودخول الجنَّة دخولاً كريماً جليلاً يليق بهذا العبد الملتزم.

[1] قطب: في ظلال القرآن، 1/588-589.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: هذه آية معترضة وسط مجموعة من النَّواهي، وقد وردت معترضة بعد كبريتين من أكبر الذنوب وهما قتل النفس المعصومة، وأكل أموال الناس بالباطل[1]، قال الرازي: "اعلم أنَّه تعالى لمَّا قدَّم ذكر الوعيد أتبعه بتفصيل ما يتعلق به، فَذَكَرَ هذه الآية"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط هذه الآية بسياقها من وجوه، وهي:

1- أسلوب المقابلة: وأسلوب المقابلة من أساليب القرآن الظاهرة، لما فيه من إبراز للشيء وضده، في مكان واحد فيحصل التمايز، ويظهر الفرق بشكل أوضح، وكما قيل: "وبالضد تتميز الأشياء"[3]، وفي هذا الموضع المعترض، وردت هذه الآية، وسط ذكر مجموعة من الكبائر، وفي هذا إظهار وإبراز لقبح الكبائر من جهة، وإظهار وإبراز لأهمية الطاعة والالتزام بها من جهة أخرى، قال سيد قطب: "ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة، وبين الأشواق والضرورات، وبين الدوافع والكوابح، وبين الأوامر والزواجر، وبين الترغيب والترهيب، وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق في العفو والمغفرة"[4].

2- التفريق بين الصغائر والكبائر، وذلك أنه لما نهى الله تعالى في هذه السورة عن كبائر الذنوب، وعد على اجتنابها بتكفير الصغائر، فدلّ ذلك على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهذا هو قول جمهور أهل التأويل والفقهاء[5]. وهذا الاعتراض، يؤكد تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

قال ابن عاشور: "وقد دلَّت إضافة ﴿كَبَآئِرَ﴾ إلى ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ على أن المنهيات قسمان: كبائر، ودونها، وهي التي تسمى الصغائر"[6].

---

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 26/5.

[2] الرازي: مفاتيح الغيب، 59/10.

[3] ابن حزم: رسائل ابن حزم، 142/1.

[4] قطب: في ظلال القرآن، 641/2.

[5] انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 158/5.

[6] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 26/5.

فسمى اللهﷻ في هذه الآية الكبائر باسمها، وسمى الصغائر بالسيئات، وهذا يتفق على ما قرره القرآن الكريم، من تفريق بين الصغائر والكبائر، في عدة آيات:

- ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49].
- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى: 37].
- ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ﴾ [القمر: 53].

قال ابن القيم: "والذُّنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنصِّ القرآن والسُّنّة وإجماع السّلف والاعتبار"[1]، ولكن جرى خلاف كبير بين أهل العلم في تحديد الكبائر، على أقوال كثيرة ذكرها جلُّ المفسرين، وأطالوا الكلام في ذلك. وقد أورد ابن الجوزي هذه الأقوال مختصرة في أحد عشر قولاً [2]، والتحقيق أن الكبيرة هي كل ذنبٍ اقترن به وعيد أو حدّ أو لعن بنصٍّ من كتابٍ أو سنة، أو عُلم أن مفسدته تساوي مفسدة ما قُرن به الوعيد أو الحد أو اللعن، أو تزيد عليها[3].

3- إظهار سماحة التشريع والرأفة بالمؤمنين؛ وذلك لمَّا كان الكلام عن الكبائر، وما يترتب عليها، من وعيد شديد، ناسب السياق إظهار سماحة التشريع وعفو اللهﷻ عن المؤمنين الذين لا يقتحمون الكبائر ويخافون من اقترافها، قال البقاعي: "ولمَّا بيَّن تعالى ما لفاعل ذلك تحذيراً، وكان قد تقدم جملة من الكبائر، أتبعه ما للمنتهي تبشيراً"[4].

وقد فرَّق سيد قطب بين مغفرة الذنوب بالتوبة والاستغفار المذكور في قوله اللهﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ

[1] ابن القيم: مدارج السالكين، 484/1.

[2] انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 396/1-398.

[3] أنظر: أورده الرملي في حاشيته عن الْبَارِزِيُّ، أنظر: السنيكي: أسنى المطالب في شرح روض الطالب، 342/4.

[4] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 261/5.

يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135]، والمغفرة في هذه الآية هي التي يمنحها الله تعالى لعبده مباشرة متى اجتنب الكبائر، وهذا هو وعد الله وبشارته للمؤمنين[1].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: أما ارتباط الآية بمحور السورة الذي يحضُّ على تحقيق العبادة للهﷻ وإظهار رحمته بالضعفاء، فواضح وظاهر، فالآية دعوة صريحة لاجتاب كبائر الذنوب والمعاصي، وإعلام العبد المؤمن أنَّ ترك هذه الذنوب، وإظهار ضعفه وتذلُّله للهﷻ، سبب في تكفير السيئات ودخول الجنَّة دخولاً كريماً جليلاً.

الموضع الثالث: قول اللهﷻ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورًا ٤٣ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: 42-44].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذا نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين، لتنبيههم إلى نهيٍ مهم، وهو ألا يقربوا الصلاة، ولا يقوموا إليها وهم في حال سُكرٍ يمنعهم من تمييز كلامهم وفهم ما يقولون – وكان ذلك قبل تحريم الخمر – وكذلك نُهوا عن قربان الصلاة حال الجنابة، أو دخول المساجد إلا مرورًا عابرًا، حتى يطهّروا أنفسهم بالغُسل. ثم بيّن سبحانه أنه إن منعهم مانع من استعمال الماء، كمرضٍ أو سفر، أو إذا أحدث أحدهم أو جامع أهله فلم يجد ماءً للطهارة، فعليهم أن يتيمموا بترابٍ طاهر، يمسحون

[1] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 641/2.

به وجوههم وأيديهم. وختم الله تعالى الآية بإخبار عباده أنه كثير العفو، واسع المغفرة، يتجاوز عن زلاتهم ويستر تقصيرهم برحمته [1].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة في معرض ذم اللهﷻ للمشركين والمنافقين واليهود، آمرة النَّبي محمدﷺ وصحابته الكرام بالمحافظة على الصلاة وصيانتها من كل ما يشوبها وموضحة بعض أحكامها، وقد بيَّن ابن عاشور أن سبب نزولها وقع أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها، فجاءت في موضعها حين نزولها، ووردت معترضة بين تلك الآيات[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: أطال علماء التفسير النَّفس في تفسير هذه الآية؛ وذلك لتعلقها بالصلاة وما فيها من أحكام كثيرة، حتى قال القرطبي: "فيه أربع وَأَرْبَعُونَ مَسْأَلَةً"[3]، وما ذلك إلا لتفرع الأحكام الكثيرة عن هذه الآية الكريمة، والذي يتصل بالبحث منها، معرفة وجوه ارتباطها بسياقيها، حيث بيَّن أهل التفسير ذلك، من وجهين، وهما:

1- أسلوب المقابلة هنا ظاهر، فبعد أن وصف الله تعالى الوقوف بين يديه يوم القيامة بما فيه من أهوالٍ عظيمةٍ تُفضي إلى تمني العدم[4]، وتمنع هيبة الجلال وسلطان القهر من كتمان الحديث، وبيّن أن النجاة فيه لا تكون إلا لمن طهُر قلبه وجوارحه بالإيمان والطاعة، قابل ذلك بوصف الوقوف بين يديه في الدنيا في مقام الأنس والقدس، الذي يكون سببًا للنجاة من هول الموقف يوم القيامة، حيث تجلت معاني اللطف والجمال، فنهى عن الالتفات إلى غيره، وأمر بالطهارة حال التزين لعبادته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾"[5]. وهذا يتصل بالآيات السابقة للآية المعترضة وبالتحديد قول اللهﷻ:

---

[1] انظر: نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، 85/1.

[2] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 5/ 60.

[3] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 200/5.

[4] وذلك في الآية السابقة لها، ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [النساء:42].

[5] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 284/5.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: 36]، قال القرطبي: " ثم ذكر بعد الإيمان الصلاة التي هي رأس العبادات"[1].

فيكون الاعتراض بالصلاة وسط هذه الآيات من باب الاستعانة بها على تنفيذ أوامر اللهﷻ واجتنابه نواهيه، فالصلاة خير معين على الطاعة، قال اللهﷻ: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، وهي خير مانع من ارتكاب الفواحش والآثام، قال اللهﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]. وقد تكرر في القرآن الكريم الأمر بالصلاة، لا لمجرد أدائها، بل لإقامتها على الوجه الأكمل، أي أن يؤديها المؤمن وهو يستشعر عظمة الله وجلاله، فيخشع له ويخضع بين يديه. وهذه الصلاة هي التي تُعين العبد على طاعة الأوامر واجتناب النواهي، ولذلك جاء ذكرها في هذا الموضع عقب تلك الأوامر والنواهي الجامعة، تأكيدًا على أنها عونٌ على الطاعة وضبطٌ للسلوك[2].

2- تخليص الصلاة من كل ما يشوبها، لمَّا كان شرب الخمر قبل الصلاة، قد يوصل الإنسان إلى الكفر في صلاته وهو لا يعلم، فيكون بذلك شابه الكافرين الذين توعدهم قبل الآية المعترضة بقولهﷻ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: 42]، فكأنَّ الآية المعترضة تُخبر المؤمنين أنَّه لا ينبغي أن يوافق المؤمن في صلاته الكفَّار، ولا أن يشرك به شيئاً، فالصلاة منّزهة عن ذلك.

وقد ذكر أبو حيان هذا السبب، وجعل مناسبة الآية لما قبلها أنَّه لما أمر الله تعالى بعبادته والإخلاص له، وببرّ الوالدين والتحلّي بمكارم الأخلاق، وذمّ البخل، ثم استطرد إلى شيء من أحوال القيامة، ناسب أن

[1] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 201/5.
[2] انظر: رضا: تفسير المنار، 92/5.

تُخلِّص الصلاة من شوائب الكدر التي تقع عند أدائها على غير وجهها، فأمر الله تعالى بإقامتها على أكمل وجه، دون ما يفسدها أو ينقص أجرها[1].

وهذا يتفق مع سبب نزول الآية؛ فقد أخرج الترمذي، عن عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: "صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا، فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ". قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[النساء: 43]"[2].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية بمحور السورة الذي يحضُّ على تحقيق العبادة للهﷻ، بشكل ظاهر، فهي دعوة لتجريد أقدس العبادات عن كل ما يدنسها، ويشوّش على المصلي ويصرفه عن صلاته؛ وذلك بتجنب كل انشغال بالدنيا، فلا يدرك الإنسان من صلاته إلا ما وعى، قال رسول اللهﷺ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا"[3].

والمحافظة على الصلاة بتمامها وخشوعها رأس الأمر وجوهره، إذ إنَّ المحافظة على الصلاة فيه عون على الطاعة، قال اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: 153]، وبعد عن المعصية، وهذا يتفق تماماً مع مقصد ومحور السورة المذكور أعلاه.

---

[1] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 648/3.

[2] الترمذي: سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ، برقم3026، 238/5، وقال: حسن صحيح غريب.

[3] أبو داود: سنن أبي داود، أَبْوَابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي نُقْصَانِ الصَّلَاةِ، برقم796، 211/1، وقد صححه العراقي، والألباني، وشعيب الأرنؤوط وآخرون في تحقيقهم المسند، انظر: العراقي: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، 364/1، والألباني: صحيح أبي داود، 382/3، هامش مسند أحمد، 189/31.

المطلب الرابع: الآيات المعترضة في سورة المائدة

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة المائدة سورة مدنية[1]، عدد آياتها مئةٌ وعشرون آية، وهي من السبع الطوال في القرآن الكريم، قال رسول اللهﷺ: "أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ"[2]. ومن خصائصها أنَّها من آخر السور نزولاً، "فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ: هَلْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ؟ قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَتْ: "فَإِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ"[3].

الفرع الثاني محور السورة الرئيس: هو الوفاء مع اللهﷻ [4]، وأعظم صور الوفاء التي ركَّزت عليها سورة المائدة: الالتزام بحكم اللهﷻ وعدم الخروج عنه، قال البقاعي: ومقصودها: الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودلَّ عليه ميثاق العقل: من توحيد الخالق، ورحمة الخلائق"[5]. وبيَّن ابن عاشور أن هذه السورة اشتملت على تشريعاتٍ كثيرة، تدل على أنها نزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك استُهلت بالوصية بالوفاء بالعقود[6]، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: 1]، فالآية الأولى لخَّصت محور السورة، بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود، وختم اللهﷻ الآية: أنَّ الحكم له، فيحكم على خلقه بما يريد جلَّ في علاه، ثم فصَّلت هذه السورة في أمر الحاكمية، وهذا كثير مستفيض في سورة المائدة[7]، قال سيد

---

[1] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 41/1.

[2] أحمد: المسند، مسند الشاميين، حَدِيثُ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، برقم16982، 188/28.

[3] أحمد: المسند، مسند النساء، مُسْنَدُ الصِّدِّيقَةِ عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، برقم25547، 353/42، والحاكم، المستدرك على الصحيحين للحاكم، 340/2، وقد صححه الحاكم والذهبي والصنعاني وشعب الأرنؤوط وآخرون، انظر: والصنعاني: فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار، 2072/4.

[4] انظر: الفيروزآبادى: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 179/1، وحوى: الأساس في التفسير، 1295/3، وخليل: أول مرة أتدبر القرآن، ص:48.

[5] البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 106/2.

[6] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 72/6.

[7] سورة المائدة؛ أكثر سورة في القرآن الكريم ورد فيها لفظ الحكم ومشتقاته، وذلك في ستة عشر مواضعاً، ومن ذلك قول اللهﷻ:

﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]، ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: 45]، ﴿ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 47].

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [المائدة: 49].

﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50]

قطب: "فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية. ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدَّعي لنفسه هو حق الألوهية"[1].

الفرع الثالث الآيات المعترضة في سورة المائدة: تبيَّن بعد التَّتبع أنَّها تقع في أربعة مواضع، وهي:

الموضع الأول: قول اللهﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: 33-36].

أولاً: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: آية من الآيات الكثيرة التي بدأ الله تعالى بها، بنداء المؤمنين لتنبيههم على أهمية الخطاب، حيث أمر اللهﷻ عبادة بتقواه، والتقرب إليه بطاعته ومحبته، وأمرهم كذلك بالجهاد في سبيله، وما ذلك إلا لأجل طلب الفلاح، والفوز برضاه في الدنيا، وبالجنَّة والنَّعيم في الآخرة[2].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: آية معترضة وسط خطاب اللهﷻ للكافرين، وتوعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، قال ابن عاشور: "اعتراض بين آيات وعيد المحاربين وأحكام جزائهم، وبين ما بعده من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 36]"[3].

[1] قطب: في ظلال القرآن، 898/2.

[2] انظر: الواحدي: الوجيز للواحدي، ص:318، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 543/1،

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 187/6.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يتضح ارتباط الآية بسياقها من خلال عدة أمور ذكرها أهل التفسير، وهي على النحو الآتي:

1- أسلوب المقابلة، وهذا مِن أَظهر ما علَّل به المفسرون، اعتراض الآية لسياقها، وأسلوب المقابلة يظهر في هذه الآية من عدة أوجه، وهي:

أ- المقابلة بين الثواب والعقاب، واتباع البشارة بالنذارة، وذلك أنه تعالى لما بيَّن جزاء من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادًا بالعقوبات الأربع، والعذاب العظيم المعدّ لهم في الآخرة، أمر المؤمنين بتقواه وابتغاء القربات إليه، لأن ذلك هو السبب في النجاة من المحاربة والعقوبة التي أُعدت للمحاربين[1].

وهذه المقابلة من أساليب القرآن الحاثَّة على الهداية، وتأليف القلوب، ولذلك، فما إن ينتهي السياق القرآني من التذكير بالعقوبة والتخويف منها، حتى يتجه مباشرة إلى القلوب والضمائر، فيستثير فيها مشاعر التقوى، ويحضّها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله رجاء الفلاح[2].

ب- المقابلة بين النَّفي والإثبات: فمجامع التكليف منحصرة في نوعين لا ثالث لهما: أحدهما ترك المنهيات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾والآخر فعل المأمورات، وإليه الإشارة، بقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[3].

ولمَّا كان ترك النواهي مقدَّماً على فعل الأوامر، قدَّم اللهﷻ ذم الكافرين في السياق السابق ثم أتبعه الأمر بالتقوي في الآية المعترضة، وهي اجتناب المحرمات، ثم أمر بالتَّقرُّب إليه بالوسيلة. فالنَّفي مُقدَّم على الإثبات، وقد "ابتدأت كلمة الإخلاص بالنَّفي؛ لأنَّ التخلية قبل التحلية"[4]، (فلا إله)، نفي الألوهية عن كل

[1] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 242/4.

[2] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 881/2.

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 349/11.

[4] البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 184/3.

شيء، (إلا الله)، إثبات الألوهية للهﷻ وحده، ونظير ذلك قول اللهﷻ: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ﴾ [البقرة: 256].

ج- الموازنة بين الخوف من العقاب والخوف من اللهﷻ ؛ فالآيات السابقة فيها وعيد اللهﷻ الشديد للكافرين في الدنيا والآخرة، ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 33]، والآيات اللاحقة فيها وعيد الله لهم بالعذاب في الآخرة، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[المائدة: 36]، وهذا من شأنه أن يخوّف كل من يسمع الخطاب ويفهمه. قال سيد قطب: "ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه، ومع الدعوة: التصوير الرعيب للعقاب، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، فالخوف ينبغي أن يكون من الله؛ فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان، أمَّا الخوف من السيف والسوط؛ فهو منزلة هابطة، لا تحتاج إليها إلا النُّفوس الهابطة، والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى"[1].

فالمؤمن يعيش مع ربه بالموازنة بين الخوف والرجاء، وهذا أصل دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة، فالخوف دلَّ عليه السياق السابق واللاحق، والرجاء دلَّت عليه الآية المعترضة، ومن أقرب الآيات التي فصَّلت هذا المعنى في آية واحدة، قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ

[1] قطب: في ظلال القرآن، 881/2.

رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾[الإسراء: 57]، ولم تُذكر الوسيلة في القرآن الكريم إلا مرتين، في الآية المعترضة في سورة الأعراف، وآية الاسراء، وفي كلا الموضعين جاء الأمر بطاعة اللهﷻ وتقواه، والموازنة بين الخوف والرجاء؛ ليُعلم أنَّ هذا هو طريق تحصيل الوسيلة.

2- اعتراض الآية فيه إرشاد للمسلم أنَّ الافتخار بالأعمال، لا بالآباء والأجداد والأحساب، فقد ورد في السياق السابق ادعاء أل الكتاب من اليهود والنَّصارى أنَهم أبناء الله وأحباؤه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ [المائدة: 18]، قال الرازي: "فكان افتخارهم بأعمال آبائهم، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا ليكن مفاخرتكم بأعمالكم لا بشرف آبائكم وأسلافكم"[1].

3- ترتبط الآية المعترضة بسياقها على نحو يوشك أن يزيل عنها دعوى الاعتراض، وذلك لما فيها من:

أ- الأمر بالتقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، والأمر بالتقوى يتضمَّن ترك المعاصي التي كان الكفار معتادين عليها، إذ لما ذكر الله تعالى جزاء المحاربين وعِظَم جنايتهم، وأشار في ثنايا ذلك إلى مغفرته لمن تاب، أمر المؤمنين بتقواه في جميع أقوالهم وأفعالهم، بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصي –ومنها المحاربة والفساد – وبالقيام بالطاعات التي من أعلاها التوبة النصوح[2].

ب-الأمر بالجهاد: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، والأمر بالجهاد أيضاً مرتبط بالسياق السابق واللاحق: أما بالسابق، فهي دعوة لقطع دابر الكافرين المعاندين الذين يحاربون الله ورسوله فلن ينتهي ظلم الكافرين إلا بمدافعة أهل الحق لهم، وهذا مثل قول اللهﷻ: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 349/11.

[2] الألوسي: روح المعاني، 294/3.

ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40]. قال البقاعي: "ولمَّا ذكر تعالى حكمهم عند التوبة، وختم الآية بما يناسب من الغفران والرحمة، وكان ذلك ربما كان جزاء من لم يرسخ قدمه في الدين على جنابه المتعالي، أتبع ذلك الأمر بالتقوى وجهاد كل من أفسد بقطع الطريق أو الكفر أو غيره"[1].

أمَّا السياق اللاحق؛ فهو دعوة لتسلية المؤمنين الذين يجتهدون في مدافعة الكفار دون غلبة، أن اللهﷻ تكفل بهؤلاء الكافرين المعاندين بما توعَّدهم به في الآية اللاحقة للآية المعترضة، بقول اللهﷻ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 36]. وجانب التسلية واضح في اعتراض الآية؛ لأنَّ بني إسرائيل هم أكثر الأقوام الذين حاربوا الأنبياء وقتلوهم، وهذا الأمر مستفيض ذكره في القرآن الكريم، وقد ورد أيضاً في الآيات السابقة للآية المعترضة قول اللهﷻ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: 32]. قال الرازي: "ولمَّا كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام في الواقعة التي ذكرنا أنَّهم عزموا على

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 131/6.

الفتك برسول الله ﷺ، وبأكابر أصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام، ومؤكداً للمقصود"[1].

وأخيراً فإن في اعتراض هذه الآية تنبيهًا وتحذيرًا للمؤمنين من أن يسلكوا طريق الكافرين أو يغترّوا بهم، وهذا هو وجه اتصالها بما قبلها؛ إذ لما بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة أن اليهود حاولوا الاعتداء على الرسول ﷺ حسدًا له وغرورًا بدينهم، وظنًّا منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وجَّه الخطاب إلى المؤمنين يأمرهم بتقواه تعالى، وطلب القرب منه بالأعمال الصالحة، وينهاهم عن الوقوع في الفتنة والانحراف كما وقع أهل الكتاب من قبلهم[2].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط الآية بمحور السورة الداعي للوفاء بعهد اللهﷻ وأحكامه، بما أمر فيها بالتقوى، وابتغاء الوسيلة، والتقوى كما عرفها طلق بن حبيب[3] بقوله: "عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ، رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، مَخَافَةَ عِقَابِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ"[4].

إضافة إلى ما حمله اعتراض الآية من معان، ومنها المقابلة بين النفي والاثبات؛ لذلك فهي دعوة للوفاء بكل ما هو حسن، ونبذ كل قبيح، وهذا يتفق مع محور السورة تماماً. وقد أوضح الرازي في تفسيره لهذه الآية أن الترك والفعل أمران معتبران في ظاهر الأفعال وباطنها، ففي الظاهر يجب ترك المحرمات وفعل الواجبات، وأما في جانب الأخلاق، فالواجب تحصيل الصفات الفاضلة وترك الصفات الذميمة[5].

الموضع الثاني: قول اللهﷻ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 343/11.

[2] انظر: الهروي: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، 227/7.

[3] طلق بن حبيب العنزي البصري، تابعي صدوق، رمي بالإرجاء، توفي ما بين بعد المئة، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، 63/3، وابن حجر: تقريب التهذيب، ص: 283.

[4] ابن أبي شيبة: المصنف، 182/7.

[5] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 349/11.

لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾[المائدة: 53-55].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذا نداء من اللهﷻ لجموع المؤمنين متوعداً إياهم؛ أنَّ من يرجع عن دينه؛ فإنَّ اللهﷻ سوف يستبدله، ويأتي بقوم آخرين يحبهم ويحبونه، خافضين الجناح للمؤمنين شديدي البأس على الكافرين، يقاتلون في سبيل الله ولا يخافون عتاب أحد، وهذا فضل عظيم يؤتيه الله لمن يشاء من عباده، والله واسع الفضل، عليم بأحوال عباده الظاهرة والباطنة. وقد رأى جمهور المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت في إخبار اللهﷻ عن الرِّدة التي حدثت بعد وفاة النَّبيﷺ[1]، وأنَّ القوم الذين يحبهم اللهﷻ ويحبونه، هم أبو بكر الصديق، ومن معه من المؤمنين الذين حاربوا المرتدين؛ وبذلك تكون هذه الآية من آيات الإعجاز الغيبي التي وصف اللهﷻ بها أحداثاً قبل وقوعها، قال الثعلبي: "وهذا إعجاز للقرآن، وللمصطفى عليه السلام، إذ أخبر عن ارتدادهم، ولم يكن ذلك في عهده، وكان غيباً، فكان على ما أخبر بعد مدة"[2].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية معترضة في سياق تحذير اللهﷻ عباده المؤمنين من تولّي اليهود والنَّصارى واتباع سبيلهم، والأمر بتولي اللهﷻ ورسوله والمؤمنين. قال ابن عاشور: "فجملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ إلخ، معترضة بين ما قبلها وبين جملة: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ ﴾"[3].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط هذه الآية المعترضة بسياقها من خلال ثلاثة أمور بيَّنها أهل التفسير، وهي على النحو الآتي:

[1] الطبري: جامع البيان، 412/10، والثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 78/4، الواحدي: الوجيز، ص: 324، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 219/6.

[2] الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 378/11.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 234/6

1- أنَّها تخويف وإنذار من الرِّدة قبل وقوعها؛ إذ تتوعد الآية كلَّ مرتدٍّ وتخوّفه من هذا الطريق حتى لا يقع فيه، فتكون الآية المعترضة بسياقها، تحذيراً من الرِّدة قبل وقوعها، وقد بين سيد قطب أن هذا التحذير موجَّه إلى من يرتدّ عن دينه من الذين آمنوا، وجاء في هذا السياق ليربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام، خصوصًا بعد أن بيَّن الله أن من يتولاهم يُعدّ واحدًا منهم على الحقيقة، خارجًا عن جماعة المسلمين، منضمًّا إلى صفوفهم: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾، وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النِّداء الثاني[1] في السياق تأكيدا، وتقريراً للنِّداء الأول[2]، ويدل على هذا كذلك النداء الثالث[3] الذي يلي النِّداء في الآية المعترض، وهو موجَّه في الأصل إلى النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار، إذ يجمعهم هذا النهي في حكمٍ واحدٍ على هذا الوجه[4].

فكلام سيد قطب علاوة على أنَّه يُعطي دلالة أنَّ الآية فيها إنذار وتخويف من الرِّدة، فإنَّه يُظهر أيضاً؛ أن الآية مرتبطة بما قبلها وبما بعدها من آيات النِّداء، وكلّها تشترك في رسم صورة للمؤمن في ولائه للمؤمنين، والبراءة من الكافرين من أهل الكتاب، ومن غيرهم من الملل المعادية للإسلام وأهله.

2- بيان النَّتيجة النهائية لطريق الموالاة: فالموالاة ليست أمراً واحداً؛ لذلك قد يتساهل أناس في بعض صورها، ويستمر في هذا التساهل والتقارب حتى يصل إلى الصورة النهائية التي تُوقع صاحبها في الرِّدة. فكان ترتيب الآيات بهذه الطريقة لبيان النتيجة قبل وقوعها، من باب إقامة الحجة على كل من تسوّل له نفسه اقتحام هذا الباب والتساهل فيه.

فالاعتراض في الآية يشير إلى أن موالاة اليهود والنصارى قد تكون سببًا يؤدي إلى الارتداد عن الدين؛ إذ إن إصرار فئة من المنافقين وضعفاء الإيمان على موالاتهم يُخشى أن يُفضي إلى انسلاخ بعضهم من

---

[1] وهو النداء في الآية المعترضة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ..﴾ [المائدة: 54].

[2] يقصد قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: 51].

[3] يقصد قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: 57].

[4] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 917/2.

الإيمان، كما أن فيه إنذارًا للمترددين وضعفاء القلوب بأن الإسلام غني عنهم إن هم اختاروا الارتداد إلى الكفر[1].

3- إخبار عن حال المرتد، وحكمه إذا لم يستجب للتحذير، فقد سبق الآية المعترضة تحذير المؤمنين من اتخاذ اليهود والنَّصارى أولياء، قال اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة:51]، ثم جاءت الآية المعترضة تُعطي حكم من رفض الاستجابة لهذا التحذير، واتخذ اليهود والنَّصارى أولياء، قال البقاعي: "ولمَّا نهى عن موالاتهم؛ وأخبر أن فاعلها منهم؛ نفى المجاز؛ مصرحاً بالمقصود؛ فقال – مظهراً لنتيجة ما سبق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: أقروا بالإيمان. من يوالهم منكم؛ هكذا كان الأصل؛ ولكنَّه صرَّح؛ بأنَّ ذلك ترك الدين؛ فقال: ﴿ مَن يَرۡتَدَّ﴾؛ ولو على وجه خفي"[2].

فإذا تقرر أنَّ طريق الموالاة: الردة الكاملة، استحضر المؤمن الآيات القرآنية التي فصَّلت في موضوع الرِّدة، وحذَّرت منه، ومنها:

- قول اللهﷻ: ﴿ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 217].
- قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 100].

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 6/234-235.

[2] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 6/190-191.

- قول اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 149].

وإذا عَلِمَ المرء المسلم حكم الردة وعاقبتها، وتحذير اللهﷻ عباده المؤمنين منها، قطع سبب هذه الردة والطريق المؤدية إليها، ومن أهم طرق الردة، كما ورد في السياق السابق، موالاة اليهود والنَّصارى، وهذا فيه مزيد من التَّحذير والتخويف من موالاة اليهود والنَّصارى، لمن عقل الخطاب، وكان في قلبه إيمان. ومثل هذه الآيات نحن في أمس الحاجة إلى فهمها وتدبرها، واستخراج معانيها في هذه الأيام التي يسارع فيها كثير من المسلمين إلى خطب ودِّ اليهود والنَّصارى علانية، دون حياء من اللهﷻ أو احترام لدماء المسلمين المراقة، بل حتى دون معرفة طبائع الأعداء الذين لم يحترموا خائناً قط على مدى الدهر، فيا ليت قومي يعلمون.

ويظهر ارتباط الآية بسياقها من وجهين إضافيين، على النحو الآتي:

1- أنَّ الآيات بمجموعها أخبرت عن أنواع المكذبين المعاندين للإسلام، وهم على أربعة أصناف، ثلاثة أصناف منهم ظهروا في زمن النُّبوة، والصنف الرابع أخبرت عنه الآية المعترضة قبل وقوعه، وهم على النحو الآتي:

أ- أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، ويدلُّ على هذا الصنف قول اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [المائدة: 51].

ب- المنافقون، وهم الذين وصف اللهﷻ نفاقهم؛ بأنَّه مرض في القلب[1]، بقولهﷻ: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ ﴾ [المائدة: 52].

[1] ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾، هذا وصف ثابت للمنافقين في القرآن الكريم، في أحد عشر موضعاً.

ج- الكفار الأصليون من عبدة الأوثان، ويدلُّ على هذا الصنف الآية اللاحقة للآية المعترضة وهي قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: 57]، قال الواحدي: "﴿والكفار﴾ يعني: مشركي العرب، وكفَّار مكَّة"[1].

د- المرتدون، وهم الصنف الوارد ذكرهم في الآية المعترضة، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: 54]، وهذا الصنف لم يظهر بشكل جلي إلا بعد موت النَّبيﷺ، حيث ظهر أمر المرتدين، وقوي نفوذهم، وحدثت معهم معارك طاحنة، واستشهد فيها خيرة الصحابةﷺ.

وبذلك يكون النَّص مترابطاً حيث ذُكر قبل الآية المعترضة صنفان من أعداء الإسلام، وهم: الكفار من أهل الكتاب، والمنافقون الذين مالوا إلى الكفار، وصنف بعد الآية المعترضة، وهم الكفار من العرب الذين كانوا يعبدون الأوثان، وأنبأت الآية المعترضة عن الصنف الثالث، الذي سوف يظهر في المستقبل؛ لذلك اعتبر كثير من المفسرين- كما أسلفت-، أنَّ هذه الآية فيها إعجاز غيبي، وإخبار بالمستقبل، على نحو ما أخبر اللهﷻ به نبيه عن أمر غلبة الروم، كما في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [الروم: 1-4].

2- أنَّ اللهﷻ استبدل أمة اليهود والنَّصارى لمّا حرَّفوا وبدَّلوا، فكأنَّ الآية المعترضة في هذا السياق الذي يدور الحديث فيه عن الأمم السابقة تارة وعن أمة الإسلام تارة أخرى، تُخبر المسلمين أنَّهم ليسوا في

[1] الواحدي: الوجيز، ص325.

مأمن من سنة الاستبدال، فإنَّ بدَّلوا كما بدلت الأمم السابقة، كان مصيرهم الاستبدال مثلهم، وسنة الاستبدال ثابتة في كتاب اللهﷻ في آيات كثيرة، منها:

- ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴾[النساء: 133].
- ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾[إبراهيم: 19].
- ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: 38].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: أمَّا ارتباط الآية بمحور السورة الرئيس الذي يدعو إلى الوفاء بالعهد والتزام أمر اللهﷻ، فهو ظاهر في الآية المعترضة التي حذَّر اللهﷻ فيها من الرِّدة، ومن خاف هذا التحذير، التزم أمر اللهﷻ وأوفى بعهده، وهذا مقصود الآية، وقد جعل الله تعالى ما يعين العبد على الوفاء، فذكر في السياق حال من لم يلتزم أمره من اليهود والنصارى والمنافقين وعاقبتهم، ثم نبّه إلى حال المرتد وما يترتب عليه من استبدال قبل وقوع الردة ليكون عبرة، وختم ببيان فوز من التزم أمره ونجاحه.

وهذه الأمور كلها مثبِّتة ومعينة على الوفاء والالتزام بأمر اللهﷻ الذي دار محور سورة المائدة حوله، والعاقل من اتعظ بغيره، قال الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما: "الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره"[1].

الموضع الثالث: قول اللهﷻ: ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته، برقم2445، 2037/4.

وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ [المائدة: 58-61].

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره أن يقول للمستهزئين من أهل الكتاب: إن ما ترونه عيبًا أو مطعنًا فينا هو في الحقيقة موضع فخرٍ وشرفٍ لنا، لأننا نؤمن بالله تعالى وبما أنزل من كتب علينا وعلى من قبلنا، وندرك أن أكثرَكم قد حاد عن الطريق المستقيم. ثم يأمر الله نبيَّه أن يقول للمؤمنين: هل أخبركم بمن هو أشد جزاءً يوم القيامة من هؤلاء الفاسقين؟ إنهم أسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم وأبعدهم عن رحمته، فمسخ منهم جماعات فجعلهم قردةً وخنازير جزاءً على تمرّدهم وكفرهم، وكان فيهم من عبد الطاغوت. لقد ساء مقامهم في الآخرة، وضلّ سعيهم في الدنيا عن سواء السبيل[1].

فالآية الأولى تستنكر على أهل الكتاب عداوتهم لأهل الإيمان، والآية الثانية تقدم الدليل على كذبهم، وفسقهم الذي استحقوا من أجله هذا العذاب.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن المنافقين، وقد اختلف المفسِّرون في تحديد المراد بالذين اتخذوا الصلاة هزواً ولعباً على قولين:

القول الأول: إنَّهم من اليهود، وعلى هذا الرأي، يكون السياق متصلاً من غير اعتراض.

القول الثاني: إن السياق السابق واللاحق للآيتين المعترضتين يتحدث عن المشركين من أهل المدينة من المنافقين، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر[2].

وحسب القول الثاني تكون الآيتان معترضتين؛ ولعلَّ ذلك أرجح للأسباب الآتية:

[1] انظر: نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، 118/1.

[2] انظر: الواحدي: التفسير البسيط، 442/7، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 562/1.

1- سبق الآية المعترضة قولﷻ: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾[المائدة: 58]، معطوفة على قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: 57]. والنِّداء في هذه الآية والمقطع السابق موجَّه إلى المؤمنين الذين سكنوا المدينة، حتى لا يتخذوا اليهود والنَّصارى أولياء ولا يشابهوهم في أفعالهم. أما العرب الذين سكنوا المدينة، فمنهم من آمن بالنَّبيﷺ، فجاء النَّهي لهم عن طاعة اليهود والنَّصارى، ومنهم أيضاً أهل النِّفاق، فتكون الآية زجراً وتقريعاً لهم؛ إذ كان النِّفاق منتشراً بين بعض العرب من أهل المدينة الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم. ولم يُعرف أنَّ اليهود ادَّعوا الإيمان كظاهرة مشابهة لظاهرة المنافقين؛ وإنَّما ناصبوا العداء للمسلمين، ولم يؤمنوا بالنُّبوة والرسالة، حتى قال نبينا محمدﷺ: "لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ"[1].

2- أنَّ الآية تتفق مع قول اللهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: 142]، فالتكاسل والاستهزاء بالصلاة وعموم العبادات[2] من صفات المنافقين الظاهرة في المجتمع المدني.

3- انقطع السياق في الآيتين المعترضتين، بقول اللهﷻ ابتداء ﴿قل﴾، ولكن الآية الواردة بعد الآيتين المعترضتين جاءت مصدَّرة بحرف عطف (الواو)، ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾[المائدة: 61]، فتكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾[المائدة: 58]، وما بينهما اعتراض، وهذا يعني اتحاد

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبيﷺ، حين قدم المدينة، 3941، 70/5، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب نزل أهل الجنة،2793، 2151/4.

[2] مثل لمزهم للمتصدقين كما أخبر اللهﷻ عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 79].

الآيتين في الضمائر، ولم يثبت أن اليهود آمنوا نفاقاً وكتموا كفرهم، بل الذي فعل ذلك هم المنافقون، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة دالة على ذلك منها قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة: 14].

4- اعتبار بعض المفسرين الآيتين معترضتين كما بيَّنه ابن عاشور بقوله: "هذه الجمل معترضة بين ما تقدمها وبين قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ ﴾"[1].

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 243/6.

وبناء على ذلك تكون الآيتان معترضتين، ويمكن توجيه ذلك، وفق الآتي:

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق:

1- أنَّ الاعتراض تفنُن في الخطاب، وانتقال بين الموضوعات، والنَّاظر في السياق السابق يلاحظ أنَّ التنقل بين الموضوعات: تارة يكون بالحديث عن اليهود والنَّصارى، وتارة يتحوَّل الخطاب إلى النَّبيﷺ والواقع الذي يعيشه، فمثلا: كان الخطاب عن أهل الإنجيل بقول الله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: 47]، ثم تحوَّل الخطاب مباشرة إلى النَّبيﷺ، بقول اللهﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ﴾ [المائدة: 48].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنَّ هذا الأمر يقع كثيراً؛ لذلك قال أبو السعود: "﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسولِ اللهﷺ بطريق تلوين الخطاب بعد نهْيِ المؤمنين عن تولّي المستهزئين"[1].

2- تأصيل لموضع لاحق؛ وذلك أنَّ الآيتين المعترضتين كانتا مقدمة لمقطع أورده اللهﷻ بعد هذه الآيات في سياق قريب؛ وذلك بقول اللهﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[المائدة: 64]، وعند مقارنة الآيتين المعترضتين بهذه الآية، يظهر ارتباطهما بوضوح من عدة وجوه، من أهمها:

[1] ابو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 53/3.

أ- إذا كان أهل الكتاب نقموا على أهل الإيمان في إيمانهم، فكيف بهم أجازوا لأنفسهم قولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾، وكيف ينسبون النَّقص للهﷻ، وهذا يظهر أنَّ العداء للدين، وليس للمؤمنين، وهذا يتفق مع قول اللهﷻ: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33].

ب- الآية المعترضة الثانية ذكَّرت هؤلاء الذين ينقمون على المؤمنين في إيمانهم بطائفة من أسلافهم الذين لم يلتزموا أمر اللهﷻ؛ فاستحقوا بذلك اللعن والمسخ، أما الآية اللاحقة للآية المعترضة، فقد ذكرت العذاب بغل اليد واللعن، فكان اللعن عذاباً مشتركاً بين الفريقين.

ج- يتحد الموضعان في الخاتمة، ففي الآية المعترضة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفي اللآية اللاحقة لها، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، والمفسد هو أكثر من يضل السبيل.

3- قطع إعجاب العرب بما عند اليهود من علم، بإظهار تناقضهم حتى لا يغتر أحد بما عندهم من علم، فأهل الكتاب قبل الإسلام انفردوا بالعلم بما عندهم من كتاب، ومن علم الأحبار المتوارث، بخلاف العرب الذين بعد بهم الزمن عن نبيهم إبراهيمﷺ، ولم يتبق من دينه علم يعتمدون عليه في محاجة أهل الكتاب، فكانوا يقرون لهم بالعلم.

ولمَّا كان هذا حال العرب؛ فإنَّ القرآن الكريم راعى علاج هذه النَّفسية بإظهار زيف علم أهل الكتاب، وكان هذا الاعتراض فيه تنقل واضح في المشاهد، وعرض لفرق من أهل الكتاب من المكذبين والمستكبرين، حتى يقطع على كل من تعلق بعلمهم، وقد بين ابن عاشور أن المقصود تعيير اليهود المجادلين للمسلمين بقبائح أسلافهم، توبيخًا لهم وإفحامًا عن التفاخر والتطاول، فإذا كانت تلك سيرتهم وأفعالهم زمن وجود الرسل والنبيين بينهم، فهم بعد انقطاع الوحي عنهم أولى بالانحراف وأشد سوءًا وشرًّا حالًا[1].

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 247/6.

فمعنى الآية وطريقة اعتراضها والتنقل في الخطاب، فيه ردٌّ واضح على أهل الكتاب من جهة، وفيه توهين علم أهل الكتاب، وتحقير شأنهم في نفوس المسلمين من جهة أخرى.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هاتان الآيتان بالمحور الرئيس للسورة، الذي يحثُّ على الوفاء بأحكام اللهﷻ، من خلال تحقير شأن أهل الكتاب الذين لم يلتزموا أمر اللهﷻ، وهذا يعزز التزام المؤمن بشرع الله وأوامره؛ إذ يرى نموذجاً ماثلاً أمامه لأقوام لم يلتزموا أمر اللهﷻ، فاستحقوا اللعنة والمسخ، وكل عاقل ينأى بنفسه عن أن يكون مثلهم.

الموضع الرابع والأخير: قول اللهﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة: 65-68].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: آية بدأت بنداء اللهﷻ آمراً نبيهﷺ بتبليغ كل ما أُنزله إليه من آيات، دون تقصير في شيء منها، ويخبره أنَّه لو قصَّر في شيء منها؛ فإنَّه لم يبلِّغ الرسالة على الوجه المطلوب. كما يطمئنه بأنَّ اللهﷻ قد عصمه وحماه من أذى النَّاس، ويؤكِّد أنَّ الله لا يهدي الكافرين المعاندين الذين يصرون على التكذيب والضلال. وتوجيه هذا الأمر لنبيِّنا محمد ﷺ لا يدلُّ على أنَّه قد

قصَّر في تبليغ الرسالة، أو أن يُظنَّ به أنَّه قد يُقصِّر، وهي نظير مجموعة من الآيات التي أمر الله بها النَّبيﷺ بتبليغ الرسالة، وفي بعض الأحيان يكون فيها وعيد شديد؛ مثل قول اللهﷻ:

- ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [المائدة: 48].
- ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ..﴾ [المائدة: 49].
- ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴾ [الحاقة: 44-46].

والنَّبيﷺ قد حكم بما أنزل الله، ولم يتبع أهواء الكافرين والمنافقين، ولم يتقوَّل على اللهﷻ الأقاويل؛ فبذلك تكون هذه الآيات ونظائرها مؤكدة للنَّبيﷺ تزيده إيماناً ويقيناً على تنفيذ أمر اللهﷻ، وفي الوقت ذاته، تحمل الآية تحذيراً ضمنياً للمسلمين عامة؛ فإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى رسول اللهﷺ وهو سيد الخلق وحبيب الحق، فكيف بمن هو دونه؟! فغدت هذه الآيات خطاباً يعزز الإيمان ويثبت أركانه.

وقد ردَّت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه التهمة عن رسول اللهﷺ بقولها: " وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[المائدة: 67]"[1]. وقالت: "وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ﴾ [الأحزاب: 37]"[2]. قال القرطبي: "وهذا تأديب للنَّبيﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته، وقد عَلِمَ الله تعالى من أمر نبيه أنَّه لا يكتم شيئاً من وحيه"[3].

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ مَعْنَى قَوْلِ اللهﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وَهَلْ رَأَى النَّبِيُّﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، برقم287، 159/1.

[2] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ مَعْنَى قَوْلِ اللهﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وَهَلْ رَأَى النَّبِيُّﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، برقم288، 160/1.

[3] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 242/6.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: آية معترضة واضحة في اعتراضها في سياق محاجة أهل الكتاب؛ وتوسطت الآية المعترضة هذا الخطاب بالالتفات إلى النَّبيﷺ وأمره بتبليغ رسالة ربه، قال محمد رشيد رضا: "تَقَدَّمَ أَنَّ نداء النَّبيﷺ بلقب الرسول لم يرد إلا في موضعين من هذه السورة[1]، وهذا ثانيهما، وكلاهما جاء في سياق الكلام في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، ومحاجتهم في الدين"[2].

وقد استشكل ابن عاشور ورود هذه الآية في هذا الموضع من سورة المائدة، بقوله: "إن موضع هذه الآية في هذه السورة معضل؛ فإنَّ سورة المائدة من آخر السور نزولا إن لم تكن آخرها نزولا، وقد بلَّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه يوم نزولها"[3].

وقد نزل قول اللهﷻ:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]، وهذه الآية فيها دلالة واضحة على أنَّ النَّبيﷺ قد بلَّغ رسالة ربه، وكمَّل اللهﷻ بهذا البلاغ الدين، وسأجيب على هذا الإشكال أدناه في كشف مناسبة الآية المعترضة لسياقها بإذن الله تعالى.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: أطال أهل التفسير في تفسير هذه الآية، حيث حرصوا على ربطها بسياقها، وبيان سبب ورودها في هذا الموضع. ومع أنَّ ابن عاشور استشكل وجود هذه الآية في هذا السياق من سورة المائدة، إلا أنَّه قدم عدة أجوبة وجيهة لتوضيح سبب هذا الإشكال. وعند التدقيق في هذه التوجيهات يظهر أنَّها إما ترتبط بسبب نزول هذه الآية، أو ترتبط بتوجيه اعتراضها وربطها بالسياق بمعانٍ أخرى غير سبب النزول.

---

[1] يقصد الآية الأولى قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [المائدة:41].

[2] رضا: تفسير المنار، 384/6.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 255/6

أما سبب النزول[1]، فقد ذكر الإمام فخر الدين الرازي عشرة أسباب[2]، وهي:

1- أنها نزلت في شأن قصة الرجم والقصاص، وذلك في حادثة تتعلق باليهود[3].

2- نزلت بسبب عناد اليهود واستهزائهم بالدين وصَدِّهم الناس عنه، وقد سكت النبي ﷺ عنهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية [4].

3- لمَّا نزلت آية التخيير، وهو قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: 28]، فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا فنزلت هذه الآية[5].

4- نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش[6].

5- نزلت في شأن الجهاد، إذ كان المنافقون يكرهونه، فكان النبي ﷺ أحيانًا يمسك عن حثِّهم عليه[7].

6- لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ [الأنعام: 108] سكت الرسول عن عيب آلهتهم.

7- نزلت هذه الآية في شأن المسلمين، حين قال النبي ﷺ في حجة الوداع، بعد أن بيَّن الشرائع والمناسك، إعلانًا لكمال الدين وتمام النعمة "هل بلغت؟" قالوا نعم، قالﷺ: "اللهم فاشهد"[8].

---

[1] لم اعتمد في توجيه اعتراض الآية على أسباب نزولها، وانما اعتمدت على المعنى والسياق، لذلك ذكرت أسباب نزول الآية مختصرة كما بينها الرازي، فهو أورد أغلب أسباب نزولها مختصرة، كما سيأتي.

[2] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 12/400-401.

[3] أصل القصة ثابت كما عند مسلم دون ذكر سبب النزول، انظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَابُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، برقم13، 4/1786.

[4] استهزاء اليهود بالدين ثابت في آيات كثيرة، ولكنها لم تثبت على أنَّها سبب لنزول هذه الآية، ومن تلك الآيات:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ [المائدة:61].
- قَالَ تَعَالَى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء:46].
- قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة:104].

[5] أصل القصة ثابت كما عند مسلم دون ذكر سبب النزول، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، بَابُ بَيَانِ أَنَّ تَخْيِيرَ امْرَأَتِهِ لَا يَكُونُ طَلَاقًا إِلَّا بِالنِّيَّةِ، برقم22، 2/1103.

[6] أصل القصة ثابت كما عند مسلم دون ذكر سبب النزول، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، بَابُ مَعْنَى قَوْلِ اللهﷻ: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: 13]، وَهَلْ رَأَى النَّبِيﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، برقم288، 1/160.

[7] كُرْهُ المنافقين للجهاد ثابت ومشهور ودلَّ عليه آيات كثيرة، ولا أدلّ عليه من سورة التوبة والحديث فيها عن القوم الذين تخلفوا عن تلك الغزوة ثم جاؤوا يعتذرون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ.. يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: 94-96]، ولكن لم يثبت أن هذا هو سبب لنزول تلك الآية.

[8] اشهاد النَّبيﷺ الصحابة على البلاغ ثابت، ولكنَّه لم يصح أنَّه سبب للنزول، انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَابُ حَجَّةِ الوَدَاعِ، برقم4403، 1/176.

8- نزلت هذه الآية بعد أن أخذ أعرابيٌّ سيفَ النبيّ ﷺ يريد قتله، فقال له: "من يمنعك مني؟ "فأجابه النبي ﷺ بثقة: "الله"، فسقط السيف من يد الأعرابي، فحفظ الله نبيَّه وعصمه من شرِّه [1].

9- كان النبي ﷺ يهاب قريشًا واليهود والنصارى، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليزيل من قلبه تلك الهيبة، ويقوِّي عزيمته ويطمئنه بوعده بالنصر والتأييد[2].

10-نزلت هذه الآية في فضل علي بن أبي طالبﷺ، ولما نزلت، أخذ النبي ﷺ بيده، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه"[3].

وعند التأمل في هذه الأسباب يظهر أن بعضها مرتبط باليهود والنصارى، وهذا يوضح وجه اتصال الآية المعترضة بسياقها، إذ نزلت لتطمين النبي ﷺ من مكرهم، وأمره بتبليغ الرسالة جهارًا دون رهبة منهم، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات موجَّه إليهم، فلا يُتصوَّر أن تُدرج هذه الآية في السياق على وجهٍ يكون أجنبيًا أو منقطعًا عما يحيط بها من الخطاب[4].

وقد أوضح ابن عاشور أن ربط الآية بتلك الأسباب قول ضعيف؛ لأن الاحتمال القائل بأنها نزلت قبل نزول هذه السورة لا يُعتد به، إذ يقتضي أن تبقى الآية لسنوات دون أن تُلحق بسورة، وهو ما لا يجوز، كما لا يمكن أن تُتلى الآية مستقلة عن غيرها، وبذلك تسقط جميع الروايات الواردة في أسباب النزول التي نسبت نزولها إلى حوادث وقعت قبل زمن نزول هذه السورة[5].

لذلك تبرز أهمية محاولة كشف ارتباط هذه الآية بسياقها، بصرف النَّظر عن أسباب النزول التي ذكرها المفسرون في بيان سبب نزولها. وعند البحث في كتب التفسير، يظهر أنَّ أقوال المفسرين في بيان ارتباط هذه الآية بسياقها تندرج في ستة توجيهات، وهي على النحو الآتي:

---

[1] أصل القصة ثابت كما عند مسلم دون ذكر سبب النزول، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَابُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، برقم13، 1786/4.

[2] لم يثبت أن النبيﷺ كان يهاب المشركين من قريش وغيرهم، بل إن الثابت عكسه، قَالَ الْبَرَاءُ: "كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّﷺ"، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَابٌ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، برقم79، 140/3.

[3] أخرجه، ابن ماجة: سنن ابن ماجة، المقدمة، باب فضل علي بن أبي طالبﷺ، برقم، 13، 45/1، وحسنه الترمذي، انظر: سنن الترمذي، أبواب المناقب، بَابُ مَنَاقِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُقَالُ وَلَهُ كُنْيَتَانِ: أَبُو تُرَابٍ، وَأَبُو الْحَسَنِ، برقم3713، 74/6، والحديث مختلف بصحته، وقد صححه الألباني، وناقش من قال بضعفه، انظر: الألباني: السلسلة الصحيحة، 1750، 330/4-338.

[4] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 401/12.

[5] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 256/6.

1- أن اللهﷻ أمَّنَ نبيه محمدﷺ مكرَ اليهود والنَّصارى. لمَّا كان السياق عن أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى واعترضت هذه الآية بالالتفات إلى أمر النَّبيﷺ بتبليغ الرسالة، دلَّ ذلك على أنَّ اللهﷻ أمَّن نبيهﷺ من مكر اليهود والنَّصارى الذي عمدوا إلى تكذيب أنبياء اللهﷻ وقتلهم، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:61]، قال الرازي: "واعلم أن هذه الروايات، وإن كثرت إلا أن الأولى حمله على أنَّه تعالى آمنه من مكر اليهود والنَّصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم"[1].

2- أنَّ الآية تثبيت لقلب النَّبيﷺ، وهي نظير قول اللهﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾[المائدة: 41]، فكما عرضت الآية السابقة حال المنافقين، جاءت هذه الآية لبيان حال أهل الكتاب، إذ اشترك الفريقان في عداوتهم للرسول ﷺ، فكان بعضهم يجاهر بعداوته، وبعضهم يخفيها نفاقًا. فجاء الخطاب موجهًا إلى النبي ﷺ من جديد لتثبيت فؤاده وتطمينه، ودعوته إلى الاستمرار في تبليغ الشريعة وبذل الجهد في الدعوة، دون أن يُعير اهتمامًا لطعن الكافرين وأهل الكتاب، لا سيما وأن هذه السورة نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ[2].

قال ابن عاشور: "فكما ثُبِّتَ جَنَانُهُ بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه، حُذِّرَ بالخطاب الثاني من مُلَايَنَتِهِمْ في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعْراضَهم عنه إذا أُنزل من القرآن في شأنهم"[3].

3- أن يكون الأمر بالتبليغ متضمنًا طلب دوام دعوة الإسلام، فاللهﷻ أمر نبيهﷺ، بالعبادة من التكليف حتى الممات، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر:99]، واليقين هنا

[1] الرازي: مفاتيح الغيب، 401/12.

[2] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 256/6-257.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 257/6:

الموت[1]، قال ابن عاشور: "الأمر بالتبليغ مستعمل في طلب الدوام، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ.. ﴾[النساء: 136] ، ولمَّا كان نزول الشريعة مقصوداً به عمل الأمة بها.. كان معنى الرسالة إبلاغ ما أُنْزِلَ إِلَى من يُرَادُ عِلْمُهُ بِهِ وَهُوَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا"[2].

ودوام التبليغ يشمل كل من عاش في عهد النَّبيﷺ؛ لأنَّ دعوة النَّبيﷺ عامة لكل البشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[سبأ:28]، ومن المفترض أنَّ أكثر من يعلم رسالة النَّبيﷺ هم أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ لأنَّه قد أتى ذكر نبيّ آخر الزمان في كتبهم بالتفصيل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، لذلك توسطت هذه الآية هذا السياق لتدلَّ على أنَّ رسالة الإسلام شاملة لكل مخاطب، وأقرب هؤلاء المخاطبين هم اليهود والنَّصارى.

4- تبليغ كل ما نزل دون استثناء، فالآية تؤكد أن الرسول ﷺ مكلَّف بإبلاغ جميع ما أوحاه الله إليه من غير أن يكتم شيئًا، لئلا يُظن أنه ترك تبليغ بعض الوحي. إذ لو كان كتم شيئًا، لكان ذلك مما أُنزل إليه ولم يُبلّغه، وهو أمر مستحيل في حقه ﷺ. ولما كانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن، دلّ ذلك على أن من أهم مقاصدها تأكيد أن الله تعالى أراد نفي كل ظن أو توهّم بأن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي، أو أنه خصّ بعض الناس بما لم يبلّغه للعامة[3].

وهذا فيه رد واضح على من ادَّعى أنَّ النَّبيﷺ لم يبلِّغ شيئاً من الوحي سواء تعلق المُدَّعى باليهود والنَّصارى، أم تعلق بغيرهم، إذ إنَّ شبهة كتمان شيء من العلم، دعوة عند بعض الطوائف المنتسبة

[1] انظر: الواحدي: الوجيز، ص:599.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 258/6.

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 260/6.

للإسلام مثل الشيعة الإمامية[1]، قال ابن عاشور: "فهي أقطع آية لإبطال قول الرافضة؛ بِأَنَّ القرآن أَكْثَرُ مِمَّا هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأنَّ رسول الله اختص بكثير من القرآن علي بن أبي طالب، وأنَّه أورثه أبناءه وأنَّه يبلغ وقر بعير، وأنَّه اليوم مختزن عند الإمام المعصوم الذي يُلَقِّبُهُ بعض الشيعة بالمهدي المُنتظر وبالوصي"[2].

وهذه الشبهة قديمة في زمن ادعائها، إذ إنَّ علي بن أبي طالب بنفسه قد رد عليها، وقد سأل أبو جحفة[3] عليّ بن أبي طالب ﷺ: "هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِمَّا لَيْسَ فِي القرآن؟ وَقَالَ مَرَّةً: مَا لَيْسَ عِنْدَ النَّاس؟ فَقَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عِنْدَنَا إِلَّا مَا فِي القرآن، إِلَّا فَهْمًا يُعْطَى رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: العَقْلُ[4]، وَفِكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ"[5].

فتبليغ النَّبيﷺ رسالة ربهﷻ، كان تاماً كاملاً، قال سيد قطب: "وصاحب الدعوة لا يكون قد بلَّغ عن الله، ولا يكون قد أقام الحجَّة لله على النَّاس، إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة، ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته، بلا مجاملة ولا مداهنة"[6].

5- تقريع اليهود والنَّصارى، والتأكيد على أنَّ النَّبيﷺ لن يكُفَّ عن فضحهم، فقول الله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، جاء الشرط بـ "إن" التي تُستخدم في لسان العرب لِما يُستبعد وقوعه، إذ إن ترك التبليغ غير متصوَّر في حق النبي ﷺ، وإنما ورد الشرط هنا لِيُبنى عليه الجواب

---

[1] والقول بتحريف القرآن الكريم مشهور في أصول الشيعة، وقد وردت روايات تدل على ذلك في كتاب الكافي للكليني منها:
- عن جعفرﷺ أنَّه قال: "ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والأئمة من بعده عليهم السلام". انظر: الكُلَيْني: الكافي، 237/1.
- عن أبي عبد الله ﷺ، قال: "إن القرآن الذي جاء به جبرئيل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية". انظر: الكليني: الكافي، 228/1.
- "أن الله أعطاهم مصحف فاطمة فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات". انظر: الكليني: الكافي، 239/1-240.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 260/6.

[3] وهب بن عبد الله بن مسلم بن جنادة السوائي، صحابي، توفي النبي ﷺ ولم يبلغ الحلم، وسكن الكوفة وولي بيت المال والشرطة لعليّ، فكان يدعوه "وهب الخير" ومات في ولاية بشر بن مروان على العراق سنة 64هـ، انظر: ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري (المتوفى: 630هـ): أسد الغابة، 428/5، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، 1994م، والزركلي: الأعلام، 125/8.

[4] العقل أي الديّة، وإنما سميت به لأنَّهم كانوا يعطون فيها الإبل، ويربطونها بفناء دار المقتول بالعقال، وهو الحبل، ووقع في رواية ابن ماجه بدل العقل الديّات، والمراد أحكامها ومقاديرها وأصنافه، انظر: ابن حجر: فتح الباري، 205/1.

[5] البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب الديّات، باب العاقلة، حديث رقم 6903، 11/9.

[6] قطب: في ظلال القرآن، 941/2.

في قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾، ليوقظ أولئك الذين تمنّوا أن يسكت الرسول عن تلاوة ما نزل من القرآن الفاضح لليهود والمنافقين، وليوبّخ الذين علم الله أنهم سيفترون ويزعمون أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي ولم يبلّغه للأمة[1].

والمتأمل في أسلوب القرآن الكريم يلحظ فرقًا بيّنًا بين خطابه في أوائل العهد المدني وخطابه في أواخره، ويظهر ذلك جليًا عند المقارنة بين سورتي آل عمران والمائدة، إذ يتسم الخطاب في آل عمران بشيء من اللين والرفق، ترغيبًا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى في الإيمان والدخول في دين الله، ومن ذلك:

- ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: 75].
- ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[آل عمران: 110]
- ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: 113].

بينما كان الخطاب في سورة المائدة أكثر شدة، ووضوحاً في الإنكار والتقريع، ومن ذلك قول اللهﷻ:

- ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 17].
- ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: 73].
- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 72].

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 6/261-262.

- ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ [المائدة: 18].
- ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ [المائدة: 64].
- ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ [المائدة: 78].

وهذا يفسِّر سبب اعتراض هذه الآية الآمرة بالبلاغ وسط سياق محاجة أهل الكتاب؛ لأنَّ الحال مع أهل الكتاب في بداية الدعوة يختلف عن الحال في نهايتها بعد البيان والتوضيح، وإقامة الحجة عليهم.

والمتأمل في سياق الآيات قبل هذا النداء وبعده، يدرك أن المقصود منه هو مواجهة أهل الكتاب مواجهة مباشرة، وبيان حقيقتهم التي استحقوا بها الوصف الذي ذكره الله تعالى، إذ إنهم ليسوا على شيء من الدين أو العقيدة أو الإيمان الصحيح؛ لأنهم أعرضوا عن العمل بالتوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، ومن ثمّ فلا وزن لما يدّعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأتباع دين[1]. قال سيد قطب: "والرسولﷺ قد كُلِّف أن يواجههم بهذا القرار الإلهي في شأنهم، وأن يبلِّغهم حقيقة صفتهم، وموقفهم وإلا فما بلغ رسالة ربه"[2].

أخيرا: مما يجلي هذا الارتباط أيضا أنَّ الآية ترتبط بسياقها بكونها أمراً للنَّبيﷺ بتبليغ ما لم ينزل بعد من الرسالة؛ ولعلَّ هذا من أوضح الروابط بين هذه الآية المعترضة وسياقها، وفيه كذلك توضيح للإشكال الذي ذكره ابن عاشور، وهو كيف يأمر اللهﷻ نبيه بالتبليغ، وقد اكتملت الرسالة، وأتمَّ الله الدين؟

[1] انظر: قطب: في ظلال القرآن، 938/2.

[2] المرجع السابق: 939/2.

وبيان ذلك؛ أنَّ سورة المائدة نزلت في آخر حياة النَّبيﷺ، حيث نزلت قبل حجة الوداع، واكتمل نزولها فيها[1]، وقد التحق النَّبيﷺ بالرفيق الأعلى يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، قال مقاتل: "فَلَمَّا حج حجة الوداع نزلت هَذِهِ الآية يوم عرفة فبركت ناقة النَّبيﷺ لنزول الوحي بجمع، وعاش النَّبيﷺ بعدها إحدى وثمانين ليلة، ثُمّ مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول"[2]، وعلى قول من قال إنَّ النَّبيﷺ توفي في الثاني عشر من ربيع الأول: يكون النَّبيﷺ عاش بعد حجة الوداع ثلاثة أشهر، وبالأيام: قرابة تسعين يوماً، وقد نزل على النَّبيﷺ عدد من الآيات خلال هذه الفترة من سور متفرقة، منها آيات الربا، وقول اللهﷻ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[البقرة: 281][3]، وبعض أهل العلم يرى كذلك أنَّ سورة التوبة نزلت بعد سورة المائدة[4].

وعلى فرض أنَّه لم ينزل بعد حجة الوادع شيء من القرآن الكريم، فإنَّ النَّبيﷺ عاش بين الصحابة مدة تسعين يوماً، يتكلم معهم، ويعلمهم، ويربيهم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ومعروف أنَّ كلام النَّبيﷺ كله وحي من اللهﷻ، فقد قال النَّبيﷺ لعبد الله بن عمرو حينما نهاه النَّاس عن الكتابة: "اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يخَرَجَ مِنْه إِلَّا حَقٌّ"[5]. وأهم ما يقوله الإنسان هو ما يصدر عنه في آخر عمره، فكيف بأهمية كلام النَّبيﷺ في آخر حياته! فهذه الآية تحمل دلالة للمسلمين على وجوب الاهتمام بكل ما صدر عن النَّبيﷺ في أواخر حياته. وكان من أبرز ما ركَّز عليه النَّبيﷺ في أيامه الأخيرة مخالفة أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، وهو ما ينسجم مع الأمر الوارد في الآية المعترضة بتبليغ الرسالة، ويدلُّ على ذلك عدد من الأوامر التي وجَّهها النَّبيﷺ في تلك الفترة لأمته، تأكيداً لمخالفة اليهود والنَّصارى، ومن ذلك:

---

[1] أخرج الطبري عن الربيع قال: نزلت "سورة المائدة" على رسول اللهﷺ في المسير في حجة الوداع، وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها" ويشهد لذلك أن قول اللهﷻ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: 3] ثابت أنها نزلت في حجة الوداع، انظر: الطبري: جامع البيان، 531/9.

[2] مقاتل: تفسير مقاتل، 453/1.

[3] سبق بيانه: ص:110.

[4] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 43/1.

[5] أبو داود: سنن أبي داود، كتاب العلم، باب في كتاب العلم، رقم 3646، 318/3، وقد وصححه الحاكم والذهبي والعراقي والألباني وشعيب الأرناؤوط وآخرون في تحقيقهم للمسند، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 187/1، والعراقي: المغني عن حمل الأسفار، ص: 851، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، 45/4، وهامش المسند، 58/11.

1- الأمر بصيام يوم تاسوعاء من السنة التي توفي فيها النَّبيﷺ، فقد كان يوم عاشوراء بعد حجة الوداع، أي بعد نزول هذه الآية، وقبل وفاتهﷺ بنحو شهرين، قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: "لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ"[1]، علما أنَّ النَّبيﷺ صام يوم عاشوراء بداية قدومه المدينة المنورة[2]، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "أَنَّ النَّبيﷺ، لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ، وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا، يَعْنِي عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ، فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ"[3]. فكان صيام النَّبيﷺ والصحابةﷺ، موافقاً لليهود في صيام اليوم العاشر فقط، واستمر الحال كذلك إلى السنة التي توفي فيها النَّبيﷺ فصام العاشر ورغَّب في صيام التاسع من السنة المُقبلة، والقصد مخالفة اليهود في صيامهم، وهذا تحول ظاهر في رغبة النَّبيﷺ في آخر عهده بمخالفة اليهود والنَّصارى.

2- النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد، ومخالفة اليهود والنَّصارى، وذلك في مرض النَّبيﷺ الأخير، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: "لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ والنَّصارى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ"[4]. وكان ذلك تأكيدًا على تحذير المسلمين من الغلو في القبور حتى لا يُفتنوا كما افتتن أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى بأنبيائهم.

3- الأمر بإخراج المشركين من اليهود والنَّصارى من جزيرة العرب فعن ابن عباسﷺ: أنَّ النَّبيﷺ أوصى يوم الخميس قبل موته: "أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ"[5]، أي إن هذه

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصيام، بَابُ أَيُّ يَوْمٍ يُصَامُ فِي عَاشُورَاءَ، برقم134، 798/2.

[2] مر صيام يوم عاشوراء بأربع مراحل، وهي:

1- صيامه في الجاهلية.

2- صيام اليوم العاشر على سبيل الوجب قبل فرض رمضان.

3- صيام اليوم العاشر على سبيل الاستحباب بعد فرض رمضان.

4- صيام التاسع والعاشر بعد حضّ النبيﷺ على ذلك في السنة التي توفي فيها، وهذه هي السنة الماضية في أمة محمدﷺ.

ودليل هذا التقسيم ما ذكرت من احاديي في النص أعلاه، بالإضافة إلى حديث عائشة رضي الله عنها: قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ، انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصوم، بَابُ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، برقم2002، 44/3.

[3] البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: 9] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، برقم3397، 153/4، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الصيام، بَابُ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، برقم1130، 796/2.

[4] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَبْرِ النَّبِيِّﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، برقم1390، 102/2، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، برقم19، 376/1.

[5] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابٌ: هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ؟، برقم 3053، 69/4.

الوصية كانت قبل وفاة النَّبيﷺ، بأربعة أيام، وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾[التوبة: 28].

4- الأمر بإنفاذ بعث أسامة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قَالَ: "بَعَثَ النَّبيﷺ، بَعْثًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ"[1]، وهذا هو بعث أسامةﷺ المشهور الذي أنفذه أبو بكر بعد وفاة النَّبيﷺ، وقد حدد النَّبيﷺ وجهة بعث أسامة إلى بلاد الشام "وَأَمَرَهُ أَنْ يُوطِئَ الْخَيْلَ تُخُومَ الْبَلْقَاءِ[2] وَالدَّارُومِ[3] مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ"[4]، الخاضعة في ذلك الوقت للإمبراطورية الرومية ذات الديانة النَّصرانية، فكأنَّ النَّبيﷺ بعد أن انتهى من حرب اليهود بعد إجلاء قبائلهم التي كانت تسكن المدينة المنورة، وفتح خيبر وتخريب حصونها، أعلن الحرب على النَّصارى، وهذا ما فهمه صحابته الكرام بإنفاذ بعث أسامة، وفتح بلاد الشام من بعده. فكانت هذه الروايات دعوةً صريحةً إلى مخالفة اليهود والنَّصارى، وقد وردت بعد حجة الوداع: أي بعد نزول سورة المائدة. وكلُّها أحاديث وأوامر مهمة، تحمل قوة البلاغ، وتُظهر مبدأ مخالفة اليهود والنَّصارى، لذلك كانت هذه الآية المعترضة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: 67]، تتسق مع موضعها في سياق محاجة أهل الكتاب، فدين الإسلام قد اكتمل بنزول قول اللهﷻ ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾، وبقي الجهر بالعداء لليهود والنَّصارى، وكلِّ مشركٍ حتى يظهر دين الإسلام على الدين كله، مصداقاً لقول اللهﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ

---

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبيﷺ، بَابُ مَنَاقِبِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ، برقم3730، 23/5.

[2] من أعمال دمشق، بين الشام ووادى القرى قصبتها عمّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبالتقسيم الحديث تقع في الجزء الغربي من الأردن، ينظر: ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، 219/1.

[3] قلعة بعد غزّة للقاصد إلى مصر، بينها وبين البحر مقدار فرسخ -والفرسخ في حدود الخمسة كيلو متر تقريبا-، وهي بتقسيم اليوم دير البلح من قطاع غزة المحاصر، فرج الله عنهم، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، 508/2.

[4] ابن هشام: السيرة، 606/2.

ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1]. وبذلك يُفهم من هذا السياق أنَّ النَّبيﷺ أخَّر التصريح بمعاداة اليهود والنَّصارى تألُّفاً لقلوبهم، وطمعاً في إسلامهم، فأمر اللهﷻ نبيهﷺ بالصدع بالحق وإظهار معاداتهم، بما يتناسب مع سياق مجادلة أهل الكتاب، ويظهر فائدة الاعتراض في إبراز معانٍ دقيقة وخفية لا تظهر إلا به.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية بمحور السورة الرئيس الذي يحضُّ على الوفاء بأحكام اللهﷻ بشكل واضح، فهي آية مثبتة لقلب النَّبيﷺ حتى يبلِّغ دين اللهﷻ كاملاً وافياً، فيكون النبي وفياً في تبليغ رسالة ربه غير منقص منها، ويكون هذا البلاغ حجة على الأمم الأخرى من اليهود والنَّصارى وعموم المشركين، بما يشمل من مواعظ وهداية وأحكام، فيتميز دين الإسلام النقي غير المحرف، عن الشرائع المحرفة التي اعتدى عليها أتباعها.

المطلب الخامس: الآيات المعترضة في سورة الأنفال

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة الأنفال سورة مدنية[2]، عدد آياتها خمس وسبعون آية، وهي الثامنة في ترتيب المصحف، والثانية في النزول بعد الهجرة، وقد نزلت عقب معركة بدر الكبرى التي وقعت في السنة الثانية من هجرة الحبيب المصطفىﷺ[3]، لذلك سُمِّيتْ سورة بدر، حيث سأل سعيد بن جبير ابن عباس، "قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: آلتوبة؟ قال: بل هي الفاضحة.. قال قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر"[4].

الفرع الثاني محور السورة الرئيس؛ تنظيم شؤون المجتمع المسلم في حالتي الحرب والسلم، وقد اعتبر صاحب المنار أنَّ من القواعد المهمة لسورة الأنفال، "المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق في السلم

[1] وهذه الآية وردت في ثلاث سور وهي: سورة التوبة والفتح والصف، وقد بيَّن السيوطي ترتيب السور من حيث النزول، وذكر أن آخر السور نزولا هي سورة الصف والفتح والمائدة والتوبة على الترتيب، وهذا يُظهر أنَّ من أهم مقاصد القرآن الذي نزل في آخر حياة النبيﷺ إظهار قوة الدين وظهوره على كل الشرائع السابقة المحرفة، حتى لا يغتر بها أحد بعد دعوة الإسلام، انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 43/1.

[2] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 40/1.

[3] الفيروزآبادى: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 99/1.

[4] مسلم: صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، برقم3031، 2322/4.

والحرب"[1]، وهذا يتناسب مع سورة المائدة السابقة لها، والتي كان محورها الوفاء بعهد اللهﷻ بما هدى إليه الكتاب الكريم. فكانت سورة الأنفال، وكأنَّها تطبيقٌ عمليٌّ على هذا الوفاء بعهد اللهﷻ في السلم والحرب، قال سيد قطب: "هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل في حياة الجماعة المسلمة، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التي تواجه بها هذه الحالة"[2].

الفرع الثالث الآيات المعترضة في سورة الأنفال: تظهر في موضع واحد، وهو مع سياقه، قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ الأنفال [20-24].

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: شبه اللهﷻ في هاتين الآيتين الكفَّار الذين يصُمون آذانهم عن سماع الحق والإيمان به، بالحيوانات التي لا تعقل الخطاب ولا تفهمه، ثم أخبر اللهﷻ أنَّه لو علم فيهم نيةً صالحةً لسماع الحق، لأسمعهم القرآن بحججه وبراهينه، ولكنَّهم لن يستفيدوا منه لقصدهم التولي والإعراض عنه. ووجه الشبه أن الحيوانات تسمع الكلام دون فهمه، لذلك فهي لا تستطيع أن تعبر عمَّا تريد، وهم في إعراضهم شابهوا الحيوانات في هذه الصفة.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: وردت هاتان الآيتان في سياق مجموعة من الأوامر للمؤمنين، واعترض هذا السياق آيتان تصفان حال الكافرين في عدم استجابتهم لأوامر اللهﷻ أو الانتفاع بآياته[3]. **قال ابن**

[1] رضا: تفسير المنار، 126/10.

[2] قطب: في ظلال القرآن، 1539/3.

[3] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 305/9.

عاشور: "وجملة: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾، **معترضة**، وسوقها في هذا الموضع: **تعريض** بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون؛ بأنَّهم يشبهون دواب صمَّاء بكماء"[1]. وقال دروزة: "الآيات تبدو فصلاً مستقلاً عن السياق السابق"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآيتين بسياقهما من وجهين، وهما:

1- المبالغة في الزجر والتحذير؛ فذِكْرُ حال الكافرين وسط سياق أمر اللهﷻ لعباده المؤمنين بالالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، فيه مبالغة في تذكير الذين آمنوا ألَّا يشابهوا الكفار في صفاتهم، فتتدنى مكانتهم الآدمية التي كرمهم اللهﷻ بها: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[الإسراء: 70] إلى صفات الحيوانات التي لا تعقل ولا تسمع. قال أبو السعود: "﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ كمالِ سوءِ حالِ المشبه بهم مبالغةً في التحذير وتقريراً للنَّهي"[3].

فظاهر الكلام موجه إلى الكفَّار وسياقه ومدلوله تحذير للمؤمنين، قال محمد رشيد رضا: " ولم يصفهم هنا بالعمي كما وصفهم في آية الأعراف وآيتي البقرة؛ لأنَّ المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن"[4].

ومن أمثلة التعريض قول القائل، إذا سمع رجلًا يسبُّ مسلمًا أو يضربه: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[5]، فهو لا يقصد الإخبار المباشر، بل يلمّح إلى لوم الفاعل وتعنيفه. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ﴾، فليس المقصود لازم معنى الألفاظ أو الكلام، وإنما المراد لازم

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، 9/ 305.

[2] دروزة: التفسير الحديث، 75/7.

[3] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 15/4.

[4] رضا: تفسير المنار، 522/9.

[5] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، برقم10، 13/1، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ تَفَاضُلِ الإِسْلَامِ، وَأَيُّ أُمُورِهِ أَفْضَلُ، برقم65، 65/1.

النطق بها في ذلك الموضع، دون حاجة إلى خبرٍ حقيقي أو مجازي أو تمثيلي، فهي تعريض بتشبيه الكافرين بالدواب في غلظ طباعهم وعمى بصائرهم[1].

2- الثبات بقطع الأمل في إيمان بعض الكافرين، فتشبيه اللهﷻ بعض الكافرين بالحيوانات ثابت في القرآن الكريم في عدة آيات[2]، وكل هذه الآيات تصف الكافرين بأنَّهم يشتركون مع الأنعام في عدم الإدراك، وهذا يخفِّف على الداعية المسلم، الذي يرغب في هداية النَّاس، بإعلامه أنَّ بعض البشر مهما فعلت لهم، لن يؤمنوا؛ لأنَّهم لا يستمعون للخطاب، والآية المعترضة الثانية، تؤكد على هذا المعنى؛ وذلك أنَّه على فرض سماعهم الخطاب، فإنَّهم لن يؤمنوا؛ لأنَّ التكبُّر والعصيان متجذران في قلوبهم، وهذا بدوره يخفِّف على الداعية، ليُدركَ أنَّ الخلل ليس في دعوته أو منهجه. لذلك قال اللهﷻ لنبيه:

- ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص: 56].
- ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: 8].

فتكون هذه الآيات من حيث موقعها في هذا السياق، وبما حملته من معان، من جهة تقريعاً للظالمين وذمَّاً شديداً لهم، ومن جهة أخرى: تثبيتاً للمؤمنين بقطع الأمل في إيمان بعض الكافرين؛ قال ابن كثير: "ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأنَّ كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 305/9.

[2] وهي الآيات هي:

﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179].

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنفال: 55]

﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 44].

الصالح"[1]؛ لذلك قال اللهﷻ: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام: 116].

رابعا: ربط الآيتين المعترضتين بمحور السورة الرئيس: أمَّا ارتباط الآيتين بمحور السورة الداعي إلى تنظيم شؤون المجتمع المسلم في حالتي الحرب والسلم، فيظهر في تمايز الصفوف قبل المعركة، بما قدَّمه السياق من مجموعة من الأوامر للمؤمنين، ويظهر أيضاً من خلال الآيتين المعترضتين اللَّتين عرَّض اللهﷻ بهما عباده المؤمنين حتى لا يشابهوا الكافرين في هذا الخلق الذميم: من صمِّ الآذان وإعماء العيون؛ لأنَّ هذا الفعل صفة ذميمة اتصف بها الكفَّار، قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26]. فيكون الخطاب توعية للصف المسلم بأهم سبل المجرمين الذي أوصلهم لهذه الحالة من التكذيب والعصيان، وهذا الأمر من أصول القرآن الكريم، قال اللهﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 55].

المطلب السادس: الآيات المعترضة في سورة التوبة

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة التوبة: سورة مدنية[2]، وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون آيةً، وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا تبدأ بالبسملة. من أسمائها: التَّوبةُ، وبراءةُ، والفاضِحةُ، قال سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ: "قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا"[3]، فهي السورة التي فضحت المنافقين وكشفت شبهاتهم، وهذا سبب تسميتها بأسماء كثيرة منها: سُورَةُ العَذَابِ، الفَاضِحَة، المُخْزِيَة، المُقَشْقِشَة، المُثيرَة، الحَافِرَة،

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 34/4.

[2] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 40/1.

[3] البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سُورَةُ الْحَشْرِ، برقم4600، 1852/4.

المُنَقِّرَة، المَبعَثِرَة، المُشَرِّدَة، المُنَكِّلَة، المُدَمدِمَة، البَحُوث[1]. وهي من آخر السور نزولاً إذ نزلت بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة. وقد عدَّها الزركشي، السورة قبل الأخيرة في النزول بعد الفتح وقبل المائدة[2]، أما السيوطي فجعلها آخر السور نزولا على الإطلاق بعد المائدة[3]، والصواب أنَّها آخر السور نزلت كاملة، فعن الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: "آخِرُ سُورة نَزلت كَاملةً بَراءة"[4].

الفرع الثاني محور السورة الرئيس؛ قريب من محور سورة الأنفال لشدة التقارب والاتصال بينهما، "فهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه"[5]، قال ابن عباس ﷺ: "قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ، وَإِلَى الأنفال وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، فَجَعَلْتُمُوهُمَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قَالَ عُثْمَانُ: كَانَ النَّبي ﷺ مِمَّا تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ: ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَتَانِ فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَانَتِ الأنفال مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ القرآن، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ هُنَاكَ وَضَعْتُهُمَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾"[6].

لذلك يمكن القول إن محور سورة التوبة الرئيس هو: تنظيم شؤون المجتمع المسلم؛ وذلك بالبراءة من المشركين والمنافقين وتثبيت المؤمنين[7]، وهذا قريب ممَّا ذكره كل من:

---

[1] انظر: سميت براءة: سميت بها لافتتاحها بها، والتوبة: لتكرارها فيها، والفاضحة لأنها فضحت المنافقين، وسورة العذاب: وذلك لتكرره فيها، والمقشقشة؛ لأنها مبرئة من النفاق، والمنقرة؛ لأنَّها نقرت عما في قلوب المشركين. والبحوث: أي بحثت، صيغة مبالغة، والحافرة؛ لأنَّها حفرت عن قلوب المنافقين، أي بحثت عنها، مجازا، والمثيرة؛ لأنَّها أثارت مثالبهم وعوراتهم أي أخرجتها من الخفاء إلى الظهور، والمبعثرة؛ لأنَّها بعثرت أسرارهم أي أظهرتها، والمدمدمة: أي المهلكة لهم، المخزية؛ لأنَّها كشفت خفايا قلوبهم وأخزتهم، والمنكلة: أي المعاقبة لهم، المشرّدَة: أي الطاردة لهم والمفرقة جمعهم. انظر: الزمخشري: تفسير الكشاف، 241/2، والقاسمي: محاسن التأويل، 343/5.

[2] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1.

[3] انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 43/1.

[4] البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب: حَجُّ أَبِي بَكْرٍ بِالنَّاسِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، برقم 6106، 1586/4.

[5] رضا: تفسير المنار، 132/10.

[6] أخرجه ابو داود: أبي داود، كتابة الصلاة، باب الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، برقم786، 90/2، والترمذي: سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، برقم، 3086، 273/5، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَوْفٍ، عَنْ يَزِيدَ الفَارِسِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ"، وهو حديث دائر بين الحسن والضعيف، فقد حسَّنه ابن حجر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني و شعيب الأرنؤوط وآخرون في تحقيقهم للمسند، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 360/2، ابن حجر: موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، 45/1، والألباني: ضعيف أبي داود، 306/1، هامش المسند، 460/1.

[7] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 153/2، ورضا: تفسير المنار، 132/10، وخليل: أول مرة اتدبر القرآن، ص:66

- البقاعي: "مقصودها معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه"[1].
- محمد دروزة: "وآيات سورة التوبة التي تعلن البراءة من المشركين وتأمر بقتالهم إلى أن يتوبوا ويؤمنوا"[2].

الفرع الثالث الآيات المعترضة في سورة التوبة: تظهر في موضع واحد. وهو مع سياقه، قول اللهﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 58-61].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: بيَّن اللهﷻ في هذه الآية الكريمة مصارف الزكاة الثمانية، وهي: للفقراء والمساكين والعاملين عليها: أي في تحصيل الزكاة، والقيام على أمرها، والمؤلفة قلوبهم ممن دخلوا الإسلام حديثا، وفي الرقاب: أي تحريرهم من الرق، والغارمين: أي أصحاب الدين الملجئ، وفي سبيل اللهﷻ: أي الجهاد في سبيل اللهﷻ، وابن السبيل الذي انقطعت به السبل، وفي نهاية الآية يبيّن اللهﷻ أنَّ هذه العبادة فريضة عظيمة من اللهﷻ، والله عليم بما يُصلح عباده حكيم بإدارة شؤونهم، قَالَ تَعَالَى:

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 350/8.
[2] دروة: التفسير الحديث، 33/2.

﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[الملك: 14][1]. وقد أطال المفسرون كثيراً في تفسير هذه الآية؛ لأنَّها تُبيّن مصارف الزكاة الثمانية. فقد بيَّن القرطبي لمَّا عرض هذه الآية أنَّ فيها ثلاثين مسألة[2]، وعرضها الرازي في عشرات المسائل[3].

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين، واعترضت الآية بموضوع جديد يحدد مصارف الزكاة، والاعتراض في الآية واضح؛ لأن الواو في قوله تعالى: ﴿ومنهم﴾، عاطفة على ما قبل الآية المعترضة، قال ابن عاشور: "هذه الآية اعتراض بين جملة: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة: 58] وجملة ﴿ومنهم الذين يؤذون النَّبيء﴾[التوبة: 61] الآية"[4].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: اهتم المفسرون بهذه الآية اهتماماً بالغاً، لأهميتها واتصالها بالركن الثالث من أركان الإسلام، وكان لموضعها في سياق الحديث عن المنافقين نصيب واضح من الاهتمام، فكانت توجهاتهم حول سبب وقوع الاعتراض فيها تدور حول ثلاثة أمور، وهي:

1- الردُّ على اعتراض المنافقين في تقسيم الصدقات، فقد ورد في السياق السابق اعتراض المنافقين على قسمة النَّبيﷺ للصدقة، قال ابن كثير: "لمَّا ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النَّبيﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بيَّن تعالى أنَّه هو الذي قسَّمها، وبيَّن حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين"[5].

وقد أوضح الطبري أن الله تعالى جعل الصدقة على وجهين:

أولهما: سدُّ حاجة المسلمين المحتاجين، وثانيهما: معونة الإسلام وتقوية دعائمه.

---

[1] انظر: الواحدي: الوجيز، ص:469.

[2] انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 167/8.

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 77/16-89.

[4] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 10/ 234.

[5] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 165/4.

فما كان منها في سبيل تقوية الإسلام ونصرة الدين، جاز أن يُعطى منه الغني والفقير على السواء، لأن المقصود به ليس سدَّ الحاجة، بل دعم الدين وإعلاء كلمته؛ كما يُعطى المجاهد في سبيل الله سواء كان غنيًّا أو فقيرًا، إذ العطاء هنا لأجل الغزو والجهاد لا لحاجته الشخصية. وكذلك المؤلَّفة قلوبهم يُعطَون من أموال الصدقة، وإن كانوا من الأغنياء، لما في ذلك من استمالة قلوبهم، وتقوية شأن الإسلام، وتأييده في نفوس الناس[1].

وهذه المعاني الدقيقة لا يفهمها المنافقون الذين يسخرون من المؤمنين على أي حال كان، فعن ابن مسعودﷺ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ:﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ الآيَةَ[2].

2- الردُّ على لمز المنافقين النَّبيﷺ في الصدقات، فقد ورد في السياق السابق للآية المعترضة: قول اللهﷻ:﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾[التوبة: 58]، قال الرازي: "اعلم أنَّ المنافقين لمَّا لمزوا الرسول ﷺ في الصدقات، بيَّن لهم أنَّ مصرف الصدقات هؤلاء، ولا تعلق لي بها، ولا آخذ لنفسي نصيباً منها، فلم يبق لهم طعن في الرسول بسبب أخذ الصدقات"[3].

[1] الطبري: جامع البيان، 316/14.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، بَابٌ: اتَّقُوا النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَالقَلِيلِ مِنَ الصَّدَقَةِ، برقم1415، 109/2.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 77/16.

وهذا يتفق مع تحريم الصدقة والزكاة على النَّبي وآله عليهم السلام، فكانت هذه الصفة دلالة على نبوته، فلمَّا أكل مرة الحسن بين علي رضي الله عنهما، تمرة من الصدقة، أخرجها النَّبيﷺ من فيه، وقال له: "كِخْ كِخْ، أَمَا تَعْرِفُ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ"[1].

3- بيان كمال الشريعة الإسلامية، وأن أصل التشريع من اللهﷻ، سواء لمز المنافقون النَّبيﷺ في قسمته أم رضوا بها، وذلك أنه لما ذكر الله تعالى طعنهم في قسمة الصدقات، وبيَّن ما هو أصلح لهم إرشادًا إلى طريق النجاة، علَّل فعل رسول الله ﷺ فيها، موضحًا أنه لا يصدر عنه إلا الحق الذي لا يجوز في شريعته الكاملة غيره، سواء رضوا أو سخطوا، رغبوا أو زهدوا، فجاء التعبير بأداة القصر تأكيدًا لذلك فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ﴾"[2].

فمصارف الزكاة تشريع إلهي لا يقبل الاجتهاد والمجاملة، فقد أخرج أبو داود أنَّ رجلا أتى النَّبيﷺ، فَقَالَ: "أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ، حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ"[3].

فمصارف الزكاة بيَّنها رب العزة بنفسه[4]، من باب إكمال الشريعة، وتبرئة للنَّبيﷺ من اتهام المنافقين، قال أبو حيان: " لمَّا ذكر تعالى من يعيب الرسول في قسم الصدقات، بأنَّه يُعطي من يشاء ويحرم من يشاء، أو يُخص أقاربه، أو يأخذ لنفسه ما بقي، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون، بيَّن تعالى مصرف الصدقات، وأنَّه إنَّما قسَّم على ما فرضه الله تعالى"[5].

---

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالفَارِسِيَّةِ وَالرَّطَانَةِ، برقم 3072، 74/4.

[2] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 504/8.

[3] أبو داود: السنن، كتاب الزكاة، بَابُ مَنْ يُعْطِي مِنَ الصَّدَقَةِ، وَحَدُّ الْغِنَى، برقم163، 117/2، وهو حديث ضعيف؛ لأن مداره على زياد بن الحارث، وهو ضعيف، أعله المنذري وقال: "في إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنْعُم الأفريقي، وقد تكلم فيه غير واحد، وضعفه الألباني، انظر: المنذري: مختصر سنن أبي داود للمنذري، 477/1، والألباني: ضعيف أبي داود، 124/2، ومع ذلك يمكن الاستئناس به لعدة أسباب منها:

- أنَّ ضعف زياد بن الحارث ليس شديداً، فقد كان البخاري يقوّي أمره ويقول: هُوَ مقارب الحديث، ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، 479/9.
- أنَّ الحديث لا يخالف أصول الشريعة.
- أنَّ كثيراً من المفسرين فسروا الحصر في الآية المعترضة به كما بيَّنت في النَّص أعلاه.

[4] وهو تشريع خالد محفوظ بحفظ القرآن الكريم، كي لا يدخل الحرص والهوى في قسمة المال، مما يؤدي إلى ظلم المستحقين، سواء أكان دافع هذا الظلم الطمع وحب المال، أم النفاق وعدم الخضوع لأمر اللهﷻ.

[5] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 440/5.

ويظهر كذلك ارتباط الآية بسياقها من ثلاث وجوه إضافية، وهي:

1- أنّ هذا الاعتراض ورد في سياق الحديث عن المنافقين، وهو يكشف عن معنى بليغ؛ إذ إنّ الصدقة في حقيقتها برهانٌ على الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ: "والصدقة برهان"[1]، أي دليل على صدق الإيمان، فهي تنبع من قلبٍ موحِّدٍ عامرٍ بالإيمان، يقدّم أمر الله تعالى على حبِّ المال وما جُبل عليه الإنسان من الشح، فتشهد النفقة لصاحبها بالصدق والإيمان.

أمّا المنافقون فلا يملكون هذا البرهان؛ لأن قلوبهم مريضة، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾[البقرة: 10]، ولا نصيب لهم من طهارة القلوب، كما قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[المائدة: 41].

وهذا يفسِّر إقدامَ المؤمن الصادق على النفقة عن حبٍّ وطيبِ نفس، في حين يُعرض المنافقون عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله لما في نفوسهم من خبث، وفي قلوبهم من ظلمة. وهذا المعنى مستفيض في القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة [54].
- ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ ﴾ التوبة [67].
- ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة [81].
- ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ المنافقون [7].

فكان السياق الذي وردت فيه هذه الآية المعترضة، وكأنّه يُفصح عن هذه المعاني الدقيقة الكامنة.

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ، برقم223، 1/ 203.

2- إظهار تناقض المنافقين؛ فهم يُظهرون أنفسهم في كثير من الأحيان أنهم أعلم بالمصلحة من النَّبيﷺ وأحرص على حياة النَّاس، قال اللهﷻ واصفاً حالهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة: 11]، ومع ذلك يلمزون المتصدقين، ويشغِّبون على المُكثر والمُقل، وهذا مضر بأحوال الفقراء والمساكين؛ فكانت الآية المعترضة فيها رد عليهم، وإظهار لتناقضهم بإظهار مصارف الزكاة وعلى رأسهم الفقراء والمساكين.

ولم يتغير حال المنافقين بتغير الزمان والمكان، ففي زماننا يشغِّبون على كل طاعة، حرصاً على مصلحة الفقراء والمساكين المزعومة، فيقولون: إطعام جائع خير من بناء ألف جامع[1]، ولكنَّهم في الوقت نفسه يصمتون صمت القبور أمام الاحتفالات التي تحدث في رأس السنة الميلادية، وغيرها من الاحتفالات التي يُصرف فيها الملايين في سبيل الشيطان.

فكانت هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين، بياناً شافياً ووافياً لكل منافق محرِّف، ممَّن عاش في زمن النَّبيﷺ إلى قيام الساعة، وهو بيان محفوظ بحفظ اللهﷻ لكتابه، فالحمد لله الذي أقام الحجة على خلقه، لئلا يكون لهم عذر عنده، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[النساء: 165].

3- أنَّ الزكاة تزيد في تماسك المجتمع المسلم وقوته؛ وذلك من ثلاثة جوانب:

أ- تعالج الضعف في المجتمع الإسلامي بجبره؛ وذلك بمعالجة ضعف الفقراء والمساكين والغارمين وابن السبيل، وكل هؤلاء عندهم ضعف يُجبر بالزكاة.

ب- تعزز قوة أفراد المجتمع المسلم، فتزيد القوي قوة، بالنَّفقة على المؤلفة قلوبهم، والعاملين عليها، حتى لو كانوا من الأغنياء.

[1] ذكره العَجْلُوني: " لقمة في بطن الجائع أفضل من عمارة ألف جامع"، وبيَّن أنه ليس حديثاً، انظر: العَجْلُوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، 145/2.

ج– تزيد من قوة المجتمع المسلم، وتعزز من صموده بالنَّفقة، في الجهاد في سبيل الله، سواء أكانت هذه النَّفقة على الجند أم في تجهيز العدة والعتاد.

وقد أوضح ابن تيمية في بيانه لمصرف المؤلفة قلوبهم أن الرجل قد يُعطى من الصدقة وإن كان غنيًّا، لأن المقصود من هذا العطاء استمالة قلبه لمصلحة الدين. وهذا العطاء –وإن بدا في ظاهره كأنه تفضيلٌ للرؤساء دون الضعفاء كما يفعل الملوك– فإن العبرة بالنية، فإن كان القصد به نصرة الدين ومصلحة أهله، فهو من جنس عطاء النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، أما إن كان القصد به طلب العلو في الأرض أو الفساد، فهو من جنس عطاء فرعون. ولهذا لا يُنكر هذا النوع من العطاء إلا أصحاب القلوب الفاسدة، كذي الخويصرة الذي أنكر على النبي ﷺ فعله، فقال فيه النبي ما قال[1].

وكل ذلك يقوي المجتمع المسلم ويعزز الوحدة الداخلية فيه، وهذا الأمر أكثر ما يزعج المنافقين الذين يرغبون بتفكك المجتمع، واستمرار ضعفه وهوانه، وتتأكد هذه المعاني بورود هذه الآية التي فصَّلت مصارف الزكاة، في سياق الحديث عن المنافقين.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: تنسجم هذه الآية مع محور السورة الداعي إلى البراءة من المشركين والمنافقين وتثبيت المؤمنين، وذلك بشكل واضح، من خلال الرد على شبهات المنافقين في لمز النَّبيﷺ والقدح في عدالة توزيع الأموال من جهة، وتعزيز التماسك المجتمعي بجبر حال الضعفاء وتحقيق التوازن والتكافل بين الأغنياء والفقراء من جهة أخرى.

[1] انظر: ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص:45.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية للآيات المعترضة في بقية السور المدنية

نالت السور السبع الطوال اهتماماً واسعاً في البحث، لطول آياتها وتنوُّع موضوعاتها، لكنَّ اعتراض الآيات القرآنية ليس خاصاً بها، بل هو أسلوب مطَّرد في جميع السور، سواء الطويلة أم المتوسطة والقصيرة. وفي هذا المبحث سأعرض –بإذن الله تعالى– الآيات المعترضة في السور المدنية من غير السبع الطوال، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الآيات المعترضة في سورة الحج

الفرع الأول: نبذة مختصرة عن السورة: سورة الحج: سورة مختلف في تحديد كونها مكية أم مدنية[1]، وصحح بعض المفسرين أنَّها مختلطة، قال ابن عطية: "وقال الجمهور مختلطة فيها مكي ومدني وهذا هو الأصح، والله أعلم؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك"[2]، ومثل ذلك قاله القرطبي[3]، وقد اتفق الزركشي والسيوطي في عدِّ سورة الحج مع السور المدنية[4]. وعدد آياتها سبع وثمانون آية، وهي من أعجب السور شأنًا، إذ نزلت في أحوال متعددة؛ نزلت ليلًا ونهارًا، في السفر والحضر، بمكة والمدينة، في السلم والحرب، واشتملت على الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه[5]، وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي تحتوي على سجدتين، وهذا من فضلها، فعن "عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ القرآن بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَالَ: "نَعَمْ"[6].

---

[1] انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 220/3، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 1/12.

[2] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 105/4.

[3] انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 1/12.

[4] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 43/1.

[5] انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 1/12.

[6] أحمد: المسند، مسند الشاميين، حَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، برقم 17364، 593/28، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده دون قوله: "فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما" حسنه الحاكم وابن كثير، الألباني والأرنؤوط ومعه آخرون ممن حققوا المسند، وقد أورد ابن كثير في تفسيره الحديث بشواهده ثم قال: "فهذه شواهد يشد بعضها بعضا"، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 423/2، تفسير القرآن العظيم، 405/5، والألباني: صحيح أبي داود، 147/5.

الفرع الثاني: محور سورة الحج الرئيس: وجدت صعوبة في تحديده أكثر من باقي السور، إذ إن موضوعات سورة الحج متشعبة، وقد ذكر المفسرون أكثر من محور لها. وأبرز ما ذكروه في ذلك:

أ- قول البقاعي: "مقصودها الحثُّ على التقوى المُعْلِيَةِ عن دركة الاستحقاق للحكم بالعدل إلى درجة اسْتِتْهالِ الإنعام بالفضل، في يوم الجمع للفصل، وأنسب ما فيها لذلك الحج"[1].

ب- ويرى الطنطاوي أنَّ من أبرز ما اهتمت به سورة الحج: "إقامة الأدلة على وحدانية الله- تعالى- وعلى أنَّ البعث حق، بأسلوب منطقي واضح، يقنع العقول ويهدي القلوب"[2].

ج- وقال ابن عاشور: "ومن أغراض هذه السورة: خطاب النَّاس بأمرهم أن يتقوا الله، ويخشوا يوم الجزاء وأهواله"[3].

د- وقال سعيد حوى: "إن سورة الحج تفصِّل في قضية العبادة والتَّقوى "[4].

لذلك فإنَّ المحور الأساسي الظاهر في سورة الحج كما بيَّنه المفسرون، هو: تحقيق التقوى والعبادة، وقد أوضحت سورة الحج أنَّ الذي يعين المؤمن على ذلك، اعتقاد وعمل، أمَّا الاعتقاد فهو الايمان بالبعث، الذي يجعل قلب المؤمن دائم الوجل والخوف من اللهﷻ، وأما العمل؛ فهو الحج الذي يعيد المؤمن كيوم ولدته أمه؛ فبذلك يكون محور السورة الرئيس: تحقيق التقوى والعبادة عن طريق الحج والإيمان بالبعث.

الفرع الثالث: الآيات المعترضة في هذه السورة: وجدتها تقع في موضع واحد[5]، وهو مع سياقه، قول اللهﷻ: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

[1] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1/13.

[2] الطنطاوي: التفسير الوسيط، 269/9.

[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 183/17.

[4] حوى: الأساس في التفسير، 3584/7.

[5] اكتفيت ببحث آية واحدة مع أنَّه ورد موضعان آخران معترضان في سورة الحج، لكنَّ معناهما وسياقهما قريب من هذه الآية، ولذلك لأن سبب اعتراضهما يشابه سبب اعتراض هذا الموضع. وفي بحثهما كثير من التشابه، والآيتان هما:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ ﴾ [الحج: 23-24]

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ الحج [12-15].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: يؤكِّد اللهﷻ على حقيقة من حقائق القرآن؛ أنَّه سوف يدخل الذين آمنوا بالله ورسوله، وأتبَعوا هذا الإيمان بالعمل الصالح الخالص لوجهه جل في علاه، جنَات تجري من تحتها الأنهار، ثم أكَّد أنَّه يفعل ما يريد من ثواب أهل الطاعة برحمته، وعقاب أهل المعصية بعدله.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق تقريع اللهﷻ للكافرين والمنافقين الذين يجادلون بغير علم؛ فقد ورد قبلها قول اللهﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ [الحج: 8]، وهم كذلك يعبدون الله على حرف، عبادة شكٍّ وتقلُّب، لا تثبت لصاحبها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[الحج: 11]، وإذا أَلمَّت بهم حاجة سألوا غير الله: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾[الحج: 12]، ويستمر السياق بعد الآية المعترضة في وصف حال هؤلاء المعاندين؛ أنَّهم فوق ذلك لا يحسنون الظن باللَّهﷻ ولا يأملون نصرته ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾[الحج: 15]. قال ابن عاشور: "وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض"[1].

ثالثاً: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: تتشابه بعض الآيات المعترضة في اعتراضها لسياقها، ولذلك تتشابه في تعليل سبب هذا الاعتراض. فكثيرٌ من الآيات تعترض بالبشارة وسط آيات الإنذار، أو

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 217/17.

بالإنذار وسط آيات البشارة، فيكون ذلك من قبيل المقابلة، ولا يخلو موضع من القرآن الكريم من فوائد إضافية، وأبرز توجيهات المفسرين لاعتراض هذه الآية ما يأتي:

1- أسلوب المقابلة، فقد ورد في السياق السابق، قول اللهﷻ: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: 9]، فكما بيَّن اللهﷻ مصير الكافرين، اعترض السياق بيان مصير المؤمنين المتقين. قال ابن كثير: "لمَّا ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وَصَدَّقُوا إيمانهم بأفعالهم.. ولمَّا ذكر أنَّه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾"[1]. وقال ابن عاشور: "هذا مقابل، قوله: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[الحج: 9] وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [الحج: 11]. فالجملة معترضة"[2].

وفي هذه المقابلة تقريعٌ للكافرين وسخريةٌ منهم؛ إذ لمّا رَكَنوا إلى آلهتهم التي لا تضرّ ولا تنفع في الدنيا، قال اللهﷻ: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [الحج: 12]، وهي مضرة بصاحبها في الآخرة، قال اللهﷻ: ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ ﴾ [الحج: 13]، وهي نظير قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:25]. قال ابن جزي: "لمَّا ذكر أنَّ الأصنام لا تنفع من عبدها، قابل ذلك بأنَّ الله ينفع من عبده بأعظم النَّفع، وهو دخول الجنة"[3].

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 401/5.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 217/17.

[3] ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، 34/2.

وقد بيَّن أبو حيان أن هذه الآية مرتبطة أشد الارتباط بما قبلها وما بعدها، إذ لما ذكر الله تعالى حال من يعبده على حرف، فذمّ اضطراب رأيه وتوعّده بالخسران في الآخرة، أتبع ذلك ببيان حال المؤمنين الصادقين وما أعدّ لهم من الجزاء الحسن، ثم عاد إلى توبيخ أولئك العابدين على حرف، كأنه يقول: هؤلاء تملّكهم القلق والاضطراب، وظنّوا أن الله لن ينصر محمدًا ﷺ وأتباعه، مع أن الله أمرهم بالصبر وانتظار وعده الحق، فمن ظنّ غير ذلك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي فليختنق بحبلٍ ولينظر هل يذهب ذلك غيظه[1].

2- تثبيت المؤمنين، فالنُّفوس تألف المكافأة بالنَّعيم، وتخاف العقاب بالجحيم، وهذا كثير مستفيض في القرآن الكريم، فالمؤمن يعبد اللهﷻ بين الخوف والرجاء؛ لذلك فإنَّ اللهﷻ كثيراً ما يجمع بين التذكير بالثواب للمؤمن، والعقاب للعاصي والكافر في موضع واحد[2]، فكان الاعتراضُ وسطَ وعيد الله للكافرين والمنافقين من هذا القبيل، قال سيد قطب -بعد ذكره الآية المعترضة-: "فمن مسَّه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضراء، وعلى العوض والجزاء"[3].

3- إبراز سنة الله في النَّصر، فالإنسان بطبعه يحب أن يشاهد عاقبة الكافرين والمنافقين، ولكنَّ اللهﷻ لم يعد المؤمنين أن يشاهدوا النَّصر بأعينهم، وهذا المعنى ذَكَّر اللهﷻ به أنبياءه في كتابه، في عدة مواضع[4]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:46]. فيكون الاعتراض تذكيراً للمؤمنين بالنَّعيم والجزاء

---

[1] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 492/7.

[2] ومن ذلك قول اللهﷻ:

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:98].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:167].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد:6].

[3] قطب: في ظلال القرآن، 2413/4.

[4] من ذلك قول اللهﷻ:

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد:40].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر:77].

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف:41-42].

العظيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين، حتى ينسوا كل بلاء مسَّهم في الدنيا، ويتأكد هذا المعنى بالآية التي تلي الآية المعترضة: قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: 15].

والفوز الأخروي فوز حقيقي، حتى لو كانت النَّتيجة في الدنيا خلاف ذلك، فقد عقَّب اللهﷻ قصة أصحاب الأخدود الذين حُرِّقوا في الأخاديد في الدنيا، بقوله جل في علاه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[البروج: 11]، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي اقترن فيه الفوز بوصف الكبير. وهذا المعنى قد يغيب على بعض المؤمنين الذين يحبون أن يشاهدوا النَّصر بأعينهم، وربما استأخروا النَّصر إذا اشتد الكرب، كما أخبر رب العزة بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾[البقرة: 214]، فيكون الاعتراض فيه لفت أنظار المؤمنين في كل زمان ومكان، أنَّ النَّصر الحقيقي هو الفوز في الآخرة بجنة اللهﷻ، أمَّا النَّصر في الدنيا: فقد يراه المؤمن، وقد يغيب عنه، وهذه سنة من سنن الله في الأرض، قد جرت على كثير من الأنبياء الذين قتلوا ولم يحقق الله لهم النَّصر والغلبة في الدنيا.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية بمحور السورة الداعي للإيمان والتقوى، فأكثر ما يثبِّت المؤمن في حياته الدنيا: النَّظر لما أعده الله للمؤمنين في الجنَّة من نعيم، فينسى المؤمن هموم الدنيا، وشواغل الطريق، وصعوبة المسير، وعقبات أهل الباطل في طريق الحق. قال سعيد حوى: "لاحظ أن الآية الرابعة بعد آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ في سورة البقرة هي: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وتذكَّر أنَّ آخر آية في هذه المجموعة هي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، لتجد الصلة قائمة بين المحور، وامتداداته من سورة البقرة، وبين هذه المجموعة"[1].

المطلب الثاني: الآيات المعترضة في سورة النُّور

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة النور: سورة مدنية ونقل الإجماع على ذلك[2]، وعدد آياتها أربع وستون آية، نزلت آياتها في براءة أمنا عائشة رضي الله عنها، وفضح المنافقين الذين وقعوا في عرضها، حيث قالت: "وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقرآن فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِﷺ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: "يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ"، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ، فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ "[3].

الفرع الثاني محور السورة الرئيس: تباينت كلمة المفسرين المهتمين بتحديد محور السورة على أكثر من قول، ومن أهمّها ما ذكره:

أ- البقاعي: حيث بين أن مقصود السورة هو ما دل عليه اسمها المودَع في قلبها، وهو بيان أن الله تعالى محيط العلم، ومن لازم علمه تمام قدرته، ومن لازم قدرته إحكام أفعاله على أكمل وجوه الحكمة، ومن لازم ذلك تكريم النبي ﷺ ورفع شأنه، وتفضيل من اختارهم الله لصحبته بحسب قربهم منه واختصاصهم به، ومن تمام ذلك تنزيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وإثبات طهارتها

[1] حوى: الأساس في التفسير 7/ 3534.

[2] قال ابن الجوزي: "وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ كُلُّها بِإِجْماعِهِمْ"، وقال البقاعي: "مدنية كلها إجماعاً" انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 275/3. والبقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 309/2.

[3] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، بَابُ اليَمِينِ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ، وَفِي المَعْصِيَةِ وَفِي الغَضَبِ، برقم6679، 176/3.

وشرفها، إذ توفي النبي ﷺ وهو راضٍ عنها، وتوفيت هي على صلاحٍ وإحسان، وهذا هو المقصود الأساس من السورة، غير أن إثباته لا يتم إلا بتلك المقدمات التي سبقت في السياق[1].

ب- سيد قطب: "والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية"[2].

ج- أما سعيد حوى فقد نقل كلام سيد قطب السابق ورجحه مثبتاً أن محور سورة النور التربية، التربية التي تشتد وسائلها إلى الحدود، وتَرِقُ إلى درجة اللمسات الوجدانية التي تصل قلب المؤمن بنور الله وآياته، فالهدف من الشدة واللين واحد، وهو تربية المرء المسلم[3].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال والخروج بمحور واحد لسورة النور، وهو: تحقيق طهارة الفرد والمجتمع بالتربية وفق ضوابط الشريعة ونور الهداية.

الفرع الثالث الاعتراض في سورة النور: يظهر من خلال موضع واحد، وهو مع سياقه قول اللهﷻ: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 50-53]

أولا: المعنى الإجمالي للآيتين المعترضتين: أكَّد اللهﷻ في هذا الموضع من سورة النور على صفة أصيلة في المؤمنين، وهي تمام رضاهم بحكم اللهﷻ، وحصر قولهم على السمع والطاعة، وكأنَّهم لا يملكون قولاً آخر، ثم وصفهم بالفلاح تكريماً لهم على هذا الخلق العظيم، ثم عطف اللهﷻ على هذا القول مخبراً أنَّ طاعة الله ورسوله، والخشية منه هي طريق الفوز الوحيدة في ميزان اللهﷻ.

[1] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 310/2.

[2] قطب: في ظلال القرآن، 2486/4.

[3] انظر: حوى: الأساس في التفسير، 3679/7.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآيتين: آيتان معترضتان في سياق الحديث عن المنافقين وذكر صفاتهم، والواو في (وأقسموا) عطف على موضع سابق قبل الآية المعترضة، وهذا يؤكد اعتراض هذه الآية، قال ابن عاشور: "عطف على جملة:﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾[النور: 47]"[1].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط هذا الموضع بسياقه من خلال عدة أمور، أبينها على النحو الآتي:

1- المقابلة: سبب للاعتراض يصحب كثيراً من الآيات المعترضة، قال البيضاوي: "﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل، والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي"[2]. وقال ابن عاشور: "هذا الاستئناف[3] على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذم بالثناء"[4]. والمقابلة تظهر في الآية من وجوه وهي:

أ- مقابلة الطاعة بالإعراض، حيث يظهر الإعراض في قول المنافقين أطعنا بألسنتهم ثم يخالفون بأفعالهم ما قالوه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: 47]، ولكنَّ المؤمنين يقولون سمعنا وأطعنا: سمعاً للقول، وطاعة في تنفيذ الفعل. قال الألوسي: "مساق الآية يقتضي أن يكون قول المؤمنين سمعنا وأطعنا في مقابلة إعراض المنافقين؛ فحيث ذم ذلك على أتم وجه، ناسب أن يمدح هذا"[5].

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 276/18.

[2] البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 112/4.

[3] اعتبر ابن عاشور هذا الموضع من قبيل الاستئناف البياني، والاستئناف البياني قريب جداً من الاعتراض، ولكنَّ الاستئناف البياني يكون عبارة عن جواب سؤال مقدر يفرضه السياق، والسياق هنا لا يفرض سؤلاً مقدراً بوضوح، لذلك فهذا الموضع أقرب للاعتراض منه للاستئناف البياني، والله اعلم.

[4] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 274/18

[5] الألوسي: روح المعاني، 389/9.

ب- مقابلة الرضى بحكم اللهﷻ بالإعراض عنه، ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ ﴾[النور: 48-51]، قال ابن عاشور: "فالمقصود منه الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكره، وفيه تعريض بالمنافقين؛ إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدِّها من كلمات الإعراض والارتياب"[1].

ج- مقابلة صلاح قلب المؤمن بفساد قلب المنافق ومرضه، فالمؤمن: ﴿ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ ﴾ [النور:52]، والخشية محلها القلب، أما المنافق ففي قلبه مرض: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ ﴾.

د- مقابلة فلاح المؤمنين بظلم المنافقين، ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: 50-51]. قال ابن عاشور: "وجيء في وصف المؤمنين بالفلاح بمثل التركيب الذي وصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكِّد ليكون الثناء على المؤمنين ضدًّا لمذمة المنافقين تَامّاً"[2].

2- التمايز بين المؤمنين والمنافقين، فقد يقول المنافق كلمة تشبه قول المؤمنين، ولكن كلام المنافق له أبعاد قلبية، يكون الكلام نابعاً من اعتقاد فاسد لا يتفق مع ظاهر قوله.

فقد كان المنافقون يموّهون على الناس بأن إعراضهم عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ ليس بسبب شكٍّ في صدقه أو تزلزل في إيمانهم، وإنما بزعمهم أنه مراعاةٌ لبعض المصالح والعلاقات الدنيوية، كما قال بشر:

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 275/18.

[2] المرجع السابق: 275/18.

إن الرسول يبغضني. فبيَّن الله تعالى بطلان هذا الزعم، لأن المؤمن الصادق لا يشك في عدل الرسول ﷺ، ولا يتوهم فيه محاباةً أو مصانعةً لأحد[1].

ويمكن إضافة بعد مستقبلي للاعتراض، يتمثل في هداية الأجيال القادمة، فالآيات مثال حي لفريقين، الأول من المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ثم خالفوا بالعمل ما قالوا؛ فكانوا من الظالمين الخاسرين، والثاني: الذين ألحقوا الأفعال بالأقوال؛ فاستحقوا الفلاح والفوز العظيم.

والآيات بما فيها من اعتراض، مثالٌ حيٌ للمؤمنين في كل زمانٍ ومكانٍ، حتَّى يحذروا من الفريق الأول، ويقتدوا بالفريق الثاني في الجمع بين السمع والطاعة.

فقد ذم اللهﷻ بني إسرائيل؛ لأنَّهم سمعوا أوامر الله تعالى وعقلوها، لكنَّهم لم يلتزموا بها، وهذا المعنى ظاهرٌ في آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم، ومن أوضحها، قول اللهﷻ:

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[البقرة: 93].
- ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: 46].

في مقابل المؤمنين من الصحابة الذين قالوا سمعنا وأطعنا كما في هذه الآية المعترضة، وفي قول اللهﷻ:

- ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: 285].
- ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة:7].

[1] انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 273/18-274.

فإذا رأى المؤمن تقريع اللهﷻ للكافرين والمنافقين الذين يسمعون آيات اللهﷻ ولا يتمثَّلونها بالطاعة والعمل، وما وعدهم الله جزاءً على ذلك من العذاب والثبور؛ استقبح عملهم، وحرص ألاَّ يكون مثلهم. وفي هذه الحالة، ذكَّر اللهُ تعالى بحال المؤمنين الذين يستقبلون قول اللهﷻ بالسمع والطاعة، لتهتدي النَّفس الخائفة من المعصية إلى طريق الطاعة، طمعاً في الفوز وخوفاً من الخسارة والهلاك.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: تتفق هاتان الآيتان المعترضتان: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[النور: 51-52]، مع محور السورة الداعي إلى تحقيق طهارة الفرد والمجتمع بالتربية وفق ضوابط الشريعة ونور الهداية، وأي هداية أعظم من التزام أمر النَّبيﷺ والرضا بحكمه عن قناعة ورضا، طمعاً بالفلاح والخشية في الدنيا، والفوز العظيم في الآخرة.

المطلب الثالث: الآيات المعترضة في الأحزاب

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة الأحزاب: سورة مدنية، وقد حكى أهل التفسير الإجماع على ذلك[1]، وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية، "قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، كَمْ تَعُدُّونَ سُورَةَ الْأَحْزَابِ آيَةً؟ قُلْنَا: ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ"[2]، وقد نزلت تعليقاً على معركة الأحزاب وفضحاً للمنافقين الذين انحازوا إلى الأعداء وظاهروهم على المؤمنين.

---

[1] ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 446/3، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 113/14.

[2] النسائي: السنن الكبرى، كتاب الرجم، نَسْخُ الْجَلْدِ عَنِ الثَّيِّبِ، برقم 7112، 408/6، وهذا حديث مختلف في صحته، فقد صححه، ابن حبان والحاكم وضياء الدين المقدسي وابن كثير والألباني، انظر: صحيح ابن حبان، 274/10، والحاكم: المستدرك، 450/2، وضياء الدين المقدسي: المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، 370/3، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 375/6، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، 975/6، وممن ضعفه أبو العباس البوصيري، والهيثمي، انظر: البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، 257/6، والهيثمي: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص: 435. وقد استُنكِر الحديث للشق الثاني من المتن: "فَقَالَ أُبَيٌّ: كَانَتْ لَتَعْدِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَأَطْوَلَ وَلَقَدْ كَانَ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " ولابن عاشور كلام نفيس في محاولة إزالة هذا الإشكال، بقوله: "ومَحْمَلُ الخَبَرِ الأوَّلِ عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ أنَّ أُبَيًّا حَدَّثَ عَنْ سُورَةِ الأحْزابِ قَبْلَ أنْ يُنْسَخَ مِنها ما نُسِخَ. فَمِنهُ ما نُسِخَتْ تِلاوَتُهُ وحُكْمُهُ ومِنهُ ما نُسِخَتْ تِلاوَتُهُ خاصَّةً مِثْلُ آيَةِ الرَّجْمِ. وأنا أقُولُ: إنْ صَحَّ عَنْ أُبَيٍّ ما نُسِبَ إلَيْهِ فَما هو إلّا أنَّ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ كانَ أُبَيٌّ يُلْحِقُهُ بِسُورَةِ الأحْزابِ وهو مِن سُوَرٍ أُخْرى مِنَ القُرْآنِ مِثْلُ كَثِيرٍ مِن سُورَةِ النِّساءِ الشَّبِيهِ بِبَعْضِ ما في سُورَةِ الأحْزابِ أغْراضًا ولَهْجَةً مِمّا فِيهِ ذِكْرُ المُنافِقِينَ واليَهُودِ.. وقَدْ أجْمَعَ حُفّاظُ القُرْآنِ والخُلَفاءُ الأرْبَعَةُ وكافَّةُ أصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلّا الَّذِينَ شَذُّوا عَلى أنَّ القُرْآنَ هو الَّذِي في المُصْحَفِ وأجْمَعُوا في عَدَدِ آياتِ القُرْآنِ عَلى عَدَدٍ قَرِيبٍ بَعْضُهُ مِن بَعْضٍ.. ولَيْسَ بَعْدَ إجْماعِ أصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلى مُصْحَفِ عُثْمانَ مَطْلَبٌ لِطالِبٍ". انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 246/21.

الفرع الثاني محور السورة: قد يصعب تحديد محور سورة الأحزاب بدقَّة؛ لأنَّها تحتوي على عدة مواضع، ولكن من أبرز موضوعاتها، خطاب النَّبيﷺ وخطاب المؤمنين بمجموعة من الأوامر والنَّواهي، فقد تكرر خطاب النَّبيﷺ بندائه: ﴿يا أيها النَّبي﴾ في السورة خمس مرات، ونداء للذين آمنوا: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، سبع مرات، والنِّداء بالتناوب؛ مرة خطاب للنَّبيﷺ ومرة للمؤمنين إلا في آخر السورة؛ فإنَّه ورد نداء المؤمنين مرتين. قال ابن عاشور: "افتتاح السورة بخطاب النَّبيءﷺ وندائه بوصفه مؤذن بأنَّ الأهم من سوق هذه السورة، يتعلق بأحوال النَّبيءﷺ، وقد نودي فيها خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به، وبعضها يتعلق بغيره، وله ملابسة به"[1].

وقد بيَّن سعيد حوى أنَّ محور سورة الأحزاب تفصيل لمحور سورتي النِّساء والمائدة[2]، واستفاض في توضيح هذا المعنى كثيراً أثناء تفسيره لسورة الأحزاب، ومحور سورة النِّساء المختار: تحقيق العبادة للهﷻ مع بيان رحمته وعدله بالضعفاء، أما محور سورة المائدة، الوفاء بما هدى إليه الكتاب. وهذا الأمر ظاهر في مجموع الأوامر والتشريعات الواردة في سورة الأحزاب، ويُضاف إلى ذلك فضحها للمنافقين الذين لم يصدقوا وعد اللهﷻ، لذلك يمكن القول إنَّ محور سورة الأحزاب، الاستسلام لأمر الله وشرعه، والتحذير من المنافقين وسبيلهم[3].

الفرع الثالث الآيات المعترضة في السورة: تظهر في موضع واحد فقط، وهو مع سياقه قول اللهﷻ: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾[الأحزاب: 61-65].

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 249/21.

[2] حوى: الأساس في التفسير، 4398/8.

[3] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 370/2، وخليل: أول مرة أتدبر القرآن، ص:149.

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: يخبر اللهﷻ نبيَّهﷺ بأنَّ النَّاس يسألونه عن الساعة بدافع الاستكبار والعناد، ويأمره أن يُجيبهم، بأنَّ علمها مختص به وحده، ويذكِّرهم بأنَّها قد تكون قريبة، ممَّا يستلزم الاستعداد لها: بالتوبة والعمل الصالح، بدلاً من العناد والتكبُّر.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق تقريع اللهﷻ للكافرين والمنافقين، قال أبو السعود: "خطاب مستقل له ﷺ غير داخل تحت الأمر، مسوق لبيان أنَّها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجيء عن قريب"[1]، وقال ابن عاشور: "فالجملة معترضة بين جملة: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الأحزاب: 60]، وبين جملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾[الأحزاب: 64]"[2].

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: وردت هذه الآية وكأنَّها مستقلة عن سياقها، قال محمد دروزة: "وتبدو الآيات فصلاً جديداً. ولم نطَّلع على رواية خاصة لنزوله"[3]، ولكن المتأمِّل لها يلمس ارتباطها بسياقها من عدة وجوه، كما بيَّنه أهل التفسير، ومن ذلك:

1- أنَّها سبب سؤالهم عن الساعة، وإشارة إلى طبيعة السائلين؛ فالذين سألوا عن الساعة وكذبوا بها هم عموم أهل الضلال من اليهود والنَّصارى والمشركين والمنافقين، فلمَّا كان السياق، عن الكافرين والمنافقين، اعترضت الآية بصورة من صور التكذيب والعصيان. قال صديق خان: "﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي عن وقت حصولها ووجودها وقيامها، قيل السائلون عنها هم أولئك المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود، لمَّا توعدوا بالعذاب، سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً، أو امتحاناً؛

[1] أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 116/7.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 22/ 112.

[3] انظر: دروزة: التفسير الحديث، 424/7.

لأنَّ الله تعالى عَمَّى وقتها في التوراة وسائر الكتب: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾، يعني أنَّه سبحانه قد استأثر به، ولم يُطْلِعْ عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرَّباً"[1].

وقد أوضح الألوسي أن أغراض هؤلاء المعاندين في سؤالهم عن الساعة كانت مختلفة، فالمشركون سألوا النبي ﷺ عنها على سبيل الاستهزاء واستعجال العذاب، والمنافقون سألوا تعنتًا ومماراة، أما اليهود فسألوه امتحانًا له، لأنهم يعلمون من التوراة أن علم الساعة مما استأثر الله تعالى به، فأرادوا اختبار صدقه ﷺ هل يوافق ما عندهم من الوحي أم يخالفه؟[2].

2- أنَّها انتقال من سياق التهديد الدنيوي إلى التهديد الأخروي؛ فسياق الآيات قبل الآية المعترضة تهديد وتخويف للكافرين والمنافقين في الدنيا، والآيات بعد الآية المعترضة عن وعيدهم بالعذاب في الآخرة، فناسب هذا السياق الاعتراض بهذه الآية، كتوطئة للحديث عن الآخرة؛ لأنَّ عموم المشركين يكفرون بها، من باب إقامة الحجة عليهم قبل الوعيد. قال الرازي: "لمَّا بيَّن حالهم في الدنيا أنَّهم يُلعنون ويُهانون ويُقتلون، أراد أن يبيّن حالهم في الآخرة؛ فَذَكَّرَهُمْ بالقيامة، وذكَّر ما يكون لهم فيها؛ فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ ﴾"[3].

وفي هذا الاعتراض تسكيتٌ للمشركين ووعيدٌ لهم، إذ يُهدَّدون بأمرٍ غيبيّ لا يعلمون زمن وقوعه، وقد أخفاه الله تعالى حتى عن نبيه محمد ﷺ على جلالة قدره وعلو منزلته. فأمره الله أن يجيبهم بأن علمها مما استأثر به وحده، لم يُطلع عليه ملكًا مقرّبًا ولا نبيًا مرسلًا، ثم أخبره بأنها قريبة الوقوع، ليكون في ذلك تهديدٌ للمستهزئين المستعجلين بها، وطمأنينةٌ للممتحنين المتعنتين[4].

---

[1] القنوجي: فتح البيان في مقاصد القرآن، 148/11.

[2] انظر: الألوسي: روح المعاني، 267/11.

[3] الرازي: مفاتيح الغيب، 185/25.

[4] انظر: الزمخشري: الكشاف، 562/3.

قال الشوكاني: "والخطاب لرسول اللهﷺ لبيان أنَّها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها –وهو رسول الله ﷺ- فكيف بغيره من النَّاس؟ وفي هذا تهديد عظيم للمستعجلين، وإسكات للممتحنين والمشركين"[1].

3- أنَّها تُفقِد الأمل في معرفة وقت الساعة مع تكرار السؤال عنها: فقد وردت هذه الآية في سياق تقريع المعاندين من الكافرين والمنافقين بصيغة السؤال، وهذا يدلّ على أنّهم كرّروا سؤالهم مرارًا؛ مع أنّه قد أُجيب عن هذا السؤال في الفترة المكيّة، فقد ورد في سورة الأعراف، قول اللهﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: 187]، وهذا الموضع من سورة الأعراف يشبه الموضع الوارد في سورة الأحزاب إلى حد كبير، وقد ورد أيضاً في سياق تقريع الكافرين والمعاندين.

فالنبي ﷺ لا يعلم موعد الساعة، وإن سأله الناس عنها، وقد أُمر أن يردّ علمها إلى الله تعالى وحده، كما قال له في سورة الأعراف المكية، وهذه السورة المدنية على نفس النهج؛ فبقي الأمر ثابتًا بأن علم الساعة مختصٌّ بمن يقيمها، وهو الله جل جلاله[2].

وهذا يفيد القطعَ بعدم علم موعد الساعة، والنَّهي الضمنيَّ أصلاً عن السؤال عن وقتها؛ مهما تكرَّر السؤال، ومهما اختلفت نيَّة السائل وتوجُّهه، قال البقاعي: "ولمَّا كان من فوائد العلم بوقت الشيء التحرز عنه أو مدافعته، قال مشيراً إلى شدة خفائها بإخفائها عن أكمل خلقه مرجياً تقريبها تهديداً لهم: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيّ شيء يعلمك بوقتها؟ "[3].

---

[1] الشوكاني: فتح القدير، 351/4.

[2] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 483/6.

[3] البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 416/15.

وقد نُهي المؤمن كذلك عن السؤال عن موعد الساعة، فقد أتى رجل من أهل البادية النَّبيﷺ، فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا، قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا"[1].

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية المعترضة بمحور السورة الداعي إلى الاستسلام لأمر الله وشرعه، والتحذير من المنافقين وسبيلهم، بما فيها من تذكير بالساعة، والتأكيد على خفاء أمرها. وهذا فيه تثبيت للمؤمنين الموقنين بالغيب الذين ينتظرون جزاء أعمالهم في الآخرة، على أوامر اللهﷻ، ويجعلهم في تمام الانقياد والطاعة والاستسلام، فلا يتأثرون بسبيل الكافرين والمنافقين مهما علا صوتهم وقويت شوكتهم؛ لأنَّهم يوقنون أنَّ هؤلاء هم المعذبون في الآخرة، فلا يطمعون في تقليدهم ولا يركنون إلى أفعالهم أو موالاتهم، خوفاً من يوم الحساب، الذي لا يؤثر عدم معرفة موعده على اليقين بحتمية قدومه.

المطلب الرابع: الآيات المعترضة في سورة محمد

الفرع الأول نبذة مختصرة عن السورة: سورة محمد: سورة مدنية عند أكثر أهل التفسير[2]، ونقل ابن عطية الإجماع على ذلك[3]. "تسمى سورة القتال، وسورة الذين كفروا"[4]. "نزلت هذه السورة بعد يوم بدر، وقيل: نزلت في غزوة أحد، وعُدَّت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن"[5]، حيث نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد[6].

الفرع الثاني محور السورة: يظهر من المقطع الأول منها، قال البقاعي: "مقصودها: التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين، بإدامة الجهاد للكفار"[7]. وقال سيد قطب: "فالقتال هو موضوعها، والقتال هو

[1] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ وَيْلَكَ، برقم6167، 39/8.

[2] قال ابن الجوزي: وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنيّة، قاله الأكثرون، منهم مجاهد، ومقاتل، وحُكي عن ابن عباس وقتادة، انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 115/4.

[3] انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 109/5.

[4] الشوكاني: فتح القدير، 35/5.

[5] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 71/26.

[6] انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 194/1.

[7] البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 486/2.

العنصر البارز فيها، والقتال في صورها وظلالها، والقتال في جرسها وإيقاعها"[1]، وقال ابن عشور: "أغراضها: معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد"[2].

لذلك يمكن القول إنَّ محور السورة هو الربط بين أسماء السورة الثلاث، وهي: (سورة محمد، والقتال، والذين كفروا)، فيكون محور السورة: دعوة النَّبيﷺ والمؤمنين إلى قتال الكافرين بثباتٍ وعزم، وهذا المعنى قد اختاره الدكتور صلاح الخالدي، بعد أن ذكر أسماء السورة، بقوله: "والحقيقة التي نخرج بها من جمع هذه الأسماء هي: "محمد ﷺ" هو إمام المجاهدين، في "قتال" الأعداء "الذين كفروا"[3].

الفرع الثالث الآيات المعترضة في سورة محمد: تقع في موضعين، وهما على النحو الآتي:

الموضع المعترض الأول مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد: 16-18].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: يُخبر اللهﷻ عباده المؤمنين؛ أنَّه يزيد طالب الهدى هداية، ويعطيهم ثواب تقواهم، زيادة في الأجر والدرجات.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق وعيد اللهﷻ للمنافقين، قال ابن عاشور: " ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾، جملة معترضة بين جملة، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [محمد: 16]، وما فُهم عنها من قوله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ [محمد:18]".

[1] قطب: في ظلال القرآن، 3278/6.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 72/26.

[3] الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص:274.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآية بسياقها من خلال وجوهٍ عدة بيَّنها أهل التفسير، وهي كالآتي:

1- المقابلة، والمقابلة ظاهرة في هذه السورة من بدايتها، ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾[محمد:1-3]، وتستمر المقابلة في السورة الكريمة وصولاً إلى المقطع المعترض. قال ابن عطية: "لمَّا ذكر تعالى المنافقين بما هم أهله من قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾[محمد: 16]، عقَّب ذلك بذكر المؤمنين، فبيَّن الفرق، وشَرَّفَهم بإسناد فعل الاهتداء إليهم"[1]، وتتأكد المقابلة بالعلم بأن أغلب آيات هذه السورة الكريمة بُنيت على أسلوب التقابل، فقد قوبل الطبع بزيادة الهدى؛ لأن الطبع ينشأ من تراكم الرين وتتابع أسباب الكفر، كما قوبل اتباع الهوى بإيتاء التقوى، فيُحمَل ذلك على بلوغ كمال التقوى وتمامها[2].

2- أهمية القصد والإرادة في الهداية والضلال: وهذا ظاهر من دلالة الآية المعترضة والسياق، فكما كان إعراض المنافقين والكافرين، واتباعهم لأهوائهم سبباً في ضلالهم، والطبع على قلوبهم، كان طلب الهداية من المؤمنين سبباً في زيادة هداهم، وبلوغهم تقواهم. قال ابن كثير: "قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾، أي: والذين قصدوا الهداية، وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم

[1] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 115/5.

[2] انظر: صديق خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 64/13.

عليها، وزادهم منها، ﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾، أي: ألهمهم رشدهم"[1]. وقال سيد قطب: "﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾، وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النَّظر، فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل: ﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾"[2].

3- استهزاء المنافقين يزيد المؤمنين هدى وثباتاً وتمسكاً بحقهم، وهذا يظهر من تفسير جمع من المفسرين، أن معنى؛ ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾، أي زاد استهزاء المنافقين المؤمنين هدى، حيث بيَّن الماوردي وابن الجوزي أنَّ أهل التفسير يفسرون معنى هذه الزيادة بثلاثة أقوال: الأول: أنَّ الِاسْتِهْزاءَ زادَ المُؤْمِنِينَ هُدًى، والثاني: أنَّ القرآن زادَهم هُدًى، أما الثالث: أنَّ النَّاسخَ والمَنسُوخَ زادَهم هُدًى[3]. قال مكي: "زادهم الله بضلال المنافقين واستهزائهم هدى"[4]. وقد أوضح هذا المعنى الرازي وجلَّاه بقوله: "استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى، ووجهه أنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾، اتباعهم الهدى هدى، فإنَّهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه"[5].

وعلى هذا القول، يظهر ارتباط الآية بسياقها بشكل واضح، وذلك أنَّ إعراض المنافقين واستهزاءهم بأهل الإيمان؛ كان سبباً في زيادة الإيمان والثبات عليه، وهذا من طبع النفوس المؤمنة التي لا يزيدها إعراض الكافرين والمنافقين إلا قوَّة وصلابة، وهذا المعنى واضح في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها:

- ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:173].

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 315/7.

[2] قطب: في ظلال القرآن، 3294/6.

[3] الماوردي: النكت والعيون، 298/5، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 118/4.

[4] مكي: الهداية الى بلوغ النهاية، 6902/11.

[5] الرازي: مفاتيح الغيب، 50/28.

- ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:22].

4- إقامة الحجة على المنافقين بفهم وهداية أهل الإيمان، إذ لو لم يهتدِ أحدٌ بخطاب القرآن ودعوة الإسلام، لأمكن للمنافقين أن يقولوا إنَّ الخطاب غير واضح ولا مفهوم.

فالمنافق يسمع ولا ينتفع، ويكرر السماع ولا يستفيد، بخلاف المؤمن المهتدي الذي يستمع فيعي، ويفهم فيعمل بما علم. فالمنافق يعيد بلا فهم، أما المهتدي فيعيد تفسيرًا وتدبرًا. وفي ذلك فائدتان: الأولى بيان التباين الواضح بين حال الفريقين، والثانية قطع عذر المنافق وإثبات ضلال طريقته؛ إذ لو زعم أنه لم يفهم الكلام لغموضه لرد عليه بأن المؤمن قد فهمه واستنبط معانيه ولوازمه، فدلّ ذلك على أن العجز عن الفهم ناشئ من عمى القلوب لا من خفاء المعنى المطلوب[1].

5- تُظهر الآيات الفرق بين شخصية المنافق الضعيفة المترددة، وشخصية المؤمن الثابت الواثق بما يعتقده؛ وهذا يظهر من الآية السابقة للآية المعترضة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ ﴾، فهم لم يجرؤوا على الجهر برأيهم أمام رسول اللهﷺ، فلمَّا خرجوا من عنده قالوا: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ ﴾، وهذا يشبه قول الله تعالى في بداية سورة البقرة: حكاية عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[البقرة:14].

[1] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 50/28

فالمنافق كان يخشى الناس، وهم الفريقان: المؤمنون والكافرون، فيتردد بينهما محاولًا إرضاءهما مع إغضاب الله، فجاء بيان الله تعالى أن المؤمن المهتدي بخلاف المنافق، فذاك علم الحق واتقى الله وحده، وأما المنافق فاتقى غير الله، فخشي المخلوق ونسي الخالق[1].

لذلك كان المنافقون الخطر الكبير الذي حذَّر القرآن الكريم منه في آيات كثيرة، إذ إنَّهم يخدمون أعداء الأمة، ويزعمون أنَّهم أحرص النَّاس، على الوطن، وأعرفهم بالمصلحة العامة.

فالمنافقون في كل زمان ومكان هم الخطر الأكبر على أممهم، والسهم الموجَّه إلى ظهور أوطانهم، وقد لاقى النبي ﷺ كثيرًا من أذاهم ومكرهم. والنفاق واليهودية متلازمان في طبيعتهما، لأن كليهما ينشأ عن جبنٍ حقيقي ولؤمٍ فطري، فالمنافق يتلوّن مع الناس في أقواله وأفعاله، ويُظهر ما لا يُبطن، وله في المجتمعات آثار مدمّرة وخداع مهلك يُقوِّض الثقة ويمزّق الصفوف[2].

والواقع المعيش اليوم خير شاهد على ذلك، فقد تظاهر المنافقون مع أعداء الله في كل قطر ومصر، ونصروا كل قول وكل دين بدعوى الحريّة، ولكنَّهم حاربوا دين اللهﷻ، وتنكروا لشريعته ضاربين بالحرية عرض الحائط، متذرّعين بحجج أوهى من خيط العنكبوت، زينها لهم الشيطان، فعظَّمها في قلوبهم، حتى أصبحت حقيقة فاسدة، فأظهروا بألسنتهم كل قبيح، وما تُخفي صدورهم أكبر.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: ترتبط هذه الآية بمحور السورة الذي يدعو المؤمنين إلى قتال الكافرين بثباتٍ وعزم؛ وذلك لأنَّ هذا القتال لن يقوم إلا بنفوس مؤمنة مهتدية تقية، وإلا لما استجابت لهذا التكليف الشاق، قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة:216]، ولكنَّ هذا الأمر المكروه لعموم النَّاس، تتمناه النُّفوس المهتدية التقية، وتتوق إليه وتضرع إلى الله تعالى أن يبلِّغها إياه، بخلاف المنافقين الذين جبنوا عن مواجهة الحقائق والجهر بمعتقداتهم، فهم عن الجهاد أبعد وأعجز.

[1] انظر: المرجع السابق: 51/28.

[2] انظر: حجازي: التفسير الواضح،18/1.

الموضع المعترض الثاني مع سياقه: قولهﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [محمد:32-34].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذا نداء من اللهﷻ إلى المؤمنين في كل زمان ومكان بلزوم طاعة الله ورسوله، وأن لا يبطلوا أعمالهم بالإعراض عن هذه الطاعة.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: آية معترضة تشبه اعتراض الآية السابقة في موضع اعتراضها، غير أنَّ الآية السابقة وردت في سياق الحديث عن المنافقين، وهذه في سياق الحديث عن الكافرين، قال ابن عاشور: "اعْتِراضٌ بَيْنَ جُمْلَةِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ﴾ [محمد: 32]، وبَيْنَ جُمْلَةِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ [محمد: 34]".

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: تشبه هذه الآية، الآية السابقة في اعتراضها، ولذلك فهي تشترك معها في بعض وجوه توجيه ارتباطها في سياقها. لكن عند تأمل هذه الآية في كتب التفسير، وجدت فوائد لهذا الاعتراض تستدعي إفرادها بالبحث والمراجعة، وقد اهتم أهل التفسير بتفسير هذه الآية وبيان سبب اعتراضها، من عدة جوانب، وهي كما يأتي:

1- المقابلة: قدَّمت في الآية السابقة أنَّ هذه السورة تقوم على المقابلة، وتستمر المقابلة وصولاً إلى هذه الآية، بالمقابلة بين المؤمنين والكافرين. قال ابن عاشور: "وُجِّهَ به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ، وتجنب ما يُبطل الأعمال الصالحة، اعتباراً بما حُكي من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسولﷺ. فَوَصْفُ الإيمان في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

[محمد: 33]، مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [محمد: 32]، وَطَاعَةُ اللَّهِ مُقَابِلُ الصَّدِّ عن سبيل الله، وطاعة الرسول ضدُّ مشاقة الرسول ﷺ، والنَّهي عن إبطال الأعمال ضدٌّ بطلان أعمال الذين كفروا"[1]. وقد أشار القرطبي إلى هذه المقابلة، بقوله: "لمَّا بَيَّن حال الكُفَّارِ أَمر المُؤمنينَ بلُزومِ الطَّاعة فِي أوامرهِ والرَّسولِ في سُننِهِ"[2].

2- تحذير المؤمنين من كل ما يُبطل العمل ويُنقص أجره: ذكر أهل التفسير عدة أقوال في تفسير ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، من أظهرها:

أ- المنُّ والأذى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: 264]، كما قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ ﴾ [الحجرات: 17]، وذلك أنَّ من يمن بالطاعة على رسول اللهﷺ؛ كأنَّه يقول: هذا فعلته لأجل قلبك، ولولا رضاك به لما فعلت، وهو مناف للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص[3].

ب-الرِّياءُ والسُّمْعَةُ[4]، وهو مُنقص للعمل بمقدار ما يدخل عليه؛ فإذا دخل على أصل العمل أَبطَلَه بالكلية، قال اللهﷻ: ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 264]، وقالﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [الأنفال:47].

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 127/26.

[2] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 254/16.

[3] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 61/28.

[4] انظر: الماوردي: النكت والعيون، 306/5، وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 122/4.

ج- المَعاصِي والكَبائِرُ[1]، وهذا ليس على إطلاقه[2]، فقد أخرج المروزي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: " كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ ﷺ نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ حَسَنَاتِنَا إِلَّا مَقْبُولٌ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: 33]، فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكَبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ، وَالْفَوَاحِشُ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، وَنَرْجُو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا"[3].

ومع ذلك فبعض الكبائر تحبط العمل، كما قال رسول اللهﷺ: "مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ"[4].

د- ترك طاعة الرسول، ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾ [الحجرات: 2] إلى أن قال: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: 2][5].

هـ- النفاق والشرك باللهﷻ، أي دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر: 65][6].

---

[1] انظر: الماوردي: النكت والعيون، 306/5، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 122/4.

[2] نصر هذا القول الزمخشري، لأنَّ في ذلك نصرة لمذهبه الإعتزالي، انظر: الزمخشري: الكشاف، 328/4.

[3] المروزي: تعظيم قدر الصلاة، 646/2، وقد ورد بإسناد آخر عند الطبراني، ونصه: " حدثنا الحسن بن سَهْل المُجَوِّز البصري، ثنا إبراهيم ابن الحجَّاج السامي، ثنا أبو رَجاء الكُليبي، ثنا كُليب بن وائل، ثنا عبد الله بن عمر، قال: كنَّا نُوجِبُ على أهل الكبائر حتى نزلَتْ هذه الآيةُ على رسول اللهﷺ ﴿إِنَّ اللَّه لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، قال: فنهانا رسولُ اللهﷺ أن نوجبَ لأحدٍ من المُوحِّدين النارَ"، انظر: الطبراني: المعجم الكبير، 357/12، وقال الهيثمي: فِيهِ أَبُو رَجَاءٍ الْكُلْبِيُّ وَلَمْ أَعْرِفْهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ، انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 194/10.

[4] البخاري: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، بَابُ مَنْ تَرَكَ العَصْرَ، برقم553، 115/1.

[5] انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 61/28.

[6] انظر: الواحدي: التفسير البسيط، 269/20، انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 61/28.

ولا تعارض بين هذه الأقوال، إذ الخلاف بينها خلاف تنوع، وليس خلاف تضاد، ويمكن أن يُحمل المعنى عليها جميعاً، على اعتبار أنَّها مراتب لإبطال العمل بدءاً بإبطال العمل بالمن والأذى، وصولاً لإبطال الإسلام من أصله بالردة الصريحة، وهذا هو المعنى الأظهر من الآية المعترضة؛ لأنَّه تقدم الحديث عن الكافرين في الآية السابقة للآية المعترضة، ثم قال الله تعالى في الآية المعترضة: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فهذا تحذير للمؤمنين من كل ما يُبطل العمل، وإشارة واضحة إلى أنَّه إذا تساهلوا في هذا الأمر، فقد يصل بهم الحال إلى الردة والخروج من الدين، كما هو حال الكافرين والمنافقين.

قال ابن كثير: "ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي: بالرّدَّة؛ ولهذا قال بعدها:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾"[1].

3- تشير الآية المعترضة، مع سياقها، إلى شرطي قبول العمل، وهما:

أ- موافقة الشرع الذي ينافي الابتداع، وهذا يدل عليه قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، فأصل قبول العمل موافقة الشرع، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 31-32]، وقال رسول اللهﷺ: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ"[2]. وفي هذه الآية تخويفٌ من اللهﷻ لعباده المؤمنين من مشابهة الكفار.

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 323/7.

[2] البخاري: صحيح البخاري، برقم، كتاب الصلح، بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، برقم2697، 184/3، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الأقضية، بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، برقم1718، 1343/3.

ب- الإخلاص الذي ينافي الرياء، وهذا يظهر من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، ومن أعظم ما يُنقِص الأجر، بل قد يُذهِب العمل من أصله: الرياء؛ إذ قد يجرّ صاحبه إلى إحباط عمله كلّه، فيُشابه بذلك الكافرين الذين جاء ذِكرُهم في السياق السابق واللاحق للآية المعترض، قال ابن تيمية: "لا يحبط العمل إلا الكفر؛ فإنَّ نصوص القرآن تقتضي حبوط العمل بالكفر في مثل: البقرة والمائدة والأنعام والزمر و (ق) وغير ذلك، وهذا لأنَّ ما سوى الكفر من المعاصي يثبت معه أصل الإيمان"[1]. وقال الشيخ ابن عثيمين: "حبوط العمل لا يكون إلا بالكفر والردة"[2].

وبذلك تتصلُ الآيةُ بسياقها اتصالاً عميقاً، وتدلُّ على معنى دقيق في أمر المؤمنين بطاعة الله ورسول رب العالمين، وعدم إبطال الأعمال بمشابهة الكافرين. قال إسماعيل حقي: "وفي الآية إشارة إلى أنَّ كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنَّه صدر عن الطَّبع"[3].

فكأنَّ الآيةَ السابقة للآية المعترضة تُفيدُ أنَّه لن يُقبل عملُ الكافر، حتى لو وافق الشرع، فلا أجر للكفار في الآخرة؛ لأنَّ أعمالهم مُحبَطة. وأمَّا الآية المعترضة فتُوحي بضرورة موافقة الشرع، فالإحباطُ مرتبط بالنِّية والقصد، والبطلان مرتبطٌ أكثر بمخالفة الشرع، وهذا يشبه قول اللهﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [هود:16]. قال الزمخشري: "﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾، وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب لأنَّهم لم يريدوا به الآخرة، إنَّما أرادوا به الدنيا، وقد وفِّي إليهم ما أرادوا، ﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، أي: كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنَّه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له"[4].

[1] ابن تيمية: المستدرك على مجموع الفتاوى، 126/1.
[2] ابن عثيمين: شرح رياض الصالحين، 59/5.
[3] إسماعيل حقي: روح البيان، 522/8.
[4] الزمخشري: الكشاف، 384/2.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: أمَّا ارتباط الآية بمحور السورة، فهو يشبه ارتباط الآية السابقة؛ لأنَّ اعتراضهما متقارب. فالأولى خطاب للمؤمنين في سياق الحديث عن المنافقين، والثانية خطاب للمؤمنين في سياق الحديث عن الكافرين. لكنَّ ارتباط هذه الآية بسياقها أظهر؛ وذلك لأنَّ القتال في عهد النَّبيﷺ كان متوجهاً للكافرين، إذ كان المنافقون يُظهرون أنفسهم في صف الإسلام والمسلمين. فهم لا يجرؤون على المواجهة، بل ينشغلون في توهين الصفِّ المؤمن، وإثارة الفتن، وبثِّ روح الهزيمة من جهة، ثمَّ يناصرون الأعداء ويُقوّون عزمهم بالخفاء من جهةٍ أخرى. وبذلك تكون هذه الآية حثّاً للمؤمنين على الإخلاص للهﷻ في مقارعة الأعداء من الكافرين، وعدم إبطال الجهاد بالرياء والسمعة. فالسورة تُركّزُ بوضوح على تزكية القلوب، وقد ورد ذكر القلب واشتقاقاته فيها أربع مرات. فالآية تتفق مع محور السورة، وهو دعوة النَّبيﷺ والمؤمنين إلى قتال الكافرين بثباتٍ وعزم، مع إخلاص أهل الإيمان وتجرُّدهم في قتال أعداء اللهﷻ، وهذا المعنى وإن كان عاماً؛ فإن المجاهد أكثر ما يحتاج إليه. قال الله تعالى، في سياق الحديث عن القتال وحرب الأعداء، واصفاً عباده المؤمنين:﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:147].

المطلب الخامس: الآيات المعترضة في سورة المجادلة

الفرع الأول: نبذة مختصرة عن السورة: سورة المجادلة: سورة مدنية على قول جمهور المفسرين، وحُكي في ذلك الإجماع[1]، وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية، وقد سميت بِسورة قد سمع، وسورة الظهار[2]؛ لأنَّها افتتحت بقضية مجادلة خولة بنت ثعلبة، امرأة أوس بن الصامت للنَّبيﷺ في شأن مظاهرة زوجها، قالت عَائِشة رضي الله عنها: "تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ

[1] انظر: الماوردي: النكت والعيون، 487/5، وابن عطية: المحرر الوجيز، 272/5، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 269/17.
[2] الألوسي: روح المعاني، 197/14.

جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: 1]"[1]. وهي من السور التي تأخرت في نزولها فهي السورة الثالثة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة (المنافقون) وقبل سورة التحريم[2]، وممَّا تميَّزت به أنَّه ورد لفظ الجلالة (الله) في كل آياتها.

الفرع الثاني: محور سورة المجادلة: لا يظهر محور السورة بوضوح رغم قصرها لاشتمالها على موضوعات متعددة، فقد بدأت بقصة الظِّهار وبعض الأحكام المتعلَّقة به، ثم إعلام الخلق بسعة علم اللهﷻ ثم الثناء على المؤمنين وفضح المنافقين، وبيان أحكام المجلس، وخُتمت السورة ببيان عاقبة المخاطبين.

وقد أوضح البقاعي أن مقصود السورة هو الإخبار عن وقوع بأس الله الشديد بمن يحادّه ويعادي رسوله، وهو بأس نابع من كمال علمه تعالى الذي يقتضي كمال قدرته، وما يستلزمه ذلك من إحاطته بجميع صفات الكمال. ومن هنا جاءت تسميتها بـ سورة المجادلة، دلالةً على ما افتتحت به من قصة المجادِلة وما ختمت به من بيان عظمة علم الله وقدرته[3].

أما سعيد حوى فهو يرى أنَّ محورها قريب جداً من محور سورة المائدة[4]، إضافة إلى أنَّ السورة تُحرِّر المعاني السلبية التي تحول دون الهداية[5]. وبالنَّظر في موضوعات السورة المختلفة يمكن القول إنَّ محور السورة الرئيس الجامع لموضوعاتها الفرعية؛ هو: إحاطة علم اللهﷻ بكل شيء وعدالة تشريعاته.

---

[1] ابن ماجه: سنن ابن ماجة، كتاب الطلاق، بَابُ الظِّهَارِ، برقم2063، 666/1، وهو حديث صحيحه، الحاكم، والذهبي والألباني ومقبل الوادعي، انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 523/2، والألباني: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، 175/7، الوادعي: الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، 487/2.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 5/28.

[3] انظر: البقاعي: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، 68/3

[4] وقد قرر سعيد حوى أنَّ محور سورة المائدة هو ما ورد في الآيتين من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، انظر: حوى: الأساس في التفسير، 1296/3.

[5] المرجع السابق: 5779/10.

الفرع الثالث: الاعتراض في السورة: يظهر من خلال آية واحدة، وهي مع سياقها، قول اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾ [المجادلة: 9-12].

أولا: المعنى الإجمالي للآية المعترضة: هذا نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين؛ يأمرهم أن يفسح بعضُهم لبعضٍ في مجالسهم، إذ إنَّ ضيق المجلس يكون في كثير من الأحيان لضيق الأنفس والصدور، لا لضيق المكان والدور. ويأمرهم أيضاً بأن يستجيبوا لكل دعوة خير من صلاة وجهاد وصلة أرحام، ثم يخبرهم بحقيقة منزلة العالم، وفضله على الجاهل، وأنَّ أصل العلم الخشية، لذلك ختم اللهﷻ الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾، أي إنَّه مطَّلع على الأفعال بظاهرها وباطنها.

ثانيا: بيان وجه اعتراض الآية: وردت هذه الآية في سياق الآيات التي تبيّن أحكام النَّجوى، قال ابن عاشور: "فَصَلَ بَين آياتِ الأحكامِ المُتعلِّقَة بالنَّجوى بهذه الآية"[1].

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير 28/ 36.

ثالثا: الكشف عن مناسبة الاعتراض للسياق: يظهر ارتباط الآية المعترضة بسياقها من خلال وجهين، ذكرهما أهل التفسير، وهما:

1- التَّدرج في ذكر نوعي الكلام؛ إذ لا يخلو كلام النَّاس مع بعضهم من أمرين: إمّا أن يكون الكلام سراً -وهي: النَّجوى المذكورة في السياق السابق واللاحق- أو علانية في مجلس متَّسع يسمعه كل من حضر. فالآيات السابقة للآية المعترضة ذكرت أدب حديث السرِّ، فناسب أن يأتي بعدها ذكر أدب حديث العلن. قال الشهاب: "وارتباطه بما قبله لأنَّه لمَّا نهى عن التناجي، والسرار علم منه الجلوس مع الملأ فذكر آدابه بعده"[1].

فالسياق ذكَّر المؤمنين بأدب الأقوال، والآية المعترضة ذكَّرتهم بأدب المجالس، قال الألوسي: "ولَمّا نَهى سُبحانهُ عن التَّناجي والسِّرار علم منه الجلوس مع الملأِ فذكر جلَّ وعلا آدابهُ بعدهُ بقوله عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ "[2].

2- الانتقال من ذكر ما يجلب التباغض والتنافر إلى ما يجلب المحبَّة والألفة[3]؛ فحديث النَّجوى في الغالب يجلب التباغض، إذ يخفي المتناجيان ما قد يتحرجان من إظهاره، وسواء أكان الذي يخفيانه، خيراً أم شراً، فإنَّ الذي يراهما من بعيد غالبا ما يظنُّ أنَّهما يتحدثان بشرٍ في حقه. لذلك قال رسول اللهﷺ: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاس مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ"[4]، وفي هذا الحديث تلاقٍ بين موضوع النَّجوى والمجالسة، فالمقطع الأوَّل منه يشير إلى النَّجوى، والمقطع الثاني يبيِّن الحالة التي يجوز فيها النَّجوى، وهي مخالطة الناس، والَّا ينحسر اثنان دون صاحبهما، وهذا يشبه الآية المعترضة في سياقها.

---

[1] الخفاجي: عنايه القاضي وكفاية الراضي، 170/8.

[2] الألوسي: روح المعاني، 223/14.

[3] انظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 127/10، والألوسي: روح المعاني، 223/14.

[4] مسلم: صحيح مسلم، كتاب السلام، بَابُ تَحْرِيمِ مُنَاجَاةِ الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ بِغَيْرِ رِضَاهُ، برقم2184، 1718/4.

فالسِّياق حمل بعض الصور المنهيّ عنها ممَّا يتَّصل بالآية المعترضة، ومن هذه الصُّور:

أ- نجوى اليهود ولمزهم النَّبيﷺ، وذلك أن اليهود كانوا يحيّون النبي ﷺ بما لم يحيه به الله، فذمّهم على سوء أدبهم، ثم أعقب ذلك بالأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، كما أمر المؤمنين بالتراحم والتآلف فيما بينهم، فيفسح بعضهم لبعض، ليتمكّن الجميع من الاستماع إلى النبي ﷺ والنظر إليه باحترامٍ وتقدير[1].

فكأَنَّ الآية المُعترضة في سياقها دعوةٌ للمؤمنين إلى عدم مشابهة اليهود في نجواهُم ولمزهم النَّبيﷺ.

ب-نجوى المنافقين، ولمزُهم النَّبيﷺ والصحابة الكرام، كثيراً ما تتشابه أخلاق المنافقين مع أخلاق اليهود، لأنَّهم يلتقون في هدف واحد، وهو عداء الإسلام والكيد له، وهذا أمر ظاهر في القرآن الكريم[2]، ومن مواضعه هذا الموضع، حيث تشابهت أخلاق المنافقين مع اليهود في نجواهم وكيدهم بالنَّبيﷺ. قال مقاتل: "﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾، يعني: نجوى المنافقين مِنَ تزيين الشَّيْطانِ ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾، يعني: إلا أن يأذن الله في ضره، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، يعني: بالله فليثق المصدقون، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ ﴾، وذلك أنَّ النَّبيﷺ جلس في مكان ضيق ومعه أصحابه، فجاء نفر من أهل بدر، فيهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فسلّموا على النبي ﷺ فردّ عليهم، ثم سلّموا على القوم فردّوا السلام، وجلسوا ينتظرون أن يُفسح لهم في المجلس فلم يفعل أحد، فشقّ ذلك على النبي ﷺ، وكان يكرم أهل بدر، وكان ذلك يوم الجمعة، فقال: «قم يا فلان، وقم يا فلان» لمن لم يكن من أهل بدر بعدد من دخل منهم، فعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوه من أُقيموا، فقال: «رحم الله رجلًا يفسح لأخيه»، فصار الناس بعد ذلك يقوم بعضهم لبعض توسعة، فقال المنافقون للمسلمين: تزعمون أن صاحبكم يعدل بين

[1] انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 296/17.

[2] دل على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم، من أوضحها دلالة؛ آيات سورة الحشر.

الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء، قومٌ سبقوا فجلسوا، فأقامهم وأجلس من جاء بعدهم، فوالله إن أمر صاحبكم فيه اختلاف. فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾[1].

فالمنافقون لم يقولوا قولتهم هذه من باب النَّصيحة، وإنَّما من باب الكيد والمكر بالمؤمنين، وإيغار الصُّدور، قال ابن عاشور: "كان للمنافقين نيَّة مكر في قضية المجلس، كما كان لهم نية مكر في النَّجوى، وهذا ممَّا أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النَّجوى إلى ذكر التفسّح في المجلس النَّبوي الشريف"[2].

فكأَنَّ الآية المعترضة في سياقها تُقارن بين اليهود والمنافقين الذي يتناجون بالسُّوء والمكر من جهة، والذين آمنوا والتزموا الخلق والأدب مع النَّبيﷺ في مجلسه من جهة أخرى؛ إذ يمتثلون أمره، ويحرصون على الأدب في نجواه. وفي هذه المقارنة هدايةٌ للذين آمنوا على مرِّ الأجيال.

ويظهر ربط إضافيٌّ بين الآية وسياقها، وهو معالجة النَّفس المؤمنة وصيانتُها عمَّا يكدِّر صفاءها وإيمانها. وتوضيح ذلك أنَّ الصحابة كانوا يأنسون بالنَّبيﷺ ويرغبون في القرب منه، وقد بيَّن النَّص القرآنيُّ أنَّ على المؤمنين الالتزام بالأمر، سواء كان تفسّحاً أم كان نشوزاً، ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾، والنُّشوز هو القيام لأداء طاعة مثل الصلاة والجهاد والإحسان، أو لفسح المجال أمام أخيه المسلم، وذلك بطلب من النَّبيﷺ. وهذا الأمر –القيام من مجلسه بعد السَّبق إليه– قد يشقُّ على النَّفس، ويثير فيها الحزن والضِّيق، ممَّا قد يدفع الإنسان إلى الشكوى وبثِّ الهموم، وهذا –في الغالب– لا يكون إلا بالنَّجوى. وهذه النَّجوى إمَّا أن يلحق بها تكذيب وعصيان، واعتراض على النَّبيﷺ وحُكمه، وإمَّا أن يلحق بها استفسار منه واستيضاح لحكمه. وترتيب الآيات يدلُّ على ذلك، إذ جاءت آية أدب المجلس متبوعة بآية نجوى النَّبيﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنَّه إذا أمر النَّبيﷺ بأمر ولم تتضح للمؤمن الحكمة منه، فبإمكانه أن يناجي

[1] انظر: مقاتل: التفسير، 4/261–262.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 28/36.

النَّبيﷺ به سراً، قال اللهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة:12][1].

وأوضح الأمثلة على ذلك قسمة النَّبيﷺ للغنائم، حيث وجد المنافقون في أنفسهم فاتهموا النَّبيﷺ في عدالته، فعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّرضي الله عنه، قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْماً، أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ[2]، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِل، قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ القرآن لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"[3].

أما المؤمنون من الأنصار فقد وجدوا في أنفسهم فتناجوا فيما بينهم، ثم رفعوا ذلك لرسول اللهﷺ بأدب ورضى، فقد روى أنس بن مالكرضي الله عنه: "أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا: يَوْمَ حُنَيْنٍ، حِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ، يُعْطِي قُرَيْشاً وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِﷺ، مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِﷺ، فَقَالَ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟، فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ، قَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاس بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ

[1] وهذه الآية نسخت، ولم يعمل بها سوى علي بن أبي طالبرضي الله عنه، انظر: أبو عُبيد: الناسخ والمنسوخ، 258/1، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 50/8.

[2] هو حرقوص بن زهير بن السعدي، الملقب بذي الخويصرة: من بني تميم. وأمره عمر بن الخطاب بقتال (الهرمزان) فاستولى على سوق الأهواز ونزل بها. ثم شهد صفين مع عليّ. وبعد الحكمين صار من أشد الخوارج على علي، فقتل فيمن قتل بالنهروان. وفي سيرته اضطراب، انظر: الزركلي: الأعلام، 173/2.

[3] البخاري: صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ، برقم3610، 200/4.

إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، فَقَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَضِينَا"[1].

وهذا ترابط قوي في النَّص، يجمع بين المجالس الفردية والجماعية، ويبيِّن أنَّ بعض الأوامر التي تطرح في هذه المجالس قد يتبعها النَّجوى، فينبغي أن تكون النَّجوى بالخير، سواء كانت قبل المجلس أم بعده، فلا يحلُّ لمسلم أن يغتاب أخاه المسلم، إذ إنَّ مجالس النَّجوى يكثر فيها وقوع الغيبةِ والنميمةِ، مما يستوجب الحذر والتقوى.

رابعا: ربط الآية بمحور السورة الرئيس: يظهر ارتباط الآية بمحور السورة الذي يدعو إلى استحضار إحاطة علم اللهﷻ وعدالة تشريعاته، بشكل واضحٍ وجليٍّ، وذلك بما تضمَّنته من أوامر للمؤمنين تحفظ عليهم أخوَّتهم، وترغِّبهم في طلب العلم وتخبرهم بدرجات أهل العلم العالية. كما أنَّ تذييل الآية، بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾، فيه دلالةٌ واضحةٌ على ارتباط السورة بمحورها الذي يدعو إلى تعظيم رقابة اللهﷻ في قلوب المؤمنين، وإحاطة علمه، بما ظهر وما خفي على حد سواء. وترتبط الآية أيضاً بسياقها مع محورها الرئيس، حيث دلَّت الآية –مع سياقها– على آداب المجالس السرية والمجالس العلنية، وأنَّ إيمان المؤمنين بإحاطة علم اللهﷻ يُعدُّ من أقوى العوامل التي تشجِّعهم على الاستقامة في مجالسهم السرية. وهذا ما لا يفهمه اليهود والمنافقون لضعف إيمانهم ويقينهم باللهﷻ.

النتائج والتوصيات

وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات وهي على النحو الآتي:

أولا: النتائج:

1– أنَّ الاعتراض في القرآن الكريم، ينقسم إلى قسمين رئيسين:

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ، برقم1059، 733/2.

- اعتراض الجملة وهو: إدخال جملة أو أكثر داخل السياق القرآني دون التأثير على البناء النحوي للجملة الأصلية، لتحقيق غايات بلاغية، مثل التأكيد، والتوضيح، والتنبيه، أو إبراز معنى معين يفيد السامع.
- اعتراض الآية والآيات القرآنية، وهو أسلوب بياني من أساليب القرآن الفريدة، يتمثل: في ورود آية أو أكثر داخل سياق موضوع معين، رغم اخلافهما الظاهري؛ وذلك لتحقيق فائدة إضافية تُثري النَّظم القرآني، وتعزز الترابط والاتساق فيه، وتكشف عن جوانب متعددة من الفوائد التفسيرية والبلاغية والتربوية، وتُضيف إلى الآية مقاصد ودلالات جديدة، إلى جانب ما تحمله من معانٍ أصلية.

2- بدأ الاهتمام بأسلوب الاعتراض مبكراً عند أهل اللغة والتفسير:

- وكان أوَّل من أشار إليه من أهل اللغة الفراء، ثم تبعه أبو علي الفارسيُّ، وذكرهُ بوضوحٍ ابن فارس. كما قام ابن جني بتوضيح هذا المصطلح وتعريفه، وضرب أمثلة عليه من القرآن الكريم.
- أما من أهل التفسير: فأول من أشار لهذا المصطلح بوضوح؛ الإمام الطبري، وأول من اظهره الواحدي، ثم شاع في كتب التفسير، وكان من أكثرها اهتماماً به، الزمخشري في كتابه (الكشاف)، وأبو حيان في كتابه (البحر المحيط)، والسمين الحلبي في كتابه (الدرر المصون)، وابن عادل في كتابه (اللباب)، والألوسي في كتابه (روح المعاني).

3- ظهر الاهتمام الكبير بأسلوب الاعتراض عند ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير)، فلا يجاريه أحد من المفسرين ممن سبقه ولا ممن أتى بعده في عنايته بهذا الأسلوب، حيث لا يكاد يترك موضوعا فيه جملة أو آية معترضة وسط سياقها إلا ونبَّه إلى هذا الأسلوب.

4- تظهر فائدة اعتراض:

- الجملة أنَّها تأتي للتقرير أو للنَّفي والتأكيد والتنزيه والتبرك والتنبيه وغيرها من الفوائد، وهذه الفوائد من لوازم القول بالنَّظم في القرآن، وإعجازه في أسلوبه.

- أما فائدة الاعتراض في الآية، فلا ينحصر في أمور محددة، فكل آية معترضة تحمل في الغالب معنىً يختص بموضعها.

5- يُعدُّ الاعتراضُ وجهًا خاصًّا من وجوهِ علمِ المناسباتِ في القرآن الكريمِ، ويتطلَّبُ إعمالَ الفكرِ وتقليبَ النظرِ لاستكشافِ مدى ارتباطِ الآيةِ أو الآياتِ المعترضةِ بالسياقِ الواردةِ فيه.

6- فهم بعض المستشرقين أنَّ بعض الآيات الواقعة في غير سياقها، ظاهرةٌ مقحمة في النَّص القرآني لجهلهم أو تجاهلهم لأسلوب القرآن، وإعجازه في نظمه.

7- تؤكد نظرية الفراهي أنَّ لكل سورة نظاماً مستقلًّا، والآيات المعترضة داخلة في هذا النظام، فتكون الآية المعترضة مرتبطة بالسياق من جهة، ومرتبطة بعمود السورة من جهة أخرى.

8- ترتبط الآيات المعترضة غالباً بالسياق السابق واللاحق، ولكن ارتباطها بالسياق السابق أظهر.

9- يفيد اعتراض الآية والآيتين وسط سياق مغاير لهما فوائد كثيرة من أظهرها:

أ- المقابلة: مقابلة البشارة بالنذارة والثواب بالعقاب، والعمل الصالح بالعمل الفاسد، وهذا كثير في القرآن الكريم، وهذا من أبرز أسباب اعتراض كثير من الآيات للسياق الواردة فيه.

ب- تثبيت النَّبيﷺ والمؤمنين، وتأنيسهم، وذلك باعتراض بعض الآيات التي فيها تسلية للنبيﷺ، في سياق القصص القرآني، لتلفت نظر النَّبيﷺ إلى سنة الله في عقاب الكافرين، وإنجاء المؤمنين من الأنبياء السابقين وأتباعهم.

ج- لفت النَّظر إلى بعض المعاني الخفية، وذلك مثل دلالة اعتراض آية الدعاء، في سياق آيات الصيام، لتدل على أهمية الدعاء للصائمين، وأنَّه أحري بالإجابة.

د- التفنن بالخطاب، مثل اعتراض آية تحريم أكل مال اليتيم في سياق آيات الميراث في بداية سورة النساء، لتدل على عظم أكل مال اليتيم، وأن الوريث القاصر يتيم لا يجوز الاعتداء على ماله.

هـ- إلقاء الموعظة وسط آيات التشريع، وهذا يظهر من قوله تعال: ﴿حافظوا على الصلوات﴾، فهي آية تحض على الصلاة والمحافظة عليها، في سياق آيات التشريع التي تختص بالحياة الأسرية من زواج، وطلاق، وعدة، وغيرها.

ثانيا: التوصيات:

فإني ألفت نظر الدارسين إلى أهمية هذا العلم الذي يخدم النَّص القرآني، ويُظهر ترابطه واتساقه، ويدحض وهم الجاهل والمعاند الذي يظن أنَّ الاعتراض موطن ضعف، أو إقحام لبعض النَّصوص في غير سياقها، وهذا الموضوع فيه أبواب كثيرة يمكن بحثها؛ من ضمنها:

1- تتبع الآيات المعترضة في أجزاء محددة أو في القرآن كله ودراستها، وبيان سبب اعتراضها.

2- تتبع الآيات المعترضة بجميع أنواعها، ورصد مواضعها بدقة، لما في ذلك من فائدة عظيمة تعود بالنفع على حافظ القرآن الكريم؛ إذ إنَّ الآية المعترضة قد تبدو مستقلة عن سياقها، مما يجعلها أكثر عُرضة للنسيان أثناء التلاوة.

3- تتبع أسلوب الاعتراض، وتطور هذا المصطلح في كتب التفسير.

4- دراسة أسلوب الاعتراض عند ابن عاشور، وتتبع توجيهاته لاعتراض الجمل والآيات القرآنية، ومناقشتها، والخلوص إلى أهم توجيهاته لها.

5- تتبع الآيات المعترضة في السور المكية، ولي نية في إكمال ذلك بإذن الله تعالى.

6- تتبع الآيات المعترضة في القرآن الكريم التي وردت من قبيل تثبيت رسول اللهﷺ.

الخاتمة

كانت هذه جولة مع الآيات المعترضة في السورة المدنية، تجلَّت من خلالها حقيقة أنَّ القرآن الكريم كتاب محكم النَّسق، بديع النظام، ينتقل من غرض إلى غرض، ومن موضوع إلى آخر، وربما تتداخل بعض الموضوعات معترضة في سياقها بما يُظهر للقارئ أنَّها مستقلة عنه لأول وهلة، لكنَّها في الحقيقة حلقة وصل في سلسلة الهداية، وتمام الموعظة، وزيادة العلم والفائدة، وإحدى ركائز النَّظم القرآني، تشهد له على تميزه وتفرده عن كلام البشر، فبقي كلام اللهﷻ معجزاً، وحجة على خلقه إلى قيام الساعة، ومهما أُعيد النَّظر فيه، خرج طالب العلم بفوائد ودرر، لا تنتهي ولا تنقضي عن كثرة المطالعة والتدبر والنَّظر.

وما وُفِّقت فيه من توجيه سبب اعتراض الآيات المذكورة، فبفضل اللهﷻ أولاً، ثم بفضل كلام أئمة التفسير الذين انتبهوا لهذا العلم، وعالجوه في ثنايا تفاسيرهم الزاخرة بالفوائد والدرر الباهرة، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والله أسأل أن يجعل هذا الجهد في ميزان حسناتي، واجعله ربي متقبلاً، إنك أنت السميع العليم.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (المتوفى: 630هـ): أسد الغابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، 1994م،

ابن الأثير؛ ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

أحمد؛ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال (المتوفى: 241هـ): المسند، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ.

الأفغاني؛ سعيد بن محمد بن أحمد (المتوفى: 1417هـ): الموجز في قواعد اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1424هـ.

الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ): التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424 هـ، 2003 م.

الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ): سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض، السعودية، ط1، 1412هـ.

الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ): صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.

الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ): صحيح سنن أبي داود، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1423هـ، 2002 م.

الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ): ضعيف سنن الترمذي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991م.

الآلوسي؛ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ): روح المعاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ.

الانباري؛ أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (المتوفى: 328هـ): شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط5.

الأنباري؛ كمال الدين، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى:877 هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط1، 1424 هـ، 2003 م.

الأب أنستاس؛ ماري الألياوي الكَرْمِلي، بطرس بن جبرائيل يوسف عوّاد (المتوفى: 1366هـ)، صاحب امتيازها: مجلة لغة العرب العراقية، المدير المسؤول: كاظم الدجيلي، وزارة الأعلام، الجمهورية العراقية، مديرية الثقافة العامة، مطبعة الآداب، بغداد.

الإيجي؛ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسيني الشافعيّ (المتوفى: 905هـ): جامع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ، 2004م.

الباقلاني؛ محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر المالكي (المتوفى: 403هـ): تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط1، 1407هـ.

البخاري؛ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المتوفى:256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.

البطاينة؛ محمود فايز ذيب، مناسبة الآيات المعترضة للسياق القرآني الواحد، رسالة دكتوراة جامعة اليرموك، اشراف، الدكتور، محمد رضا حسن الحوري، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الأردن، 2016م.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الفراء الشافعي (المتوفى: 510هـ): معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ،1997م.

البقاعي؛ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: 885هـ): مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1408.

البقاعي؛ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

البناني: عبد الرحمن، حاشية البناني على متن جمع الجوامع، دار الفكر.

بودلي؛ كولونيل رونالد فيكتور، حياة محمد، ترجمة محمد فرج، عبد الحميد السحار، مكتبة مصر.

البوصيري؛ أحمد بن أبي بكر بن محمد البكري التيمي (المتوفى:821هـ): إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف ياسر بن إبراهيم، دار الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط1، 1420 هـ، 1999 م

البيضاوي؛ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد (المتوفى: 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.

التبريزي: محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1985م.

الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة (المتوفى: 279هـ): سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395 هـ، 1975م.

ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي (المتوفى: 728هـ): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ.

ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي (المتوفى: 728هـ): مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، السعودية، 1425هـ.

ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي (المتوفى: 728هـ): المستدرك على مجموع الفتاوى، جمعه: محمد بن قاسم (المتوفى: 1421هـ): ط1، 1418هـ.

الثعلبي؛ أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: 427 هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة، المملكة السعودية، ط1، 1436 هـ، 2015م.

الجاحظ؛ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي (المتوفى: 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.

الجاحظ؛ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي (المتوفى: 255هـ): الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ.

الشريف الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين (المتوفى: 816هـ): التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ، 1983م.

الشريف الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين (المتوفى: 816هـ): مبادئ قواعد اللغة العربية، تعريب: حامد حسين، مكتبة الفيصل، شاهي جامع مسجد ماركيت، اندرقلعة، شيتاغونغ، ط1، 1408هـ، 1987م.

الجرجاني؛ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل (المتوفى: 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ، 1992م.

الجرجاني؛ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل (المتوفى: 471هـ): المقصد في شرح الإيضاح، تحقيق: كاظم المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، 1982م.

ابن الجزري؛ شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833 هـ): النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، 1431هـ.

ابن جزي؛ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى: 841هـ): التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1416هـ.

الجصاص؛ أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: 370هـ): أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ، 1994م.

أبو جعفر المدني؛ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (المتوفى: 708هـ): البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1410هـ، 1990م.

ابن جني؛ أبو الفتح عثمان الموصلي (المتوفى: 392هـ): الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4.

ابن جني؛ أبو الفتح عثمان الموصلي (المتوفى: 392هـ): اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.

الجهاوي؛ عوض مرسي: الجملة المعترضة مواضعها ودلالاتها، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الامام محمد بن سعود، 1979م.

الجوزي؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ): زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ.

ابن أبي حاتم؛ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (المتوفى: 327هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ.

الحاكم؛ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي (المتوفى: 405هـ): المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.

ابن حبان؛ محمد بن حبان بن أحمد التميمي، أبو حاتم (المتوفى: 354هـ): صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ.

حجازي: محمد محمود الشافعي الأزهري (المتوفى: 1971م): التفسير الواضح، دار الجيل الجديد، بيروت، ط10، 1413 هـ.

ابن حجة؛ تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي (المتوفى: 837هـ): خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، ط1، 2004م.

ابن حجر؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852 هـ): موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، تحقيق: حمدي السلفي، وصبحي السامرائي، مكتبة الرشد للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1414هـ، 1993م.

ابن حجر؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852 هـ): تغليق التعليق، سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الأردن، ط1، 1405هـ.

ابن حجر؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852 هـ): تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط1، 1406هـ، 1986م.

ابن حجر؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (المتوفى: 852 هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ.

الحرالي؛ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (المتوفى: 638هـ): تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ط1، 1418 هـ، 1997 م.

ابن حزم؛ أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري (المتوفى: 456هـ): رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980م.

حسن؛ سامي عطا الجيتاوي: الجملة المعترضة في القرآن مفهومها وأغراضها البلاغية، مجلة الشريعة والدراسات، الكويت، 2004.

الحلي؛ عبد العزيز بن سرايا بن علي (المتوفى:750هـ): شرح الكافية البديعية، تحقيق: نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، ط2، 1412هـ.

الحميري؛ نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: 573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1420هـ، 1999م.

حوى؛ سعيد بن محمد بن ديب (المتوفى 1409 هـ): الأساس في السنة وفقهها، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1414 هـ، 1994م.

أبو حيان؛ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير (المتوفى: 745هـ): البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.

الخالدي؛ صلاح عبد الفتاح (المتوفى: 1443): التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، الأردن، ط2، 1433هـ.

الخطابي؛ أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (المتوفى: 388هـ): بيان إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م.

الخطيب الاسكافي؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 420 هـ): درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: د. محمد مصطفى، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط1، 1422هـ، 2001م.

الخفاجي؛ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحنفي (المتوفى: 1069هـ): عنايه القاضي وكفاية الراضي، دار صادر، بيروت.

خليل؛ محمد خليل: أول مرة اتدبر القرآن، العصرية، القاهرة، مصر، 2016م

الدارقطني؛ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي (المتوفى: 385هـ): سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1424 هـ، 2004 م.

أبو داوود؛ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ): سنن أبي داود، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

دروزة؛ محمد عزة بن عبد الهادي (المتوفى: 1984): التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383هـ.

ابن دريد: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: 170هـ): جمهرة أشعار العرب، تحقيق: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1431هـ.

ابن دقيق العيد؛ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب (المتوفى: 702 هـ): شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، تحقيق: محمد خلوف العبد الله، دار النوادر، سوريا، ط2، 1430هـ، 2009م.

الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (المتوفى: 748 هـ): تاريخ الإسلام، تحقيق: د بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424 هـ، 2003 م.

الرازي؛ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (المتوفى: 606هـ): مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.

الرازي؛ زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (المتوفى: 666هـ): مختار الصحاح، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5، 1420هـ.

الراغب؛ أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ): تفسير الراغب الأصفهاني، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ط1، 1422هـ، 2001م.

الرافعي؛ مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد (المتوفى: 1356هـ): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ، 2005م.

رشيد رضا؛ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ): تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

ابن رشد؛ أبو الوليد محمد بن أحمد (المتوفى: 520هـ): البيان والتحصيل، تحقيق: د محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1408 هـ، 1988 م.

الزبيدي؛ أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (المتوفى: 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.

ابن الزبير؛ حمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (المتوفى: 708هـ): البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1410 هـ، 1990م.

الزجاج؛ إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق (المتوفى: 311هـ): معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408 هـ، 1988م

الزحيلي؛ د. وهبة بن مصطفى (المتوفى:2015): التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418هـ.

الزركشي؛ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله (المتوفى: 794 هـ): البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، ط1، 1414هـ.

الزركشي؛ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله (المتوفى: 794 هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط1، 1376هـ، 1957م.

الزمخشري؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.

الزمخشري؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: 538هـ): المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: د.علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م.

الزيلعي؛ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد (المتوفى: 762هـ) تخريج أحاديث الكشاف، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط1، 1414هـ.

ابن السراج؛ أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (المتوفى: 316هـ): الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت.

أبو السعود؛ العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السمرقندي؛ أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد (المتوفى: 373هـ): بحر العلوم.

السمين الحلبي؛ أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (المتوفى: 756هـ): الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

السنيكي؛ زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري (المتوفى: 926هـ): أسنى المطالب في شرح روض الطالب، دار الكتاب الإسلامي، 1431هـ.

سيبويه؛ عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408 هـ، 1988م.

ابن سيده؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 458هـ): المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1417هـ، 1996م.

السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة، 1394هـ، 1974م.

السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ.

السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ.

السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير (المتوفى: 790هـ): الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ.

الشربيني؛ شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشافعي (المتوفى: 977هـ): السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق، القاهرة، 1285هـ.

الشعراوي؛ محمد متولي (المتوفى: 1418هـ): تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997م.

الشهري؛ نوح يحيى صالح، أثر السياق في النظام النحوي، دار طيبة الخضراء، ط1، 1441هـ.

الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: 1250هـ): فتح القدير، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق وبيروت، ط1، 1414هـ.

ابن أبي شيبة؛ أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (المتوفى: 235هـ): المصنف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409.

ابن الصانع؛ محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين (المتوفى: 720هـ): اللمحة في شرح الملحة، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ،2004م.

أبو طالب؛ المفضل بن سلمة بن عاصم، (المتوفى: نحو 290 هـ): الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط1، 1380هـ.

أبو الطيب؛ محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـ): فتح البيان في مقاصد القرآن، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، 1412 هـ، 1992م.

الصنعاني؛ لحسن بن أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الرُّباعي الصنعاني (المتوفى: 1276هـ): فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار، تحقيق: مجموعة بإشراف الشيخ علي العمران، دار عالم الفوائد، ط1، 1447هـ.

ضياء الدين؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: 643هـ): المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، تحقيق: معالي الدكتور عبد الملك بن عبد الله، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1420 هـ، 2000م.

الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (المتوفى: 360هـ): المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، 1426هـ.

الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى: 310هـ): جامع البيان، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 2001م.

الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى: 310هـ): جامع البيان، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ.

الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى: 310هـ): تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط3، 1387هـ.

الطنطاوي؛ محمد سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط1.

الطيبي؛ شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: 743 هـ): فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: إياد محمد الغوج، ط1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1434هـ، 2013م.

ابن عاشور؛ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (المتوفى: 1393هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

ابن عبد الحق؛ صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل الحنبلي (المتوفى: 739هـ): مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ.

عبد الرزاق؛ أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (المتوفى: 211هـ): تفسير عبد الرزاق، تحقيق: د. محمود عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1419هـ.

عبد المنعم؛ عبد الله صدقي: أثر السياق في تغيير دلالات الألفاظ الشرعية والتخريج عليه من الفروع الفقهية، إشراف، د. محمد العتربي، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا.

أبو عُبيد؛ القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي (المتوفى: 224هـ): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: محمد بن صالح، مكتبه الرشد، الرياض، ط2، 1418 هـ، 1997 م

عتيق؛ عبد العزيز: علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ.

ابن عثيمين؛ محمد بن صالح بن محمد (المتوفى: 1421هـ): شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، 1426هـ.

العجلوني؛ إسماعيل بن محمد الجراحي (المتوفى: 1162هـ): كشف الخفاء، مكتبة القدسي، القاهرة، 1351 هـ.

العراقي؛ عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن (المتوفى: 806): تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، دار العاصمة للنشر، الرياض، ط1، 1408 هـ، 1987م.

ابن العربي؛ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي (المتوفى: 543 هـ): سراج المريدين في سبيل الدين، ضبطه الدكتور عبد الله التوراتي، دار التحديث الكتانية، طنجة، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1438هـ، 2017م.

ابن العربي؛ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي (المتوفى: 543 هـ): أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ، 2003م.

العربي؛ رابح، أسلوب الاعتراض في القران الكريم من خلال الكشاف، رسالة ماجستير، اشراف الدكتور محمد العيد رتيمة، جامعة الجزائر كلية الآداب، 2002،2001م

العسكري؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (المتوفى: نحو ٣٩٥ هـ): الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1419هـ.

العصامي؛ إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي (المتوفى: 943 هـ): الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن عضيمة؛ محمّدُ بنُ عبدِ الخالقِ بنِ عليٍّ: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، تصدير: محمود محمد شاكر، الحديث، القاهرة.

ابن عطية؛ أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (المتوفى: 542هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.

العلوي؛ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني الطالبي (المتوفى: 745هـ): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423هـ.

أبو علي الفارسيّ؛ الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (المتوفى 377 هـ): المسائل الحلبيات، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، دار المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1407 هـ، 1987م.

أبو علي الفارسيّ؛ الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (المتوفى 377 هـ): المسائل العسكريات في النحو العربي، تحقيق: د. علي جابر المنصوري، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع ودار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2002م.

الغريب؛ د. رمضان خميس زكي: من أسرار التذييل في آيٍ من التنزيل، جامعة الأزهر.

ابن فارس؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: 395هـ): الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر: محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ، 1997م.

ابن فارس؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: 395هـ): مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م.

إسماعيل حقي؛ أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (المتوفى: 1127هـ): روح البيان، دار الفكر، بيروت.

الفراء؛ أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (المتوفى: ٢٠٧ هـ): معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط1.

الفراهي: عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي (المتوفى: 1349): تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، ط1، 2008.

الفراهي: عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي (المتوفى: 1349): دلائل النظام، المكتبة الحميدية، ط1، 1388هـ.

الفراهيدي؛ أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ): العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

ابن فرحون؛ بدر الدين أبو محمد عبد الله ابن الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن فرحون، العدة في إعراب العمدة، تحقيق: مكتب الهدي لتحقيق التراث، دار الإمام البخاري، الدوحة، ط1.

الفيروزآبادى؛ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ): القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426 هـ، 2005 م.

الفيروزآبادى؛ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

القاضي أبو يعلى؛ ممد بن الحسن بن محمد بن خلف الفراء القاضي الحنبلي (المتوفى: 458): المعتمد في أصول الدين، تحقيق: د. وديع زيدان حداد، دار المشرق، بيروت لبنان، 1986م.

ابن قدامة؛ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: 620 هـ): المغني لابن قدامة، تحقيق: الدكتور عبد اللَّه التركي، الدكتور عبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط3، 1417 هـ، 1997 م.

القرطبي؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ.

القزويني؛ محمد بن عبد الرحمن بن عمر، خطيب دمشق (المتوفى: 739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3.

قطب: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385 هـ): في ظلال القرآن، تحقيق: علي بن نايف الشحود.

ابن القيم؛ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى:751): مدارج السالكين، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1441هـ، 2019م.

ابن القيم؛ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى:751): بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ.

الكرماني؛ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (المتوفى: 786 هـ): تحقيق الفوائد الغياثية، تحقيق: د. علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ.

الكفوي؛ أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي (المتوفى: 1094هـ): الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الكُلَيْني؛ محمد بن يعقوب (المتوفى:329هـ): الكافي، تحقيق وتصحيح وتعليّق: عليّ أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران،1363هـ.

الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (المتوفى: 450هـ): النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

محيي الدين؛ بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403 هـ): إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، دار اليمامة، دمشق، دار ابن كثير، بيروت، ط4، 1415هـ.

المروزي؛ أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج (المتوفى: 294هـ): تعظيم قدر الصلاة، تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1، 1406هـ.

مسلم؛ مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري (المتوفى: 261هـ): صحيح مسلم، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن المعتز؛ عبد الله بن محمد ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد (المتوفى:٢٩٦هـ): البديع في البديع، دار الجيل، ط1، 1410هـ.

ابن معصوم؛ علي صدر الدين المدني (المتوفى: 1120هـ): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي: شكر، مكتبة العرفان، مطبعة النعمان، العراق، ط1، 1968-1969م.

مقاتل: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: 150هـ): تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1423هـ.

ابن المقفع؛ عبد الله (المتوفى: 142هـ): الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت.

مكي؛ أبو محمد بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار المالكي (المتوفى: 437هـ): الهداية الى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط1، 1429هـ، 2008 م.

المناوي؛ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين (المتوفى: 1031هـ): التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410هـ، 1990م.

المناوي؛ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين (المتوفى: 1031هـ): فيض القدير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ.

المنذري؛ الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي (المتوفى: 656 هـ): مختصر سنن أبي داود للمنذري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1431 هـ، 2010م.

ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن عليّ جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي، (المتوفى: 711هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.

ناظر الجيش؛ محمد بن يوسف بن أحمد، الحلبي ثم المصري، (المتوفى: 778 هـ): تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1428هـ.

النحاس؛ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي (المتوفى: 338هـ): إعراب القرآن للنحاس، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ.

نخبة من أساتذة التفسير؛ التفسير الميسر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط2، 1430هـ، 2009 م.

نخبة من اللغويين؛ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط2.

النسائي؛ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ): السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421 هـ، 2001 م.

النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ): رياض الصالحين، تحقيق: الدكتور ماهر الفحل، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط1، 1428هـ.

النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ): شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.

النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ): المجموع شرح المهذب، إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي، القاهرة، 1347هـ.

الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري أبو منصور (المتوفى: 370هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.

الهروي؛ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي (المتوفى: 1441 هـ): تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ، 2001م.

ابن هشام: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله، (المتوفى: 761هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6.

ابن هشام؛ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (المتوفى: 213 هـ): السيرة، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ، 1955م.

الهوَّاري؛ عباس بن حسن بن مصطفى (المتوفى: 1398هـ): النحو الوافي، دار المعارف، ط15.

الهيثمي؛ أبو الحسن نور الدين عليّ بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: 807هـ): موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية.

الهيثمي؛ أبو الحسن نور الدين عليّ بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: 807هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414هـ.

الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ): أسباب النزول، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط2، 1992م.

الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ): التفسير البسيط، نشر عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1430هـ.

الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ): التفسير الوجيز، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، بيروت، ط1، 1415هـ.

الوادعي؛ أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي (المتوفى: 1422 هـ): الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، دار الآثار، صنعاء، اليمن، ط4، 1428 هـ، 2007 م.

ياسين؛ أ. د. حكمت بن بشير، الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط1، 1420 هـ، 1999 م.

محمد؛ عبد الرحيم علي، الدراسات الإستشراقية حول القرآن (نموذج موير، واط، وبيل)، نشر في السودان الإسلامي يوم 30 – 05 – 2007م، https://www.sudaress.com/sudansite/543.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية؛ https://www.iicss.iq/?id=14&sid=2140.

قائمة الملاحق

ملحق (أ)

شهادة قبول نشر البحث المستل من الأطروحة

عنوان البحث: الآيات المتعرضة في سورة البقرة دراسة نظرية تطبيقية:

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2
كلية الحقوق والعلوم السياسية
مجلة البحوث والدراسات المعاصرة

رقم :14/ م.ب.د.م./2025

إشهاد بتحكيم ووعد بنشر مقال علمي

تشهد السيدة رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات المعاصرة -وهي مجلة علمية دولية محكمة تصدر عن كلية الحقوق والعلوم السياسية لجامعة سطيف 2 الجزائر- أن المقال العلمي الموسوم بـ:
"الآيات المعترضة في سورة البقرة دراسة نظرية تطبيقي" ، المرسل بتاريخ 03ماي 2025 من طرف الباحث عبد الستار يوسف أحمد ربان تحت إشراف الدكتور محسن سميح سعيد الخالدي بجامعة النجاح الوطنية فلسطين.

قد خضع للمراجعة والتحكيم، وبناء على التقارير الإيجابية للمحكمين تم قبوله للنشر وسيتم نشره ضمن المجلد الثالث للعدد الثاني في شهر نوفمبر 2025
سلم هذا الإشهاد للمعني بطلب منه ليستخدمه بما يسمح به القانون

سطيف في : 2025/07/07
رئيس تحرير المجلة

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات المعاصرة
د. سمية شاطوي

مجلة البحوث والدراسات المعاصرة مجلة علمية دولية محكمة
ISSN :2800-1044EISSN :2992-1317
موقع المجلة :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/952

An- Najah National University
Faculty of Graduate Studies

PARENTHETICAL VERSES IN THE MEDINAN SURAHS: AN ANALYTICAL AND APPLIED STUDY

By

Abdul Sattar Rayyan

Supervisor

Prof. Mohsen Al-Khalidi

This Disertation is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Ph.D of Fundamentals of Religion, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine

2025

PARENTHETICAL VERSES IN THE MEDINAN SURAHS:
AN ANALYTICAL AND APPLIED STUDY

By
Abdul Sattar Rayyan
Supervisor
Prof. Mohsen Al-Khalidi

Abstract

This study examines the stylistic features of objection, specifically parenthetical verses, in the Holy Quran. The analysis is presented in two chapters.

The first chapter is devoted to defining objection, elucidating its types and functions, and tracing its origins in interpretative literature—beginning with Al-Tabari and extending to Ibn Ashour, who devoted more attention to objection than other interpreters. Additionally, this chapter distinguishes objection from other related phenomena, such as contextual relevance, shifts in address, resumptive constructions, supplemental conclusions, and interjections. Furthermore, it highlights the close relationship between objection and context, as well as its role as a fundamental component in the theory of coherence.

The second chapter examines the parenthetical verses within the Madinan surahs, analyzing their overall significance, highlighting their apparent contradictions with the surrounding textual context, and elucidating their strong connection and coherence with the main theme of the surah. Among these apparent contradictions are contrasts between tidings and warnings, reward and punishment, the reinforcement and consolation of the Prophet (pbuh) and the believers, and the drawing of attention to subtle meanings. This analysis underscores the coherence of the Holy Quran and its rhetorical eloquence as a miraculous text.

This study contributes to elucidating the cohesive ties between parenthetical verses and their contexts, thereby challenging the misconception held by some that these verses are irrelevant to the Qur'anic discourse. Such misconceptions may arise from ignorance or arrogance, with the latter often being a deliberate stance adopted by certain detractors and orientalists.

In conclusion, the study recommends further research into tracing the parenthetical verses in the Holy Quran, with particular emphasis on their contextual appropriateness, especially within the Makkan surahs. Additionally, it suggests examining this stylistic feature in the exegesis literature, given its significant contribution to understanding the Holy Quran and elucidating its cohesion and coherence.

Keywords: parenthetical verses, objection, Qur'anic coherence, Medinan surahs, stylistic features, exegesis literature.